الهلال

- دور العرب فى عالم يتشكل من جديد
- الثقافة تصلح ماتفسده السياسة
- تغريب اللغة وأزمة الهوية

أبريل 2010 - الثمن 5 جنيهات

فؤاد زكريا

رائد التنوير والعقلانية

ملف خاص

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

رواية الهلال عدد ١٥ أبريل

روايات الهلال

مدارات الجنوب

حسن نور

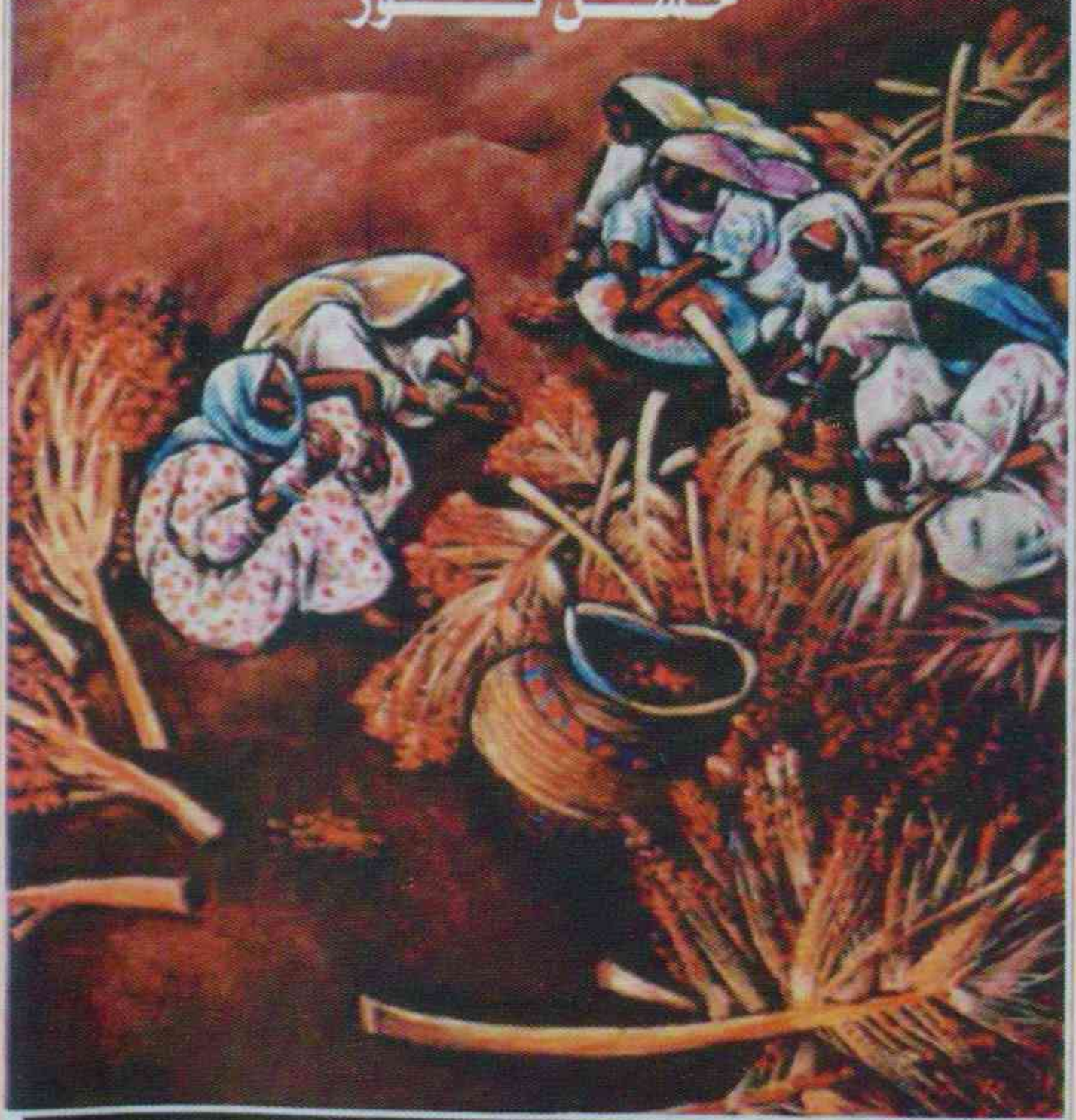

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

رئيس مجلس الادارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

المستشار الفنى
محمد أبو طالب

المدير الفنى
محمود الشيخ

مدير التحرير
مؤمن حسين

العام الثامن عشر بعد المائة
أبريل ٢٠١٠م - ربيع آخر ١٤٣١ هـ
برهمات ١٧٢٦ ق

الإدارة

القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب (المبتديان سابقا) ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا- المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
تليفون : ٢٣٦٢٥٤٨١
فاكس: ٢٣٦٢٥٤٦٩
البريد الإلكترونى

helalmag@yahoo.com

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٢دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار- البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال- تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار- إيطاليا٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

٦ - أين دور العرب في عالم يتشكل من جديد ؟ ..... عادل عبد الصمد

ملف العدد

٢٠ - **رائد التنوير والعقلانية** ..... د. عفاف العراقي

٢٨ - **فؤاد زكريا ورؤيته للتعصب** ..... د. نجاح محسن

٣٨ - **فؤاد زكريا والتفكير العلمي** ..... د. زكي سالم

٤٦ - **شيخ الفلاسفة** ..... د. مينا بديع عبد الملك

٥٠ - الواقع أو الحقيقة ..... رجائي عطية

٥٨ - تغريب اللغة وأزمة الهوية .....السيد الخولي

٦٤ - حديث عن لغة الضاد ..... وديع فلسطين

٦٨ - سريالية التعبير هذيان مضحك ..... د. كمال نشأت

٧٤ - الوثائق السرية بين يدي ..... محمد سعيد السيد

٨٠ - الإعلام والموروث الشعبي ..... د. فهد بن عبد العزيز العسكر

٨٨ - الفتنة في مجلس اللوردات ..... معصوم مرزوق

٩٢ - معراج نامة ..... (شعر) ..... ماجد يوسف

٩٤ - نافذة على الثقافة العالمية ..... د. ماهر شفيق فريد

١٠٤ - البحر الأحمر ..... (قصة) ..... وفية خيري

١٠٨ - تحولات الأمم والمستقبل العالمي ..... د. السيد أمين شلبي

١١٦- السينما و المجتمع فى مصر ..... د. وليد عبد الناصر

١٢٤ - رئيسة أكبر مستشفى في الإسلام ..... د. حسين نصار

١٣٠ - جلال أمين .. وبوح خجول ..... مصطفى نبيل

١٣٨ - علي محمود طه .. شاعر الأمجاد ..... محمد رضوان

١٤٢ - ثلاث موجات من التنوير ..... حلمي النمنم

١٥٢ - الثقافة تصلح ما تفسده السياسة ..... محمد الشافعي

١٦٠- محطات في بلاد الحبشة ..... هالة زكي

١٦٦ - تشيكوف يشفق على أبطاله ..... سوسن رحمي

١٧١ - لا تيأسي ..... (شعر) ..... سعد عبد الرحمن

١٧٢ - لوحات سردية من السيرة الذاتية (٨) ..... د. أحمد درويش

١٨٠ - نغم في حياتنا مضناك جفاه مرقده ..... د. ياسمين فراج

١٨٦ - أم كلثوم بأقلام الكتاب (٢) ..... عائشة صالح

١٩٦ - الإطلال إلي الداخل .. بين الرسام والمصور ..... د. عز الدين نجيب

٢٠٦ - حصاد المعارض ..... د. مريم المهدي

٢١٠ - أنابيش ..... عبد القادر حميدة

٢١٤ - مكتبة الهلال .....

٢١٨ - أخبار ثقافية .....

٢٢٢ - هلال دوت كوم .....

٢٢٦ - الكلمة الأخيرة .. أدب التفحش في السرد ..... صافي ناز كاظم

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٣٠ دولارا. اسيا وأوربا وافريقيا ٤٠ دولارأمريكاوكندا والهند ٤٠ دولارا. باقى دول العالم ٧٥ دولاراً. القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

بريد الاشتراكات
subscription_
dep @yahoo.com

المراسلات
باسم رئيس التحرير

السكرتارية الفنية
سناء عبدالعزيز

محمد عبد الحميد

خطوط
محمد العيسوى

مكتبة مجلة الإبداعية
www.ibtesama.com
منتدى شوقي

أين دور العرب في عالم يتشكل من جديد ؟

عادل عبد الصمد
adelabdelsamed@yahoo.com

مطلوب آلية عربية للمواجهة والتصدى للمخططات الإسرائيلية لتهويد القدس وابتلاع فلسطين

في رحاب مكتبة الإسكندرية- شعاع المعرفة الإنسانية- أمضيت الأيام الثلاثة الأولى من مارس حيث عقد المؤتمر السنوي السابع لمنتدى الإصلاح العربى «عالم يتشكل من جديد.. أين دور العرب ؟»

وقد سبق هذا المؤتمر مباشرة مؤتمر الشباب فى الفترة من ٢٧ فبراير إلى الأول من مارس وشارك الشباب فى ورش عمل وأوراق حول التمكين الاقتصادى للشباب، وإتاحة فرص أفضل لهم من أجل التغيير فى الوطن العربى، وخفض معدلات البطالة، وتشجيع الشباب على المبادرات والعمل في إطار تنموى اقتصادى باعتبار أن الشباب هم عماد مستقبل الأمة.. وجسد الشباب العربى فى الليلة الثقافية الختامية مدى حماسهم للعمل لعالم أفضل ورغبت فى البداية أن أسجل إعجابى بحماس الشباب الذى دافع عن نفسه وأثبت جدارته، وجديته في العمل الجماعى الناجح .. شباب يأمل فى مستقبل واعد راغباً في أن تكون لأمتهم مكانة متميزة وسط أمواج التغيير.. يرفضون أن تقود أمتهم دول أخرى مثل إسرائيل وتركيا وإيران تحت مسميات أنهم يمتلكون أدوات التقدم وهذا يجعلنا نستبشر خيرا بشباب العرب الذى لا يؤمن إلا بالعلم والمعرفة ويسعى للتقدم ولديه القدرة على التحدى .

وهنا تكمن الإجابة عن سؤال يتكرر منذ خمسين عاما : أين دور العرب ؟

الإجابة واضحة أمام الحضور وتكمن فى فعاليات الشباب الطموح الذى يتسلح بالعلم ويحرص على التحصيل ويشارك فى تنمية وطنه..

والسؤال الذى طرحته من جديد مكتبة الإسكندرية فى مؤتمرها السابع لمنتدى الإصلاح العربى.. أين دور العرب ؟

وهنا نتساءل أيضا أين يكمن هذا الدور ؟

وما أحوجنا فى هذه الآونة لدور إيجابى للعرب، دور فعال يقف أمام التحديات العديدة التى تسعى لتفتيت المنطقة وأطماع بعض الدول والمحاور فى تغييب دور العرب لتحقيق أطماع السيطرة على منطقة الشرق الأوسط.

القضية الفلسطينية

ضم هذا المؤتمر أكثر من ٨٠٠ باحث أكاديمى ومفكر وإعلامى.. جاءوا من مختلف أنحاء البلاد العربية لمناقشة أبرز قضايا العرب .وسط أحداث دامية فى فلسطين المحتلة .. بينما إسرائيل تفتك بأرواح الأبرياء وتعرقل السلام وتتجاوز القوانين الدولية ويصر «نتنياهو» على اختراق القوانين إلى حد الرعونة التى يكثر منها هذه الأيام فيعلن نتنياهو أمام لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست فى ٢٠١٠/٣/٢ تمسكه بمواصلة احتلال وادى نهر الأردن وتمسكه بالقدس الشرقية واستمرار بناء ١٦٠٠ وحدة استعمارية جديدة فى القدس المحتلة بالإضافة إلى قراره لبناء ١١٢ وحدة استعمارية فى الضفة الغربية، وقيام حكومة الاحتلال الإسرائيلى فتح «كُنيس الخراب» اليهودى على بعد عدة عشرات الأمتار من المسجد الأقصى إيذانا ببدء تشييد المعبد الثالث

د. إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندرية فى افتتاح المنتدى السابع

المزعوم محل المسجد المبارك، بينما عم الإضراب الفلسطينى القدس احتجاجا على هذه التصرفات الإجرامية..

وتستمر إسرائيل فى تصرفاتها غير المسئولة وتتحدى العالم وتقتحم باحة المسجد الأقصى وتعتدى على المصلين فى محاولة دنيئة لضم الحرم الإبراهيمى ومسجد بلال بن رباح إلى ماأ سموه التراث الإسرائيلى وقد تكون تلك الافاعيل الإسرائيلية وغيرها هى التى جعلت من المؤتمر له اهمية خاصة فى هذا الوقت بالذات حيث تم طرح العديد من القضايا والملفات فى وقت تحتاج فيه الأمة العربية إلى المنهج والأسلوب للتصدى والتسلح والمواجهه.. والأهم إلى التماسك وإلى وحدة الصف واستعادة الدور المسلوب متسلحين بالعلم

أين دور العرب في عالم يتشكل من جديد؟

والاقتصاد القوى والقضايا التى طرحت من خلال المنتدى هى التى تفتح الطريق ليكون للعرب دور حيث تضمنت العلاقات بين العرب والتحولات البيئية التى يشهدها العالم والثورة الرقمية أو الرقمنة..

وهى أمور لها أهميتها لدخول العرب إلى المستقبل الذى تتشكل فيه المنطقة بأيد خارجية وكان هذا واضحا فى تحذير الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندرية فى كلمته الافتتاحية، والتى فتحت آفاقا متعددة للنقاش حيث أكد أن العرب قادرون على طرح رؤى مستقبلية تساير ما يعترى العالم من تغيرات سريعة، وتساءل: لماذا أصبح العرب غير مدعوين لصياغة العالم الجديد ؟

وانتقد غياب الدور العربى وانعدام فعاليته فى ظل الظروف التاريخية المتغيرة، مشيرا إلى أن المتغيرات الحالية هى جزء من النظام السياسى العالمى. حيث اختلفت المعايير بعد انهيار الاتحاد السوفييتى، وظهور الصين حالياً كقوة علمية جديدة ونبه إلى ضرورة وجود مشروع جديد يجمع العالم العربى فى مواجهة تلك المتغيرات.

وأشار إلى أن أوروبا حققت وحدة شاملة على مستوى العلاقات التجارية والسياسية، فى حين أن العرب قد أسسوا جامعة الدول العربية ولم تتحقق تلك الوحدة المنشودة، وأكد على ضرورة التواصل الإقليمى فى العالم العربى وأهمية تملك وسائل العلم والمعرفة، حيث أصبحت الرقمنة جزءاً من التواصل العالمى.

وأضاف «القمع له حدود» لا يمكن أن نتخيل أن يستمر للأبد، لابد أن يتواجد الأمن مع السلام، لكن السلام لا يعنى الاستسلام إلى أمريكا وإسرائيل، فلا يوجد إنصاف دون عدالة ولا توجد عدالة دون مشاركة، ولام على بعض الدول العربية الكيل بمكيالين، فهناك دول عربية لا ترى فيها العدالة الاجتماعية، وتنتهك فيها حقوق الأقليات، فلابد من تطبيق معايير العدالة الاجتماعية على الجميع .

وانتقد تجاهل العالم العربى لتجارب الدول الآسيوية والإفريقية ودول امريكا اللاتينية والنظر تجاه أوروبا وأمريكا فقط فى حين أن هذه الدول حققت الكثير من الإنجازات والمعجزات فى فترة زمنية وجيزة فاقت التوقعات وأكد أن العالم العربى يعانى مشاكل عدة وتباعد وجهات النظرووجود خلافات كبيرة ومعوقات عديدة، منها الحرب فى العراق والسودان واليمن وأفغانستان إلى جانب الصراع العربى الإسرائيلى القائم برغم المواقف العربية الواضحة. واستعرض خريطة توضح التوسع الاستيطانى الإسرائيلى خلال ٦٠ سنة فى الأراضى الفلسطينية.

وذهب سراج الدين إلى أن أصعب التحديات التى ستواجه البشرية جمعاء هى التغيرات المناخية وحذر من خطورة المسألة التى تتعدى كونها ظاهرة طبيعية بل تمثل خطراً كبيراً يهدد العالم فمنذ عام ١٩٩١ خرجت تقارير العلماء تحذر من مخاطر جمة ولم يستجب أحد والآن حدث ماتخوفنا منه فارتفع منسوب البحر فبعد

أن كـان يرتفع بمعـدل ١.٨ ملى خـلال الثلاثين عاما الماضية. أصبح فى السنوات العشرالأخيرة يرتفع بمعدل ١ . ٣ملى مؤكدا أنه إذا ارتفع متراً واحداً فقط سيؤثر على ستة ملايين إنسان وهو ما يشكل خطورة على حياة سكان الدول الساحلية خلال الأعوام القليلة القادمة.

وأكد أن أخطر القضايا على الإطلاق هى حروب المياه التى ظهرت فى مناطق مختلفة فى العالم وخاصة فى ظل الكوارث البيئية التى يشهدها الآن وذكر أن تذبذب الأمطار فى إفريقيا يشكل خطرا كبيرا فالأمطار تقل فى وقت تتزايد فيه أعداد السكان، لافتا إلى أن إفريقيا مساحتها تمثل مساحة أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وألاسكا والصين. وحذر من قضية الأمن الغذائى، حيث يوجد أكثر من مليار إنسان مهددين بالجوع، فالمياه الجوفية فى جميع الدول العربية تنقص بمعدل ٣٠ متراً، كما أن العالم العربى كله يعتمد على استيراد المواد الغذائية، لذا فإنه سيكون أكثر عرضة لمخاطر ومشاكل الغذاء.

وأشار إلى أن تعداد السكان فى العالم العربى يبلغ ٥٪ من تعداد السكان فى العالم فى حين أن حصته ١٪ فقط من موارد المياه، وأوضح أن مصر يصل إليها ٤٤ مليار متر مكعب من المياه فقط، فى حين أن حصتها من المياه كانت ٥٥ مليار متر مكعب وذلك نتيجة تذبذب الأمطار.

وقال «لابد من دور تفاعلى تكاملى للاستعداد للتحديات التى تفرضها العولمة، فالثورة العلمية والمعرفية التى تحدث فى الخارج تتعدى كل الحدود، وأصبح إيقاع المجتمعات أسرع مما يتخيل البشر، مما جعل هناك فجوة بين من يحققون ثروات طائلة والفقراء، ونتج عن ذلك وجود مليار فرد يعانون الفقر والجوع فبرغم كل ما حققته البشرية من إنجازات، لم نستطع حتى الآن الحد من معدلات الفقر».

أهمية التقدم العلمى

وشدد على أهمية العلوم والاختراعات والتكنولوجيا وتركيز الدول المتقدمة عليها مما يجعل أمريكا تخصص ميزانية تصل إلى ٣٠ مليار دولار لتمويل الأبحاث العلمية، ويفسر قلق علمائها من ضآلة تلك الميزانية المخصصة للأبحاث - من وجهه نظرهم- لإيمانهم بأهمية العلم والمعرفة.

وكشف أن كلا من تركيا وإيران استطاعتا تحقيق تقدم كبير فى مجال البحث العلمى فاق المعدلات العالمية، حيث بدأت إيران خطة بعد حربها مع العراق، وهى خطة لمضاعفة البحوث العلمية والنووية وأصبحت ١٠٠ ضعف الوضع الذى كانت عليه قبل ٢٠ عاما، واستطاعت إيران تحقيق إنجاز كبير وهو أن تحقق ٢٠ ضعفا من معدلات التوسع العلمى فى العالم. فأين العرب من ذلك ؟

وكشف أيضاً أن سلطنة عمان وإيران وتركيا تنمو بمعدل ٣ أضعاف ونصف المعدل العالمى، أما براءات الاختراع فى العالم فقد خلا أول عشرين مركزاً فى القائمة العالمية من أى دولة عربية وظهرت إسرائيل وحققت الصين تقدماً ملموساً.

وقال إنه لكى نحقق التقدم لابد أن نتحدث عن أمور أساسية ألا وهى : التعليم ، والبحث العلمى، وحرية التعبير،

أين دور العرب في عالم يتشكل من جديد؟

ثم نتحدث عن باقي الأمور. لابد أن نضمن حق الوصول للمعلومة وأن نشارك الثورة الرقمية، وعلينا أن نقدر الكفاءات ولا نهتم بعدد سنوات التعليم. ويجب أن يؤمن المستثمرون بالشباب، فشركة مايكروسوفت العملاقة بدأت عام ١٩٧٨ بمجموعة شباب.

الديمقراطية

وتحدث عن الديمقراطية بأنها مطلوبة أساسا من أجل التنمية ومن أجل نظام يحمى كرامة الإنسان وتقدمه وأن المطلوب هو تجديد الخطاب الثقافى العربى عن طريق:

● التأكيد على حرية التعبير ومجابهة القيم البالية، وبدون حرية التعبير لا معنى للبحث عن الحقيقة ولا توجد الشفافية ولا تتم المسألة ولا يسمع الصوت المغاير ولا يوجد بحث علمى يفيد ولا تبنِ للمعرفة ولا تتقدم المجتمعات.

ثم يضيف قائلاً :

● ورثنا من فترات الركود الحضارى أحادية النظرة فى رؤية القضايا الخلافية. فتعصب كل منا لرأيه ومصلحته، واتهم غيره بالخطأ واشتط فى ذلك حتى رماه بالخيانة، أحيانا وبالكفر أحيانا أخرى، دون إدراك حقيقى لضرورة التحليل التفصيلى والاعتراف بتعدد الأبعاد فى كل المشاكل.

● يؤدى هذا التشبث المتعصب بأحادية النظرة إلى الضحالة والسطحية، وافتقاد العمق فى التحليل، والعجز عن تنمية الوعى بمعرفة دوافع الآخرين وبراهينهم، إنه يشف عن فقر الفكر، بمقدار ما يقود إلى تحوله إلى سلوك عدوانى غريزى، من هنا يفقد قدرته على الحوار، ويفتقد إلى روح التسامح ويضيع مفهوم حق الاختلاف، بل وإمكانية الخطأ الذى يحرر المجتهد ويصون إمكاناته.

● إن العرب والمسلمين هم الذين رفعوا راية العلم والمعرفة منذ أكثر من ألف عام، حين تمردوا على النص الأرسطى الموروث وأرسوا قواعد المنهج العلمى الحديث، المبنى على التجريب والقياس، وذلك قبل ستة قرون من ظهور جاليليو، الذى أجبرته محاكم التفتيش فى أوروبا على التراجع بينما كان العلم بأيدى عمالقة مثل ابن الهيثم .

● إن مجتمع العلم والمعرفة الذى أقاموه طوال فترات القرون الوسطى كان مجتمع التسامح والانفتاح.

● إن هذا المجتمع المتفتح المتسامح لا يفسح المجال للإبداع الأدبى والفنى فحسب، بل يتسع صدره للتعبير عن الشك والإيمان لهؤلاء الذين- مثل أبى العلاء المعرى- يفصحون عما فى قلوبهم فى رحلتهم من التساؤل إلى اليقين. ومن الشك إلى الإيمان إن هذا المجتمع لا يخشى الغزو الثقافى ولا يخاف ترك الموروث والمتعارف، ولا يهاب احتضان الجديد الغريب.

تطوير التعليم

وانتقد د. حسام بدراوى رئيس لجنة التعليم بالحزب الوطنى عدم القدرة على اتخاذ القرارات التى أصبحت ملحة فى قضية تطوير التعليم بمصر مشيرا إلى أن

مصر أصبح يطلق عليها أنها تتبع النظام الديمقراطى والديكتاتورى معا، حيث إنها أخذت أسوأ ما فى النظامين ليظهر ذلك جليا فى تأخر صدور قرارات تطوير وتعديل المناهج التعليمية فى مصر،مشيرا إلى أن تلك المناهج أصبحت تسجن الشباب طيلة ١٦ عاما فى إطار واحد صنعه النظام التعليمى بنفسه ليخرج الشاب غير قادر على ممارسة الديمقراطية، وغير قادر على الإنتاج .

مؤكدا أن الديمقراطية ليست شرطا للتنمية والتقدم بعد أن ضربت الصين أكبر مثل فى عدم صحة هذه المقولة..

وكانت النبرة التشاؤمية تخيم على كلام د. حسام بدراوى برغم أنه يحمل رؤية تفاؤلية دائماً ولكنه فى كلمته اعترف أن الكلام دون تنفيذ لا قيمة له وشدد على أن مثل هذه العبارات تتكرر منذ ٤٠ عاما وتلا أبياتا من شعر نزار قبانى من قصيدة «متى يعلنون وفاة العرب».

التغيير يبدأ من الحوار

واستشهد د. إسماعيل سراج الدين رداً على الدكتور حسام بدراوى ليدلل له على رؤيته التفاؤلية وأن الاستمرار فى النقاش واستمرارية الكلام فى قضايانا لا يجعلنا نمل أو نترك القضية فالكلام دائما بداية الفعل فى أى مجتمع وإن التغير يبدأ دائماً من الكلام وإلا أصبحت المجتمعات جامدة واستشهد هو أيضاً بالشعر وردد البيت الذى يقول :

بلادى وإن جارت علىّ عزيزة.. وأهلى وإن ضنوا علىّ كرام

وهو من شعر حافظ إبراهيم .

وفى كلمته الختامية استشهد ببيت شعر يقول:

الأم مدرسة إذا أعددتها .. أعددت شعبا طيب الأعراق

واختتم كلمته بشعر أبى القاسم الشابى:

إذا الشعب يوما اراد الحياة.. فلابد أن يستجيب القدر

ولابد لليل أن ينجلى

ولابد للقيد أن ينكسر.

كيف نصنع المستقبل العربى ؟

وشهد اليوم الثانى من الاجتماع السنوى السابع لمنتدى الإصلاح العربى تنظيم جلسة عامة لمناقشة كيفية صنع المستقبل العربى فى ظل عالم متغير، إضافة إلى عقد عدد من الجلسات المتوازية تحت ثلاثة محاور رئيسية بعنوان نظرة على الوضع الإقليمى العربى» و«الثورة الرقمية» و«التغيرات المناخية».

افتتح الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندرية الجلسة العامة لليوم الثانى من الاجتماع السنوى السابع لمنتدى الإصلاح العربى، والتى جاءت بعنوان «العالم يتغير..كيف نصنع مستقبلنا» شارك فى الجلسة الدكتور ماجد عثمان رئيس مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء المصرى، والكاتبة رغدة ضرغام، والسيد أيمن الصياد رئيس تحرير مجلة وجهات نظر، وجينيفر

العرب فى حاجة ماسة للتقدم العلمى ومواكبة الثورة العلمية لصناعة مستقبل أفضل

أين دور العرب في عالم يتشكل من جديد؟

كوريرو منسقة منظمة (تاكينج آى تى جلوبل) ورهف حرفوش من سوريا.

وقال سراج الدين إن العالم الآن فى تغير مستمر مما يتطلب مراجعة السياسات العربية وتنسيق المواقف بين الدول العربية تجاه تلك التغيرات وأشار إلى أن صنع القرار العربى لا يتم بالسرعة الكافية بما يتناسب مع التطورات التى تحدث فى العالم كله، مؤكدا أن الأمر أدى إلى ضعف التأثير العربى الجماعى نتيجة تصرف كل دولة وفقاً لرؤيتها الخاصة.

التحدى الأكبر

ومن منظور سياسى، تحدثت الكاتبة رغدة ضرغام عن دور العالم العربى فى ظل التغيرات السياسية التى تحدث فى العالم الآن خاصة بعد انتخاب باراك أوباما ليكون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية واتخاذ الدول مواقف تتراوح بين التلهف وخيبة الأمل تجاه حكم أوباما.

وأشارت إلى عدم وجود عالم عربى موحد فى هذا الخصوص، فمعظم الدول تتقبل الواقع الجديد والسياسات الحالية من أجل حماية نفسها. وأكدت على أهمية أن يكون للدول العربية دور أساسى فى إعادة تشكيل العالم الجديد، وذلك من خلال تبنى استراتيجية أساسية وهى التحدث بلغة المصالح من الدول المحايدة.

وأضافت ضرغام أن بعض الدول العربية فى حالة إنكار تام عند النظر إلى قدرتها على المساهمة فى تشكيل العالم الجديد دون النظر إلى الوضع العربى الداخلى أولاً. وأكدت أن التحدى الأكبر الذى يواجه تلك الدول الآن هو قدرتها على إعطاء المرأة حقوقها فلا توجد دولة مؤهلة أن تكون فاعلة وهى تبعد المرأة عن مناصبها وحقوقها.

التفاعل مع العالم

وعن قدرة العالم العربى على التفاعل مع العالم الخارجى، قال الدكتور ماجد عثمان: إن العرب يتمتعون بالصدارة بين الدول الغربية فقط فى معدلات الزيادة السكانية وأكد أن كل المؤشرات توضح أن الزيادة السكانية فى الدول العربية تتزايد بشكل كبير وقد تصل فى المستقبل إلى ٦٠٠ مليون نسمة عام ٢٠٥٠، بحيث يتساوى عدد سكان العالم العربى مع عدد سكان دول أوروبا .

وقال إنه بينما يتجه الهرم السكانى فى أوروبا نحو الشيخوخة، فإن الهرم السكانى للعالم العربى المتوقع عام ٢٠٥٠ هو هرم شاب مما يعتبر فرصة ذهبية لدفع الشعوب العربية نحو استغلال الطاقات الشبابية وزيادة الإنتاج وأوضح أن هذه الشريحة الشبابية قد تمثل عبئا ثقيلاً فى المستقبل إذا لم يتم استغلالها بطريقة سليمة من خلال تطوير التعليم لتنمية القدرات والمهارات .

لغة العصر

وتحدثت رهف حرفوش عن تجربتها فى المشاركة فى الحملة الانتخابية للرئيس الأمريكى باراك أوباما، والتى اعتمدت من خلالها على الإنترنت والمواقع الاجتماعية مثل الفيس بوك وتويتر من أجل الترويج لبرنامج أوباما الانتخابى والتواصل مع

ضم المؤتمر أكثر من ٨٠٠ باحث أكاديمى وإعلامى

الناخبين وقالت إنه بالاعتماد على التكنولوجيا تمكن الشباب من تجنيد أفراد عاديين من الناخبين للترويج للحملة بجهودهم الذاتية، كما تمكنت الحملة من جمع تبرعات بقيمة ٤٠٠مليون دولار من المبالغ الصغيرة المقدمة لدعم الحملة من خلال الإنترنت.

وأشارت حرفوش إلى أن الإنترنت يتيح الآن مجالاً واسعاً للتواصل والترويج للأفكار وإقامة المشروعات دون الاستعانة بوسائل الإعلام التقليدية، مؤكدة أن العالم العربى يمكنه الاستفادة من تلك التجربة للقيام بدور أكثر فاعلية فى العالم الجديد فى جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

دور الشباب

وعن دور الشباب فى العالم الجديد،

عرضت جينيفر كوريرو تجربتها فى إنشاء منظمة (تاكينج آى تى جلوبل) وبرنامج «شباب من أجل التغيير» الذى تقيمه المؤسسة بالتعاون مع مكتبة الإسكندرية. وقالت: إن المنظمة تعمل مع شباب من أكثر من ١٥ دولة عربية وهى ملتزمة بإيجاد مساحات يعبر فيها الشباب عن رأيه ويجد فرصاً للتعليم والإبداع وإيجاد فرص عمل

وأكدت على ضرورة أن تتفاعل الحكومات العربية مع الشباب وأن توفر لهم الفرص لاستغلال طاقاتهم وإبداعاتهم بشكل إيجابى، وذلك من خلال تفعيل الشراكة بين الشباب العربى وإنشاء برامج متطورة لتعليم وتدريب الشباب وتطوير برامج لتقديم منح صغيرة للشباب المبدع للاعتراف بأهمية

أين دور العرب في عالم يتشكل من جديد؟

المشاركات الإيجابية للشباب العربى فى تطوير المجتمع.

وفى هذا الإطار ، قال أيمن الصياد: إنه لا يظن أن العالم العربى يتبع منهجاً إقصائيا للشباب مشيراً الى أن معظم المؤسسات الثقافية والمجتمعات العربية تعترف بأن الشباب هو الذى يتبوأ دورا فاعلا فى هذه المجتمعات وأشار إلى أن التجارب الناجحة فى المؤسسات الثقافية العربية مثل مكتبة الإسكندرية ومؤسسة قطر هى التى توفر أكبر عدد من البرامج التى تحتوى طاقات الشباب.

آليات الإصلاح والتغيير

عقب ذلك، ناقش أكثر من ٨٠٠ مشارك من مصر والدول العربية فى الاجتماع السنوى السابع لمنتدى الإصلاح العربى آليات الإصلاح والتغيير فى الوطن العربى من خلال ثلاثة محاور فى محاولة للوقوف واستشراف الدور العربى فى المستقبل.

جاء المحور الأول للمؤتمر بعنوان «نظرة على الوضع الإقليمى العربى» وناقشت الجلسات ثلاثاً من القضايا المهمة؛ حيث تناولت الجلسة الأولى موضوع: حالة العلاقات العربية، فيما ناقشت الجلسة الثانية موضوع: تأثير العلاقات الإقليمية على حالة الحوار الداخلى وانتهت الجلسة الثالثة بموضوع: دور الإعلام العربى فى العلاقات العربية – العربية.

شارك فى الجلسة الأولى التى أدارها قدرى حفنى، أم العز الفارسى التى قالت إنه بعد ما يزيد على ٢٠عاماً لا يزال الوطن العربى يعيش حالة من التجزئة، إلى أن بدأت بعض الدول فعلاً فى الانقسام وأكدت على أهمية التكتل الاقتصادى العربى لمواجهه التكتلات العالمية ووضع أسس للدخول فى النظام العالمى الجديد لتتشكل قوة متكاملة فى الأنشطة الإنسانية العالمية. وشددت على أهمية التعاون العربى المستقبلى والاهتمام برأس المال البشرى باعتباره رأس مال الأمة ونادت أم العز بضرورة ابتعاد الدول عن رسم الطريق فى جميع الدول العربية لكى تتمكن الأمة العربية من الاتجاه للعروبة.

المطلوب موقف عربى موحد

وتحدث سعيد عبدالله حارب، عن العلاقات العربية العربية، مؤكداً أنها تحتاج إلى مراجعة خاصة مع تبدل العديد من المفاهيم والأوضاع فى المنطقة، وبالأخص بعد انتهاء الحرب الباردة وحالياً بعد الحروب التى تهدد المنطقة وانتقد حارب عدم وجود موقف عربى موحد وتأثير العلاقات الخارجية على علاقات الدول العربية ، وعدم وجود الاستقلال السياسى.

وأشار إلى خطورة التدخل الإيرانى فى غياب تأثير الدول العربية فى القضايا الخطيرة وانتقد عدم وجود تصور عربى حول العلاقات مع إيران وألمح إلى تزايد الدور التركى ووجوده بقوة، لافتاً إلى أهمية تبدل النظرة لها كما تطرق حارب إلى الحرب الأخيرة مع الحوثيين وانسحاب الدول العربية من حل الخلافات والمشاكل

العربية مما يعطى فرصاً قوية للتدخلات الغربية ونادى بأهمية الدور المصرى والسعودى فى الوطن العربى باعتبار كلا من الدولتين تمثل أهمية وقيمة فى المنطقة.

ورأى أن القضية الفلسطينية أصبحت تفرق العرب ولم تعد تجمعهم كما كانت دائماً، وقال: حالياً أصبحنا فى موقف ضعف ونطالب فقط بالسلام ولم يعد السلام فى مقابل الأرض، وعلينا أن نبحث عن الحلول البديلة.

فيما أكد على الدين هلال على حالة التردى التى يعانى منها الوطن العربى لافتاً إلى أن الثقافة هى الحلقة التى تجمعنا وهى التى نعول عليها فى أوقات التراجع وأكد أن الصراعات الداخلية والحروب الأهلية هى أخطر ما يهدد الوطن العربى، ولفت إلى محاولة الاختراق الأمريكى للوطن وبالأخص بعد مناداتها بفكرة حماية الحدود لمراقبة الحدود براً وبحراً وجواً.

وعاب هلال على بعض الدول احتفاءها بوجود القواعد العسكرية على أراضيها، واعتبر ذلك نوعًا من الاحتلال العسكرى غير المباشر. وانتقد غياب الرؤية الشاملة العربية وانحدار ردود الأفعال وهوانها وأكد على أنه لا يوجد مستقبل لدولة عربية منعزل عن مستقبل دول الجوار لذا يجب أن يتم التحرك بشكل جماعى وفى إطار رؤية شاملة ،وأجمع المشاركون فى هذه الجلسة على أن ما يجمع بين العرب أكثر مما يفرقهم، وأهم ما يجمعهم التاريخ المشترك والثقافة والحضارة العربية.

الصراعات والانقسامات العربية

وحاءت الجلسة الثانية فى محور الوضع الاقليمى العربى لتناقش تأثير العلاقات الاقليمية على حالة الصراع الداخلى،

وأدارها يحيى الجمل وتحدث فيها باسم الجنابى من العراق، مشيرا فيها إلى خطورة الطائفية التى تنهش فى جسد الوطن العربى، وانتقد الصراعات التى تنشب ما بين الدول العربية وبعضها والانقسام الحاد داخل النظم العربية ما سيدفعها للانهيار وتطرق للمشهد اللبنانى والفلسطينى والسودانى والصومالى مشيراً إلى انتهاء الدور الإقليمى غير العربى على حساب الروابط العربية، وحول المشهد العراقى أكد أن ذلك التدخل يثير القلق والمخاوف ويطرح تساؤلاً حول من سيحكم العراق ؟ وأوصى بأهمية البحث عن آليه لوقف التدخلات الإيرانية فى شئون الدول العربية ومحاولة وقف المشروع الصهيونى فى المنطقة.

بينما تحدث حيدر إبراهيم عن تأثير العلاقات الإقليمية على حالة النزاعات الداخلية فى السودان، وأعلن أن الدول العربية بدأت تستفيق فى حين أن السودان سينقسم فعلياً فى يناير المقبل وسيصبح الجنوب مستقلاً ورفض تعليق كل اللوم على المؤامرات الخارجية مؤكداً أن العامل الذاتى له دور كبير وأشار إلى أن التدخلات نتيجة للتفكك الداخلى ولام على الجامعة العربية ضعف دورها.

وأكد أن مصر كانت تملك كل الأوراق لحل المشكلة السودانية، لكنها توقفت عن الدور كما أكد أن السودان عجز عن استغلال موقعه الاستراتيجى فى إفريقيا وألمح إلى أن الدور السودانى فى إفريقيا أصبح مهمشاً بعد أن كانت الثقافة السودانية لها دور كبير فيها .

من جانبه أكد [illegible]

أين دور العرب في عالم يتشكل من جديد؟

على غياب الإدارة الوطنية فى لبنان والسودان وفلسطين والعراق، لافتا إلى أنها حالات تستحق الدراسة. وأكد على خطورة وجود انقسامات حول مواجهة إسرائيل والفرقة التى تحوم حول العرب وأشار إلى خطورة عدم استقرار الأوضاع فى الدول العربية فى ظل غياب الكيان العربى، ولفت إلى وجود حملات غربية لاستمرار الوضع العربى على ما هو عليه وأكد أن هذه القوى الخفية تحاول دعم استمرار غياب الديمقراطية وهو الوضع الذى يجعل إسرائيل فى وضع جيد.

دور الإعلام العربى

أما الجلسة الثالثة فى هذا المحور فجاءت بعنوان «دور الإعلام العربى فى الخلافات العربية-العربية» وأدارها كرم جبر، وتحدث فيها جلال نصر مثيراً مشكلة غياب الوسائل الإعلامية التى تمثل الأمة العربية ولفت إلى عدم اهتمام الفضائيات بما يحدث داخل البلاد التى تنتمى إليها، وألمح إلى أنها تتحرك وفقاً للأنظمة التى تحدد الاتجاهات الخاصة بها وتطرق إلى دور وسائل الإعلام الحديثة فى كشف خداع بعض الفضائيات فى ظل عدم استقلالها.

وقال زهير قصيباتى: إن العالم العربى الآن يعيش حقبة الانهيارات التى يحاول بعض الحكام حجبها تحت ستار المصالحات، وانتقد تبادل التشاتم باسم السجال فى الصحافة والفضائيات وانتقد غياب المهنية فى وسائل الإعلام وغياب معايير الموضوعية واستغلال منصة الإعلام الحديث عبر الإنترنت لتشويه الوحدة العربية وما بقى منها.

وانتقد قصيباتى هيمنة اللغة الطائفية والشوفينية على كثير من وسائل الإعلام. وأكد أن هناك وسائل إعلامية تتعمد تغييب الحقائق والوقائع وإشعال الحروب الأيديولوجية لافتاً إلى أن الغالب هو استخدام التكهنات والشائعات وطالب بضرورة وجود ميثاق شرف إعلامى يتحكم فى لغة الشتات ويحتكم للغة العقل وميزان الثبات والمصداقية.

وانتقد المشاركون فى الجلسة سلبية الدور الإعلامى والحملات الوهمية التى يقودها البعض للتفرقة، وطالبوا الإعلاميين الأكفاء بالوقوف فى وجه الإعلام المحرض.

سلبيات الوضع العربى

وخلال الجلسات الثلاث تمت بلورة عدد من السمات الأساسية المميزة للدول العربية فى الفترة الراهنة من أبرزها: عدم وجود موقف عربى موحد ، معاناة الدول العربية من التفتيت الداخلى، حالة التبعية التى تعيشها معظم الدول العربية الإساءة للآخر.. كماأجمع المشاركون على وجود أولوية الاعتبارات القطرية على الصالح العربى العام، كما انتقد المشاركون الخلل الجسيم فى العمل العربى المشترك.

وعاب المشاركون على قادة الوطن العربى التهاون فى مسألة الاختراق الخارجى للشئون الداخلية واتهموا الدول العربية بالفشل فى إدارة الأزمات وأكد البعض على أن الإعلام العربى يعكس صوت الحكومات أو الجهات الممولة له وألمحوا إلى أن الإعلام يعمل على تأجيج الخلافات العربية- العربية وأشارت أصابع الاتهام إلى الإعلام العربى

جلسات المنتدى جمعت الصيوف من كل الأقطار العربية وبتوسطهم د. أحمد جويلى

باعتباره يسهم فى تضليل الرأى العام العربى.

وطالب المشاركون بدعم الديمقراطية وحقوق الإنسان ودعم التعليم والبحث العلمى، ودعم التكامل الاقتصادى بين الدول العربية، وأوصوا بأهمية تعريف المصلحة القطرية فى إطار رؤية عربية أشمل وطالبوا باستعادة دور جامعة الدول العربية وأكدوا على ضرورة وضع ميثاق شرف إعلامى يحتكم إلى العقل العربى وبلورة بيئة تشريعية جديدة للعالم العربى ووضع قواعد عامة مهنية تحكم الإعلام العربى.

الثورة الرقمية

من جانب آخر، جاء المحور الثانى للمؤتمر تحت عنوان «الثورة الرقمية» حيث ناقش على مدار جلساته عدة موضوعات هى الرقمنة والعالم العربى، ومستقبل اللغة العربية فى ظل الرقمنة ،حقوق الملكية الفكرية فى ظل الرقمنة.

ترأس الجلسة الأولى بعنوان «الرقمنة والعالم العربى» أيمن الصياد، رئيس مجلة وجهات نظر، وتحدث فيها الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندرية.

وعرض سراج الدين فى تلك الجلسة المشروعات الرقمية التى تقوم بها مكتبة الإسكندرية من أجل تعزيز المحتوى العربى على الإنترنت بسواعد شباب مصرى عربى عمره بين ٢٢ و٢٩ عاما تحت قيادة خبراء فى مكتبة الإسكندرية ، ومنها مشروع إعادة نشر كتب التراث والمخطوطات التراثية، ومشروع الأرشيف الرقمى لذاكرة مصر المعاصرة، والأرشيفات الرقمية لجمال عبدالناصر والسادات وبطرس بطرس غالى وغيرهم، ومشروع موسوعة الحياة العربية، والمكتبة الرقمية العالمية والمكتبة الرقمية العربية، ولغة التواصل الرقمية العالمية.

وأكد أن مكتبة الاسكندرية تركز منذ إعادة إحيائها على أن تكون رائدة فى العصر الرقمى، خاصة فى جانب اللغة العربية وقد حدث ذلك بالفعل من خلال

أين دور العرب في عالم يتشكل من جديد؟

العديد من المشروعات الرائدة دوليا والتى جعلت العالم يثق فى مكتبة الإسكندرية، وهو ما تمثل فى انضمامها للاتحاد الدولى للمكتبات الرقمية عام ٢٠٠٥، أى بعد ثلاث سنوات من افتتاحها.

وأشار إلى قيام مكتبة الإسكندرية بلعب دور محورى فى تأسيس أكبر مكتبة رقمية عالمية والتى أطلقتها مكتبة الكونجرس من مقر منظمة اليونسكو فى باريس فى إبريل ٢٠٠٩ بالتعاون مع عدد من الجهات العالمية. وتتيح المكتبة لمستخدميها من القراء والدارسين والمهتمين الاطلاع على كنوز العالم المعرفية والثقافية عبر الأرشيف الإلكترونى الذى يتضمن مقتنيات أكثر من ٣٠ مؤسسة عالمية.

وقال سراج الدين إن مكتبة الكونجرس استعانت فى هذا المشروع الضخم، الذى رعته منظمة اليونسكو بالمساعدات التقنية من فريق عمل متخصص من مكتبة الإسكندرية والذى كان له اليد فى وضع أساسات هذه المكتبة الرقمية الهائلة. كما أسهمت المكتبة بإضافة كتاب وصف مصر للمكتبة الرقمية العالمية والذى يرجع تاريخه إلى حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٨ والذى تم تحويله إلى صورة رقمية بمعرفة مكتبة الإسكندرية عام ٢٠٠٧.

ولفت مدير مكتبة الإسكندرية الى أنها لم تكتف بأن تكون مساهماً رئيسياً فى مشروع المكتبة الرقمية العالمية، بل أطلقت أيضاً أكبر مكتبة رقمية باللغة العربية فى العالم أجمع، حيث احتفلت أوائل العام الماضى ٢٠٠٩بوضع أكثر من مائة ألف كتاب عربى على شبكة الإنترنت امتثالا لرسالة مكتبة الإسكندرية التى تسعى لإتاحة المعرفة للجميع.

وأضاف أن عدد الكتب العربية المرقمنة حاليا وصل إلى ١٥٠ ألف كتاب فى كافة مجالات المعرفة والعدد فى تزايد مستمر، ويمكن لأى شخص تصفح هذه المجموعة الضخمة من الكتب من خلال الرابط الإلكترونى hTTP://dar.bibalex.org وهو الأرشيف الرقمى الذى قام بإنشائه المعهد الدولى للدراسات المعلوماتية بمكتبة الإسكندرية ليضم مجموعات الكتب المختلفة والصور والخرائط وبذا هذا الإنجاز صعوبة الحصول على الكتب التى نفدت طبعاتها أو التى قد تكون من التخصص بما يصعب على ناشر الاستثمار فيها لقلة قرائها أو تكون كتبا قديمة لا تخضع لحقوق الملكية الفكرية ولكنها تحتاج لنشر جديد بأعداد صغيرة.

غياب اللغة العلمية

وقد هاجم د. أحمد شوقى أستاذ الوراثة بجامعة الزقازيق اللغة الإعلامية التى تعمل على تغييب العلم من مناقشة القضايا والظواهر اليومية التى تطرأ على المجتمع العربى ودلل على ذلك بمثال ظهور «فيروس» أنفلونزا الخنازير وما تبعه من «مذابح الخنازير» فى مصر وكيف روج الإعلام لحملة لمساندة التخلص من الخنازير ورغم تحذير العلماء من نتائج ذلك على الشارع المصرى سريعا وهو ما اتضح فيما بعد فى ظاهرة التخلص من القمامة كما أن الحقائق العلمية من أكبر هيئات علمية دولية كانت تؤكد على «براءة

د. إسماعيل سراج الدين وسط شباب يأ مل فى مستقبل واعد

الخنازير» وأصر الإعلام على حملته وأوصى د. أحمد شوقى بضرورة تبنى الإعلام لصوت العلم فى طرح قضايانا.

الكاتب الاقتصادى سعد هجرس، أشار إلى تنوع الإعلام العربى اليوم وتعدده ما بين إعلام قومى، ومعارض، وخليجي وأيضا أجنبى، حيث فضائية روسيا، وأمريكا، وألمانيا وغيرها، وتمويل التيار الأصولى للعديد من الفضائيات والصحف فى الوطن العربى وكل منهم يتحدث بلغة وقيم مهنية مغايرة ولذلك فقد طالب ببنية تشريعية جديدة، ومظلة رقابية من المجتمع المدني لمراقبة ومحاسبة الإعلام فى الوطن العربى، لاستعادة القيم المهنية، وتحرير الإعلام من سطوة ونفوذ المال والسلطة.

ووصف المرحلة الإعلامية الحالية «بمرحلة الانهيارات العربية»، وطالب بإلغاء حبس الصحفيين، وسرعة إصدار قانون تداول المعلومات لتحرير الإعلام المصرى.

السوق العربية المشتركة

وقد أعلن د. أحمد جويلى الخبير الاقتصادى والوزير المصرى السابق فى ختام المؤتمر عن بادرة أمل بالبدء فى المرحلة الأولى من العمل بالسوق العربية المشتركة هذا العام ٢٠١٠ حيث قررت ١٧ دولة عربية وقف التعامل فيما بينها بقانون الجمارك منذ يناير ٢٠٠٥ وتم التنفيذ بشكل فعلى لجميع الدول الـ١٧ هذا العام، كما أنه تم إعلان اتحاد البنوك العربية أيضاً مع يناير ٢٠١٠ وستنتهى جميع المراحل للعمل بالسوق العربية لتعمل بالنظام المتبع بالسوق الأوروبية فى عام ٢٠٢٠.

جائزة المؤتمر

وقد تم إعلان جائزة المؤتمر التى كانت قد اعتمدتها المكتبة باسم د. عادل أبو زهرة الناشط المجتمعى وأحد أعضاء المكتبة المؤسسية. والجائزة خاصة بأفضل تجربة قامت جمعية أهلية لخدمة المجتمع وقد فاز بها مركز الدراسات السياسية لاسم د.محمد السيد سعيد بأفضل إنجازاته للمجتمع المصرى.

■ د.عاطف العراقى

رائد التنوير والعقلانية

رحل عن عالمنا منذ أيام المفكر الكبير العملاق فؤاد زكريا، لقد اهتزت أسلاك البرق وهى تعلن وفاة رائد العقلانية والاستنارة المعاصر فؤاد زكريا، ولا أشك أنه برحيله سيترك فراغا كبيرا فى ساحة الفكر الحر، وخاصة بعد انتشار جيوش التقليد والظلام والمفسدين فى الأرض، كان فؤاد زكريا يمثل طاقة جبارة فى مجال الدفاع عن كل ما هو علمى، وعن كل ما يتصف بالعقلانية، ولا أشك فى أن واجبنا هو الاستفادة من دروسه وما أعظمها، ومن أفكاره، والتى تعد غاية فى العمق، وإن كان أكثرهم لا يعلمون .

وأود فى حدود صفحات هذا المقال، الإشارة إلى ذكرياتى معه، وأبرز أفكاره ، وأهم المحطات الفكرية، والتى تتمثل فى الكتابة عن كل مراحل الفكر الإنسانى من خلال ترجماته ، وما أعظمها ، ومؤلفاته ، والتى يعد كل مؤلف منها بصمة بارزة قوية فى سماء حياتنا الحاضرة ، وفى مستقبل العصور والأجيال .

★★★

أعتقد من جانبى اعتقادا لا يخالجنى فيه أدنى شك ، أن مفكرنا الراحل فؤاد زكريا يحتل فى تاريخ فكرنا الفلسفى المعاصر مكانة ، ومكانة كبرى ، إنه يمثل علامة مضيئة فى تاريخ هذا الفكر، يمثل دورا خلاقا مبدعا فى حركة التنوير العقلى فى عالمنا العربى كله من مشرقه إلى مغربه، من محيطه إلى خليجه . يمثل إشعاعا ثقافيا فكريا فى أرجاء عالمنا . فإذا تحدثنا عن تاريخ الفكر العقلى والنقدى ، فإننا لا يمكن أن نغفل أو نتغافل عن الدور الرائد ، الدور الإيجابى الذى أداه مفكرنا الكبير فؤاد زكريا ، وإذا أردنا أن نكشف عن حلول لجميع مشكلاتنا السياسية والاجتماعية فلابد أن نضع فى اعتبارنا عمق آراء فؤاد زكريا وحكمته الناضجة ، إننا لا يمكن أن نتخطى دوره فى الإصلاح الفكرى والاجتماعى والسياسى بأى حال من الأحوال ، وبصورة مباشرة أو غير مباشرة ، من قريب أو من بعيد .

أفكار هذا المفكر العملاق – سواء اتفقنا معه أو اختلفنا – تعد غاية فى العمق والنضج ، فهى ثمرة لتأمل طويل ، وقراءة مستمرة على مدى عقود وعقود ، وهى أيضا ثمرة لموهبة نقدية قل أن تجد لها نظيرا، وثمرة لما كان يتمتع به من ذكاء حاد، وثمرة لشجاعة نادرة ورغبة فى خوض المعارك الفكرية دفاعا عن الحق ، دفاعا عن الحرية ، دفاعا عن حق العقل

■ مفكر وأستاذ جامعى

فى ممارسة دوره، لأن العقل أشرف ما فى الإنسان، وإذا قمنا بالابتعاد عن العقل وارتضينا لأنفسنا طريق اللامعقول فمعنى هذا أننا قد ارتضينا لأنفسنا طريق الهوان ، طريق التخبط والضياع .

★★★

من الصعب ، بل من المستحيل أن نشير ، ولو مجرد إشارة إلى كل أبعاد حياة مفكرنا الراحل ، ولابد من الحديث فقط عن بعض تلك الأبعاد والجوانب ، إذ أننا أمام مفكر من طراز ممتاز ، مفكر بلغ فكره مبلغا كبيرا من التنوع والثراء ، مفكر لم يرتض لنفسه أن يكون الفكر محصورا فى النطاق الأكاديمى فقط ، بل إنه يتعدى هذا النطاق بحيث يضيف إليه أبعادا تدخل فى صميم الإصلاح الاجتماعى والسياسى. إننا أمام مفكر ترك لنا مجموعة كبيرة من الكتب المؤلفة يعد كل كتاب منها فتحا جديدا فى عالم الفكر والفلسفة والموسيقى ، وليس بإمكان أى فرد مهتم بهذه المجالات أن يتخطاها من قريب أو بعيد . كما ترك لنا مجموعة من الكتب القيمة التى قام بترجمتها سواء فى مجال الفلسفة طوال تاريخها ، أو فى مجال السياسة والاجتماع . وترك لنا مئات المقالات التى ندرك من خلالها أن دور فؤاد زكريا إنما يمثل دور الرائد ، دور الأستاذ ، فكم أثارت كل مقالة منها العديد من المعارك الفكرية، ونبهت العقول إلى التعرف على عوالم جديدة لم يكن بالإمكان التوصل إليها ، أو معرفتها إلا من خلال فكر فؤاد زكريا ، وليرجع القارئ – على سبيل المثال – إلى مقالاته فى مجلة الفكر المعاصر .

★★★

ولنقدم إشارة موجزة إلى تاريخه الشخصى والفكرى ، وننتقل منه إلى معرفة طرف من آرائه الفلسفية ، ونماذج من مجهوداته العظمى فى مجال الدراسات الأكاديمية من جهة ، والإصلاح الفكرى والاجتماعى والسياسى عن طريق التنوير العقلى النقدى من جهة أخرى . وسيتبين لنا أن كل مجال منهما لا ينفصل

عن الآخر ، بل يرتبط كل واحد منهما بالآخر ارتباطا وثيقا.

ولد فؤاد زكريا فى اليوم الأول من شهر ديسمبر عام ١٩٢٧م. بمدينة بورسعيد ، وقضى ثلاث سنوات بالمدرسة الأولية بالعباسية فى القاهرة ، ثم التحق بالتعليم الابتدائى عام ١٩٤٠م. ، وقضى فترة التعليم الثانوى حيث حصل على شهادة الثقافة عام ١٩٤٤م.، وشهادة التوجيهية عام ١٩٤٥م. «القسم الأدبى»، وقد تخرج فى قسم الفلسفة بكلية الآداب – جامعة القاهرة عام ١٩٤٩م.

وقد اهتم فؤاد زكريا باللغات الأجنبية ، وضرورة تعلمها بداية من سنوات تعليمه الأولى ، وفور تخرجه فى الجامعة ، عمل مترجما بكلية الآداب – جامعة القاهرة لمدة ثلاث سنوات حصل خلالها على درجة الماجستير ، وكان موضوع رسالته : " النزعة الطبيعية عند نيتشه" ، وكانت أول رسالة ماجستير فى كلية الآداب – جامعة عين شمس عام ١٩٥٢م. كما حصل على درجة الدكتوراه من جامعة عين شمس عام ١٩٥٦م. وكان موضوع رسالته : «مشكلة الحقيقة» . وهذه الرسالة لم تنشر حتى الآن .

وقد تدرج فؤاد زكريا فى الوظائف العلمية ، فبعد حصوله على الماجستير ، عمل مدرسا مساعدا حتى عام ١٩٥٧ م. حيث أصبح مدرسا ، ثم سافر إلى نيويورك للعمل بالأمم المتحدة ، وبقى هناك حتى عام ١٩٦٢م. وفى هذا العام تم تعيينه أستاذاً مساعداً ثم أصبح أستاذا لكرسى الفلسفة بجامعة عين شمس عام ١٩٧٠م. وكان قبل ذلك قد تولى رئاسة قسم الفلسفة فى عام ١٩٦٧م.

وقد أشرف فؤاد زكريا وناقش العديد من الرسائل العلمية الجامعية ، وتولى رئاسة تحرير مجلة الفكر المعاصر ، وأيضا رئاسة تحرير مجلة تراث الإنسانية ، وخلال فترة إشرافه على هاتين المجلتين قدم فؤاد زكريا خدمة كبرى لمصر وللثقافة العربية ، وأضفى على المجلتين من روحه النقدية وأفكاره الخلاّقة.

ومثّل فؤاد زكريا مصر ، مرات عدة ، فى المؤتمرات العامة لليونسكو ، بالإضافة إلى العديد من المؤتمرات الفلسفية والثقافية . كما تولى منصب الأمين الفنى لمجلس العلوم الاجتماعية فى أكاديمية البحث العلمى .

أما عن أعماله بالكويت فإنها تعد فخرا لنا جميعا، إذ عمل أستاذا ورئيسا لقسم الفلسفة منذ عام ١٩٧٨م، وعمل أيضا مستشارا لسلسلة عالم المعرفة الكويتية .

★★★

ويمكن القول بأن الاتجاه العام السائد فى كتابات فؤاد زكريا، إنما هو الاتجاه العقلانى، ذلك الاتجاه الذى يؤمن بأهمية التفكير النقدى ، الاتجاه الذى لا يغرق فى الموضوعات الميتافيزيقية أو الغيبيات ، وفى نفس الوقت اعتقد فؤاد زكريا أن الفلسفة يجب أن تكون أداة لخدمة قضايا الإنسان بمختلف أنواعها ومجالاتها .

ولهذا نجده يضيف إلى البحوث الأكاديمية البحتة فى مجال الفلسفة ، بحوثا تحمل فى مضمونها رسالة معينة إلى القارئ . إن قيامه بترجمة «جمهورية أفلاطون» يعد عملا أكاديميا ، وفى نفس الوقت فإن القارئ يستطيع أن يستشف من التفكير الذى قدمه بالنسبة لأفلاطون ،

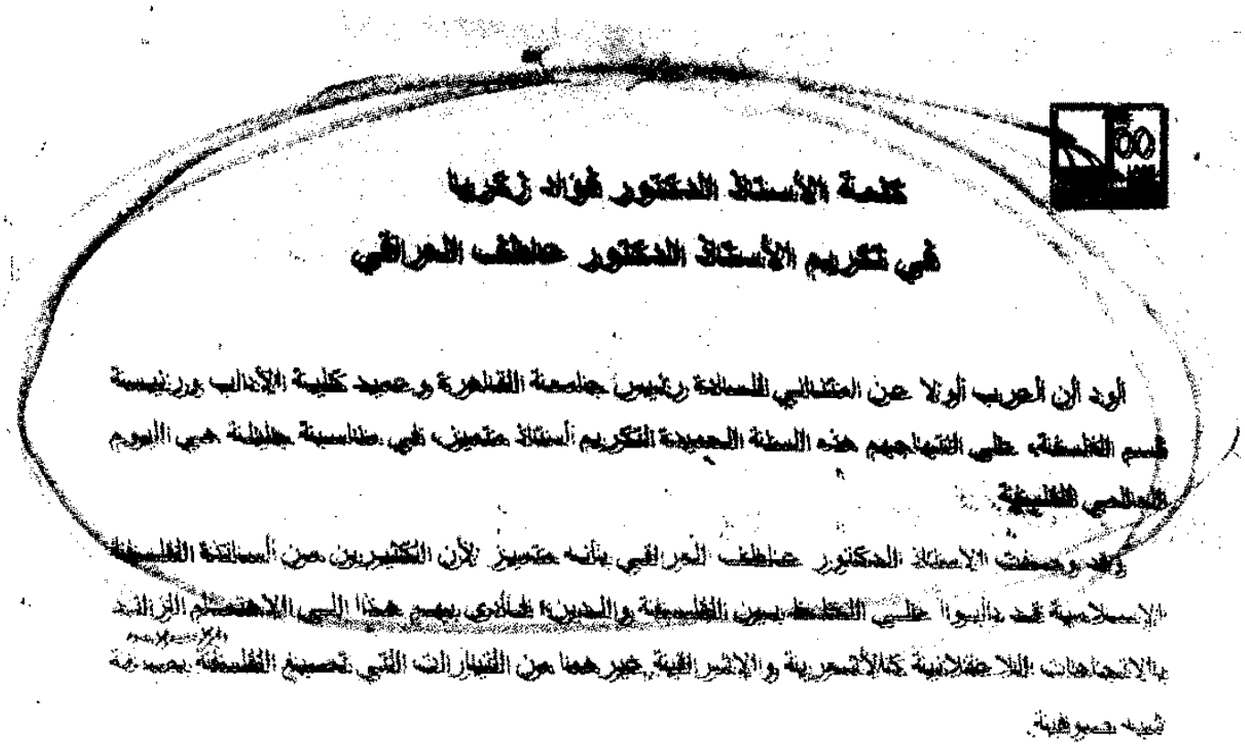

كلمة الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا

في تكريم الأستاذ الدكتور عاطف العراقي

أود أن أعرب أولا عن امتناني للسادة رئيس جامعة القاهرة وعميد كلية الآداب ورئيسة قسم الفلسفة على التفاتهم هذه اللفتة الحميدة لتكريم أستاذ متميز، في مناسبة عاطلة هي اليوم العالمي للفلسفة.

وقد وصفت الأستاذ الدكتور عاطف العراقي بأنه متميز، لأن الكثيرين من أساتذة الفلسفة الإسلامية قد دأبوا على الخلط بين الفلسفة والدين، فأدى بهم هذا إلى الاهتمام الزائد بالاتجاهات اللاعقلانية كالأشعرية والإشراقية، غيرهما من التيارات التي تصبغ الفلسفة بصبغة شبه صوفية.

أفكارا يمكنه أن يستعين بها فى مواجهة مشكلات عديدة فى العالم المعاصر .

وكذلك ترجمته للتساعية الرابعة لأفلوطين ، وقيامه بدراسة حياة أفلوطين ومذهبه الفلسفى وإبراز الأفكار الموجودة فى التساعية الرابعة . وهذا العمل الأكاديمى الممتاز يحمل فى طياته حملة على الاتجاهات الصوفية والسحرية ، والتى تميز بها العصر المتأخر من الفلسفة اليونانية ، يقول فؤاد زكريا فى تقديمه لترجمته : " إن أبسط نتيجة لهذا الضعف فى تفكير أفلوطين أن الفلسفة قد أخذت تسمح للخرافات بالتغلغل فى أبحاثها الخاصة، وبدأت العناصر الغيبية تختلط بالأبحاث العقلية حتى كاد العقل يخلى الطريق للأوهام فكان لذلك أسوأ الأثر على العقول فى العصور التالية ."

وقد قام مفكرنا الراحل بترجمة مجموعة من الروائع الفكرية ، وترجمها ترجمة دقيقة للغاية ، وهى : " نشأة الفلسفة العلمية " تأليف : هانز ريشنباخ ، و" المنطق وفلسفة العلوم " تأليف : بول موى ، و" حكمة الغرب " تأليف : برتراند راسل ، و" العقل والثورة " تأليف : هربرت ماركيوز ، و" الفلسفة الإنجليزية فى مائة عام " تأليف : رودلف متس ، و" عصر الأيديولوجية " تأليف : هنرى أيكن ، و" الفن والمجتمع عبر التاريخ " تأليف : أرنولد هاوزر ، و" علم الاجتماع " تأليف : موريس جنزبرج ، و" الفلسفة أنواعها ومشكلاتها " تأليف : هنتر ميد .

وكان يبين لنا، من خلال مقدماته لهذه الكتب التى ترجمها، نقاط القوة ، ونقاط الضعف أيضا، والتى نجدها من خلال أى اتجاه من اتجاهات مؤلفيها. وذلك لما يتمتع به من حس فلسفى، وحس نقدى ، حس يملك القدرة على الموازنة بدقة بين الآراء المختلفة، وما أكثرها؛لأنه لا يسلم برأى ما لمجرد شهرته، أو شهرة القائل به، بل يدرس بدقة وأمانة وموضوعية أصول بل ظلال كل رأى من الآراء، ثم يدخل فى حوار فلسفى رائع مع القائل بهذا الرأى أو ذاك الاتجاه. إنه أستاذ راسخ فى علمه، وفكره يلتزم التزاما دقيقا بكل خصائص الفكر الفلسفى، فهو مزود بالمعرفة الواسعة، والاطلاع الغزير،

ويعرض دائما رأى الخصم بوضوح وأمانة وموضوعية .

★ ★ ★

وكان مفكرنا الراحل حريصا على الربط بين العقل والمجتمع، أى بيان دور العقل فى الإصلاح الفكرى والاجتماعى والسياسى. وفى هذا بعث لحركة التنوير العقلى فى مجتمعنا العربى. وأذكر أننى سألت الراحل الكبير عن كيفية تثبيت الاتجاه العقلانى فى مجتمعاتنا العربية، فأجاب قائلا : إننى أتصور أن الخطوة الأولى هى أن تترك لنا السلطات المسئولة الحرية فى التعبير عن الاتجاه العقلانى، ونشره بطريقة مبسطة فى الكتب المقررة فى التعليم لكى تصبح جزءا من التكوين الفكرى للجيل الجديد، ولكن ماذا نجد الآن ؟ نجد أن الأفكار العقلانية تحارب بشدة، وتنشر بدلا منها أفكار تساعد على تغييب العقل ونشر الخرافة. وأجهزة الإعلام تستطيع أن تقوم بدور كبير فى نشر الاتجاه العقلانى، ولكنها للأسف الشديد تسير فى أغلب الأحيان فى الاتجاه المضاد، وتتملق أتفه المشاعر اللاعقلية للجماهير. ويجب أن ننبه إلى الأخطار التى تهدد مستقبلنا على يد أنصار التطرف فى الغيبيات؛ لأن الاتجاه السائد حاليا هو إمساك العصا من منتصفها، فهناك حذر وخوف من هذا التطرف، ولكن هناك أيضا تملقا له، وهذا التردد لن يؤدى إلا إلى عواقب وخيمة، فلابد من أن نحزم أمورنا ونحدد اتجاهنا، ونترك فرصا كافية لكل من الطرفين لكى يعبرا عن فكرهما على قدم المساواة، إذ أننا الآن أبعد ما نكون عن هذه المساواة .

وفى لقاء – منذ سنوات – مع مفكرنا الراحل، سألته عن أفضل الفلاسفة من وجهة نظره، عبر مراحل تاريخ الفلسفة ، فذكر لى من القدامى: هرقليطس، وأفلاطون، ولابد أن نضع فى اعتبارنا أن معظم آراء هرقليطس تعد وليدة التفسير والتأويل دون أن نكون واثقين تماما مما إذا كان التفسير، أو التأويل مطابقا للأصل أم لا، أما أفلاطون فإنه يستفزنى للدخول معه فى معركة مع إعجابى الشديد بعبقريته الفلسفية .

وقد كتب فؤاد زكريا فى دراسته عن «جمهورية أفلاطون»: «إن أفلاطون وجد فى عالم الفلسفة ليبقى، غير أن الصورة التى ينبغى أن نكونها عنه ينبغى أن تكون صورة مفكر لا قديس، بل صورة مفكر وقع فى أخطاء نظرية وعملية كثيرة، وكان مسئولا إلى حد بعيد عن كثير من الاتهامات التى توجه إلى الفلسفة، والتى تسىء إلى سمعتها فى أذهان غير المشتغلين بها ولا سيما العلماء».

وبالنسبة للعصر الوسيط، أو الفكر الفلسفى العربى نجده يفضل المعتزلة بوجه عام، وأيضا ابن رشد، وهذا يكشف عن اتجاهه العقلى . أما بالنسبة للفلسفة الحديثة فنجده يفضل نيتشه ، وكان نيتشه موضوعا لرسالته للماجستير ، وألف عنه كتابا غاية فى الدقة والروعة ، كما يفضل أيضا سبينوزا ، وقد ألف كتابا ضخما عنه ، استحق عليه جائزة الدولة التشجيعية فى الفلسفة عام ١٩٦٥م.

وبالنسبة للفلسفة المعاصرة نجده متأثرا ببعض الجوانب فى فلسفة برتراند راسل، وفلسفة جان بول سارتر، ولكنه لا يتفق معهما فى جوانب أخرى . وثمة كتب يعتز بها مفكرنا الراحل كثيرا، فقد أثرى

بها مكتبتنا العربية، وهى: «نظرية المعرفة والموقف الطبيعى للإنسان» و«التفكير العلمى» و«الإنسان والحضارة فى العصر الصناعى» و«العرب والنموذج الأمريكى» و«آراء نقدية فى مشكلات الفكر والثقافة» و«هربرت ماركيوز» و«كم عمر الغضب» و«خطاب إلى العقل العربى مع دراسة عن الاستشراق». و«الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة» و«الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل» و«آفاق الفلسفة» و«الثقافة العربية وأزمة الخليج» .

★★★

وقد تأثر فؤاد زكريا بمجموعة من الفلاسفة والمفكرين الذين ذكرناهم ، بالإضافة إلى إعجابه بالجاحظ ، وطه حسين ، وزكى نجيب محمود ، وصادق جلال العظمة ، إلا أنه لم يرتض لنفسه موقف المؤيد تماما ، بل موقف المعارض فى بعض الأبعاد والمجالات .

ولا يمكننا القول بأن فكر فؤاد زكريا يعد حصيلة لكتاب معين ، أو لمجموعة من الكتب ، إذ إنه يضيف إلى استفادته من الكتب والأفكار الموجودة بها ، أفكارا أخرى تعد تعبيرا عن روحه الإبداعية وحسه النقدى .

ولقد سألت الدكتور فؤاد زكريا عن أهم الكتب التى شكلت فكره ، فأجاب قائلا بأنه لم يتأثر بكتاب واحد أو بمجموعة من الكتب تأثرا مباشرا، وموقفى عند قراءة أى كتاب هو أن أستجمع قدراتى النقدية وأتخذ منه موقفا استقلاليا، ولا أستطيع بحكم تكوينى الفكرى أن أخضع نفسى لتأثير كتاب معين . قد تكون هذه خصلة سيئة ، ولكن لابد أن أعترف بأن اتجاهى التلقائى نحو ما أقرؤه من الكتب هو النقد ، وليس الخضوع والتأثر ولذلك فإن معظم الكتب أثرت فىّ تأثيرا سلبيا لا إيجابيا بمعنى

د. عاطف العراقى ود. فؤاد زكريا

أنها حفزت ملكة النقد فى ذهنى ودفعتها إلى العمل .

هذا القول من جانب فؤاد زكريا إنما يفسر أكثر المواقف الفكرية والآراء التى ارتضاها لنفسه ، إنه لا يقول برأى إلا بعد نظر وتفكير طويل ، ولا يسلم باتجاه من الاتجاهات الفكرية أو الفلسفية أو السياسية إلا بعد الموازنة بين مختلف الاتجاهات والآراء، إنه يملك شجاعة نادرة فى التعبير عن رأيه، وفى بيان الأخطاء فى الآراء المخالفة لرأيه. وإذا كان الحديث عن معاركه الفكرية يحتاج إلى العديد من الصفحات، فإننى أكتفى كمجرد نموذج بالإشارة إلى واحدة منها كنت طرفا فيها، لقد أثيرت على صفحات أكثر من جريدة خلال شهرى يونيه ويوليه من عام ١٩٧٤م.، قضية تتعلق بالصلة بين الدين والعلم وذلك تعليقا على ندوة إذاعية اشتركت فيها مع الدكتور فؤاد زكريا، وكان رأينا المشترك هو ضرورة التمييز بين الدين من جهة والعلم من جهة أخرى ، وذلك رفعا من جانبنا لمكانة الدين ، وقمنا بإبراز العديد من الأخطاء التى نجدها فى الخلط بين الدين والعلم ، أى ذلك الاتجاه الذى نجده عند بعض المتسرعين الذين

يحاولون استخراج النظريات العلمية الحديثة من الآيات القرآنية ، وقد استشهدنا برأى طه حسين ورأى توفيق الطويل وغيرهما ممن يحرصون - إيمانا من جانبهم بالدقة والموضوعية - على التمييز بينهما ، ولكن ماذا حدث ؟ لقد كُتبت مقالات عدة ، وليرجع القارئ إلى مقالة بعنوان : "أخطر من القنبلة الذرية" ، وأخرى بعنوان : " الذين يزرعون الكراهية" ، وسيجد فيهما وفى غيرهما العديد من أوجه الهجوم علينا ، ولو بصورة غير مباشرة ، وكان مفكرنا الكبير صامدا مدافعا باستمرار عن رأيه ، مما يدعونا إلى الإعجاب بشجاعته وقدرته النقدية ، كما كنت من جانبى متمسكا برايى حتى الآن ، وكانت هذه المعركة على صلة بمحاكمتى بعد ذلك بحوالى ربع قرن ، ووقوفى أمام محكمة الجنايات . إذ كنت أول أستاذ فلسفة فى تاريخ مصرنا العزيزة ، يتم تقديمه لأسباب فكرية إلى محكمة الجنايات .

★★★

وقد اهتم مفكرنا الراحل بالموسيقى اهتماما لا حد له، وترك لنا العديد من المؤلفات والدراسات فى هذا المجال، مجال الموسيقى، ومن بينها كتابه عن «ريتشارد فاجنر» الذى ألفه بمناسبة مرور مائة وخمسين عاما على مولد فاجنر ، وكتابه " التعبير الموسيقى " الذى ألفه لبيان كيف أن أحوال المجتمع تنعكس على الفنان وتضفى على أعماله صبغتها الخاصة، وهذا الانعكاس ينبغى أن يترك حتى يظهر من تلقاء ذاته بحرية دون أن تفرضه على الفنان أى قوة خارجية، وكيف أن هذا يؤدى بموسيقانا إلى بلوغ مستوى العالمية . «ص ٦ من مقدمة كتاب التعبير الموسيقى»، وثمة كتاب آخر يبدو موضوعه من عنوانه ، وهو : " مع الموسيقى ، ذكريات ودراسات " ، وقد ترجم الدكتور فؤاد زكريا كتابا بديعا ، وهو : " الفيلسوف وفن الموسيقى " من تأليف : جوليوس بورتنوى .

وقد سألت مفكرنا الراحل الكبير عن رأيه فى الموسيقى العربية ، وعن أفضل الموسيقيين من وجهة نظره ، فأجاب بأنه فقد الاهتمام بالموسيقى العربية من اللحظة التى شعر فيها بوجود أنواع أخرى من الموسيقى ذات أبعاد أعمق ، إن مشكلة الموسيقى العربية تتمثل فى أنها ذات بعد واحد فقط ، وبالطبع هذا شىء لا يرضى أصحاب الذوق الموسيقى الرفيع طويلا ، ولابد أن يأتى عليهم وقت يبحثون فيه عن نوع أعمق من التجارب الموسيقية ، ولن يجدوا هذا إلا فى الموسيقى الكلاسيكية ، أما عن أفضلهم فإنه بيتهوفن ، إنه سيدهم بلا جدال ولم يحرز شهرته إلا عن جدارة واستحقاق بالفعل .

إننى من جانبى لا أخفى إعجابى بهذه الآراء المتعلقة بالموسيقى ، وإذا بحثنا عن الفن كما ينبغى أن يكون الفن ، وذلك فى مجال الموسيقى، فلن نجد الفن إلا فى الموسيقى الكلاسيكية فى الموسيقى العالمية، أما ما يقال عن موسيقى عربية، فإنها تعد فنا على سبيل التجاوز، على سبيل المجاملة، إذ إنها محلية الطابع لا تستطيع أن تتجاوز حدود البحر الأبيض المتوسط .

والواقع أننا حين نتأمل بدقة فى آراء فؤاد زكريا فى مجال الفن، والموسيقى على وجه الخصوص نجد أنها آراء صادرة عن دراسة عميقة متأنية، إنه لا يقول بهذه الآراء إلا بعد تحليله لخصائص

الفن الموسيقى وعناصره، ومعنى الموسيقى، ولغة الموسيقى، ومن هنا كانت آراء جديرة بالدراسة ، وإقامة الحوار حولها سواء اتفقنا معها أو اختلفنا .

★★★

هكذا كان مفكرنا الكبير أستاذا بكل ما تحمله كلمة الأستاذ من معان سامية، ودلالات نبيلة، فقد تفضل بكتابة تصدير كريم للكتاب التذكارى الذى صدر عنى فى عام ٢٠٠٢م. بعنوان " عاطف العراقى . . فيلسوفا عربيا ورائدا للاتجاه العقلى التنويرى " . كما كان على رأس من شاركوا فى حفل تكريمى فى مناسبة وصولى سن الستين، وكان كذلك حريصا على المشاركة بكلمة ضافية فى مناسبة تكريمى فى اليوم العالمى للفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة، بعدما منعته ظروفه الصحية من الحضور بنفسه، ولم يتردد فى قبول دعوتى للاحتفال به فى مناسبة حصوله على جائزة الدولة التقديرية فى عام ١٩٩٥م. وقد ضم الاحتفال حشدا كبيرا من أصدقائه وتلاميذه ومحبيه ، وكان من بينهم الدكتور عبدالغفار مكاوى، والدكتور محمود رجب، والدكتور زكى سالم .

★★★

وقد شق مفكرنا الراحل طريقه الفكرى فى وسط الأشواك والصخور، والتى تعبر عن الخرافة واللامعقول، التى نراها فى كثير من جوانب حياتنا اليومية، إذ كان ناقدا لهذا الرأى أو ذاك من الآراء الفلسفية أو الاتجاهات الفكرية بمدلولاتها النظرية أو مدلولاتها العملية والاجتماعية،

مفكرا من طراز رفيع، إذ اعتمد على بعض السابقين عليه من قدامى ومحدثين، إلا أنه سرعان ما يختلف معهم فى جانب أو أكثر من جوانب الآراء التى قالوا بها، باحثا ومهتما بكل القضايا السياسية والاجتماعية، ومقدما لنا العديد من الآراء بشجاعة وموضوعية، دارسا للقضايا الفنية، وعلى رأسها الموسيقى أسمى الفنون على وجه الإطلاق؛ لأنها لغة الشعور والوجدان المشتركة بين شعوب العالم كله، وإذا كنت أختلف مع مفكرنا الراحل الكبير فؤاد زكريا حول بعض الآراء فى أبعادها النظرية، أو أبعادها الإصلاحية الاجتماعية السياسية، إلا أننى أعتقد بأنه يعد علما، وعلما بارزا من أعلام فكرنا الفلسفى المعاصر ، مفكرا وضع بصماته على تاريخ فكرنا الفلسفى العربى المعاصر، وخاصة فى مجال بعث حركة التنوير العقلى .

ويشاء القدر أن تصعد روحه إلى السماء قبل إصدار كتاب من تأليفى عنه ، وقبل إصدار كتاب تذكارى عنه تحت إشرافى . وقد ودعنا فؤاد زكريا بحيث ترك عالم الفناء إلى عالم البقاء ، ويقينى أننا طوال السنوات والأجيال والعصور اللاحقة سنتذكر فؤاد زكريا، والذكر للإنسان عمر ثان، وكما قال القائل :

هذه آثارنا تدل علينا
فانظروا بعدنا إلى الآثار

إن الكتب والمقالات والترجمات التى قام بها مفكرنا العملاق طوال حياته ستظل مصدر إشعاع لأبناء الأمة العربية من مشرقها إلى مغربها .

■ د. نجاح محسن

فؤاد زكريا ورؤيته للتعصب

عرفت البشرية خلال تاريخها الطويل " ألوانًا متباينة من التعصب " ، فقد حفظ لنا الشعر معلومات مهمة وقيمة عن " التعصب القبلي " ، وسجل التاريخ حالات لا حصر لها لـ " التعصب الوطني أو القومي " ، وعرف تاريخ الفكر ألوانًا من " التعصب الديني أو الطائفي " . وشهدت المجتمعات ، وخاصة في عصرنا الحديث ، ضروبًا متعددة من "التعصب العنصري أو العرقي " . وفي هذه الحالات كلها كان التعصب يمثل انتماء زائدًا إلى الجماعة التي ينتسب إليها المرء ، وارتباطًا بها ، يصل إلى حد الاستبعاد التام للآخرين أو كراهيتهم أو التعالي عليهم .

ويعرف فؤاد زكريا " التعصب " بأنه " اعتقاد باطل بأن المرء يحتكر لنفسه الحقيقة أو الفضيلة ، وبأن غيره يفتقرون إليها ، ومن ثم فهم دائمًا مخطئون " . ومن هنا فإن التعصب الذي يتخذ شكل تحمس زائد للرأي الذي يقول به الشخص نفسه ، أو للعقيدة التي يعتنقها ، يتضمن في واقع الأمر بعدًا آخر ، فهو يمثل في الوقت نفسه موقفًا معينًا من الآخرين . فحين أكون متعصبًا ، لا أكتفي بأن أنطوي على ذاتي ، وأنسب إليها كل الفضائل ، بل ينبغي أيضًا أن " أستبعد فضائل الآخرين وأنكرها وأهاجمها " ، بل إنني في حالة التعصب ، لا أهتدي إلى ذاتي ، ولا أكتشف مزاياي إلا من خلال إنكار مزايا الآخرين .

فالتعصب إذن يكمن في توحيد الفرد لنفسه مع رأي الجماعة التي ينتمي إليها ، وإعلائه هذا الرأي فوق آراء أية جماعة أخرى . و" المتعصب في واقع الأمر ، يمحو شخصيته وفرديته ، ويذيب عقله أو وجدانه في الجماعة التي ينتمي إليها " ، بحيث لا يحس بنفسه إلا من حيث هو

■ أستاذ الفلسفة – جامعة حلوان

جزء من هذه الجماعة . ولو كان يؤكد نفسه بوصفه فرداً له شخصيته المميزة ، لما أصبح متعصباً .

ويعزى فؤاد زكريا " انتشار التعصب " ، إلى أن الإنسان لديه دائماً حاجة إلى رأى " يحتمي " به ، ويعفي نفسه من التفكير في ظله . ويرى مفكرنا أن هذه حماية خادعة مضللة ؛ لأنها ترتكز أساساً على تخدير التفكير وإبطاله ، وتضع أمامنا صورة باطلة للواقع ، لا ترتكز على دليل أو منطق ، بل تستمد قوتها كلها من تحيزنا لها بلا تفكير . وهذا ينطبق على كل شكل من أشكال التعصب ، فـ " التعصب العنصري " ، و " التعصب القومي المتطرف " ، و " التعصب الديني " ، كل هؤلاء يشاركون في نفس السمات .

والواقع أن التعصب ، بوصفه " ظاهرة بشرية خالصة " ، تنتمي إلى مجال العلاقة بين إنسان وإنسان ، يمكن أن يعالج بمناهج وأساليب متعددة ، تبعاً للزاوية التي نتأمله منها ، ففي استطاعة علم النفس ، وعلم الاجتماع ، والتاريخ ، والعلوم البيولوجية ، في استطاعة هذه العلوم كلها أن تلقي أضواء كاشفة على ظاهرة التعصب ، وأن تساعد الإنسان على إزالة هذه الغشاوة التي أعمت بصيرة البشرية ردحاً طويلاً من الزمان ، ومع ذلك ، فإن " المعالجة الفلسفية " لهذه الظاهرة تستطيع أن تكشف عن جوانب خفية وأساسية منها ، وأن تزيح النقاب عن تلك البناءات الكامنة التي قد لا ينتبه إليها أي علم من العلوم السابقة ، حين يستنفد طاقته في معالجة المشكلة من زاويته الخاصة ، ومن خلال مفاهيمه

ومناهجه المميزة . فهناك أبعاد لمشكلة التعصب ، أعمق من تلك التي تتناولها العلوم الخاصة .

وهذا بالضبط ما فعله فؤاد زكريا ، فقد تناول ظاهرة " التعصب " من زاوية فلسفية ، حيث شدد على ضرورة استخدام المنهج الجدلي " الديالكتيكي " لدراسة هذه الظاهرة .

وقد أوضح مفكرنا من خلال هذا المنهج الفلسفي ، أن التعصب يتضمن عنصرين ، أحدهما إيجابي ، والآخر سلبي . فالعنصر الإيجابي هو : اعتقاد المرء بأن الفئة التي ينتمي إليها ، سواء أكانت قبيلة أم وطنًا أم مذهبًا فكريًا أو أدبيًا ، " أسمى وأرفع من بقية الفئات " . والعنصر السلبي هو اعتقاده بأن تلك الفئات الأخرى " أحط من تلك التي ينتمي إليها " . وقد يبدو من الأمور البديهية أن يكون هذان العنصران متلازمين ، إذ أن اعتقاد فئة معينة بتفوقها ، يعني آليًا أنها تنظر إلى الفئات الأخرى كما لو كانت أقل منها قدرًا .

ومع ذلك فإن هناك نوعًا من التمييز بين وجهى التعصب هذين ، على الرغم من ارتباطهما الوثيق . ذلك لأن المشكلة التي عانت منها البشرية طوال الجزء الأكبر من تاريخ التعصب فيها ، كانت مشكلة الوجه السلبي للتعصب . بل إن " مفهوم التعصب " ذاته يرتبط في أذهان معظم الناس بهذا الجانب السلبي ، فالشخص المتعصب هو ذلك الذي يحتقر فئة معينة أو يتحامل عليها . صحيح أن هذا التحامل ينطوي ضمنًا على اعتقاد بأنه أرفع من تلك التي يتحامل عليها ، أو أنه برىء من نقائصها ، ولكن هذا لا يعدو أن يكون اعتقادًا مضمرًا فحسب . وفضلاً عن ذلك ، فكثيرًا ما يكون سبب التحامل على الآخرين هو نوع من الحسد الخفي الدفين لهم ، أو الاعتقاد بأنهم يتمتعون بمزايا يعجز المرء عن بلوغها . إذن " كراهية الآخرين " هي الصفة الغالبة على المتعصب ، أما " استعلاؤه " بنفسه فهو صفة ثانوية ، على الرغم من كونها نتيجة لازمة في معظم الأحيان عن كراهية الآخرين .

فالتعصب إذن هو في أساسه " نظرة سلبية إلى الغير " . و " المتعصب " يتجه بتفكيره أساسًا إلى الآخرين في حقد أو حسد أو احتقار ، و " يميل إلى إلحاق الضرر بالغير أكثر مما يميل إلى تأكيد مزاياه الشخصية أو كسب منفعة لنفسه " . وليس في هذا ما يدعو إلى الاستغراب ، إذ أن الجانب الإيجابي في هذه العلاقة الجدلية لا يؤدي بالضرورة إلى التعصب ، فتأكيد المرء لذاته ، أو اعتقاده بسمو الفئة التي ينتمي إليها ، لا يترتب عليه بالضرورة ازدراء للآخرين . وهناك من الفلسفات ما تؤكد على الأرستقراطية والاستعلاء ، ولكنها ترفض التعصب

وكـراهيـة الآخـرين ، بوصفها مظهراً لا يتماشى مع وثوق المرء بنفسه وبقدراته ، فالرفيع والنبيل حقًا عند " نيتشه " لا يكره الآخرين ولا يتعصب ضدهم ؛ لأنه لا يحتاج من أجل تأكيد ذاته إلى مقارنة نفسه بغيره ، أو التسلق على أكتاف الآخرين . ومن جهة أخرى ، فإن تأكيد الذات في الفلسفات التي تنحو منحى ديمقراطيًا ، يزداد بالتكاتف مع الآخرين والتسامح معهم ، لا بالتفوق على حسابهم .

ومعنى ذلك أن الوجه الإيجابي في علاقة التعصب ، وهو تأكيد استعلاء الذات ، لا يمثل " جوهر التعصب " ، وأن النظرة السلبية إلى الآخرين هي الطابع المميز لذلك النوع الشائع من الانحراف ويرى فؤاد زكريا أن تلك النظرة السلبية إلى الآخرين ، ترتكز على اعتقاد بوجود نوع من الشر الكامن فيهم ، والذي يبرر به المتعصب تحامله عليهم . ولعل أول ما يطرأ بالذهن هو أن يبادر إلى الكشف ، عن زيف هذا الاعتقاد بوجود الشر في الآخرين ، ويبحث عن " أسباب نفسية أو اجتماعية " ، تدفع الناس إلى التحامل على غيرهم بهدف تبرير استغلالهم لهم ، أو إيجاد منفذ لشعورهم هم أنفسهم بالإثم أو بالعجز أو بالإخفاق . ومن المؤكد أن " ظاهرة التعصب " تنطوي على شيء من هذا كله ، ولكن العلاقة بين المتعصب وبين من يتحامل عليه ، هي في

تاريخ اليهودية" يمكن أن يعد مثالاً صارخاً ، امتد عبر مئات طويلة من السنين ، لهذا اللون الفريد من تعصب الأقلية ضد الأغلبية

معظم الأحوال أعقد من أن تفسر من خلال هذا الفهم الذي يسير في اتجاه واحد ، والذي يرتكز على القول بأن التعصب علاقة بين ظالم ومظلوم . وهذه العلاقة المعقدة لا يمكن التعبير عنها أو فهمها ، إلا من خلال " منهج جدلي " .

ويضرب فؤاد زكريا مثلاً للتعصب بالولايات المتحدة الأمريكية ، التي يصفها بأنها " بلد التعصب المتسق والمنظم " ، والتي تتجسد فيها " مشكلة الاضطهاد العنصري " . وقد قضى مفكرنا عدة سنوات في أمريكا واسترعت انتباهه هذه المشكلة ، ورفض مناقشتها والتفكير فيها في اتجاه واحد ، بل آثر مناقشتها من جوانبها المتعددة التي لا تتوفر إلا باستخدام المنهج الجدلي ، يقول : " لقد راعني في الأيام الأولى من زيارتي لهذا البلد ، أن أجد كثيراً من الشرقيين يتحدثون عن " الزنوج " بنفس اللهجة التي يتحدث بها الأمريكيون عنهم ، ويتجنبون الأحياء والمساكن التي يسكنها " الملونون " ، مع أن بلادهم الأصلية تتخذ موقفًا مستنيراً من مشكلة " الاضطهاد العنصري " ، وتنتقد الأمريكيين البيض انتقاداً مراً على تعصبهم . وحين أتيحت لي فرصة الاطلاع عن كثب على أحوال الزنوج ، تكشف لي السبب بوضوح ، فقد وجدت

في حياتهم بالفعل عناصر منفرة ، وكانت الأحياء التي يسكنونها أقذر من أحياء البيض ، إلى حد يدعو إلى الاشمئزاز ، كما كان مسلك الكثيرين منهم ، على المستوى الشخصي ، ينم عن قدر غير قليل من الانحلال .

عند هذا المظهر من الانحلال ، يتوقف التفكير الذي يسير في اتجاه واحد ، فيحكم على الأقلية الزنجية بالشر الكامن ، ويجد مبرراً للتفرقة التي تمارسها الأغلبية البيضاء ضدها . ولكن " التفكير الجدلي " يستطيع أن يتوصل من وراء هذا المظهر السطحي ، إلى التعقد والتشابك الحقيقي الذي تنطوي عليه علاقة التعصب . فانحطاط الزنجي ليس سبباً للتعصب ضده فحسب ، بل هو قبل ذلك نتيجة لهذا التعصب ، و " ممارسة التعصب " تزيد من " تدهور الجماعة " التي يمارس ضدها التعصب . وبذلك تكتمل " عناصر الحركة الجدلية في علاقة التعصب " ، إذ أن من يمارس الاضطهاد يعمل - عن وعي أو بغير وعي - على إبقاء من يضطهده في حالة يكون فيها جديراً بأن يضطهد ، وكلما ازداد الاضطهاد وطال أمده ، اشتد التدهور الذي يبرر الاضطهاد ويخلق له الأعذار ، وازداد التباعد والاستقطاب بين طرفي علاقة التعصب .

ويعطي فؤاد زكريا مثلاً آخر لشكل آخر من أشكال التحامل ، هو اتهام الأقليات بالتقوقع والتساند والتكاتف فيما بينها ، على حساب تعاونها وتضامنها مع الأغلبية . ففي هذه الحالة بدورها تؤدي ممارسة الأغلبية للاضطهاد ، إلى رد فعل لدى الأقلية ، يتمثل في مزيد من الانطواء على ذاتها ، والحرص الشديد على مصالح أفرادها . وهذا الحرص يدفع الأغلبية إلى مزيد من الاضطهاد ، فتقابلها الأقلية بمزيد من الأفعال " الدفاعية " التي تزيد من كراهية الأغلبية . وهكذا تتوالى " الحركة الجدلية " ، حتى تصل إلى تضاد بين قطبين لا سبيل إلى التوفيق بينهما ، فهل لا يوجد سبيل لكسر هذه الحلقة المفرغة ؟ ، وهل يتحتم أن يظل طرفا هذه العلاقة في تباعد وتنافر يتزايدان بلا انقطاع ؟ .

للإجابة عن هذه التساؤلات ، فقد أكد فؤاد زكريا أن مشكلة التعصب ليست مما يستعصي حله ، وبأن هذا الحل لابد أن يبدأ بجهود تبذلها الأغلبية ، لا لأنها الأفضل ، بل لأنها هي المسيطرة ، وهي التي تملك زمام المبادرة . فمن الممكن أن تسير " الحركة الديالكتيكية " في الاتجاه العكسي ، وأن يتضاءل التباعد والتنافر ، إذا خطت الأغلبية خطوة تقربها من الأقلية ، وتعيد إليها ثقتها بنفسها ، وعندئذ يحق لنا أن نتوقع خطوة مماثلة من الطرف الآخر . ويستمر التقارب باطراد ، فيسحق في طريقه بذور التعصب .

فمن الشائع عند تحليل " الهيكل

البنائي للتعصب " ، أن يقال إن التعصب ينشأ عند الأغلبية ضد الأقلية أولاً ، وأن تعصب هذه الأخيرة ليس إلا رد فعل دفاعيًا ، تقوم به لحماية نفسها من الاضطهاد الذي تمارسه عليها الأغلبية . ولا جدال في أن هذا النمط ينطبق بالفعل على الأغلبية الساحقة من حالات التعصب التي عرفها تاريخ البشرية . غير أن هناك حالات قليلة يكشف التحليل الجدلي عن خروجها على هذا النمط المألوف ، أي حالات يبدأ فيها التعصب لدى " الأقلية " ، وتضطر " الأغلبية " إلى القيام بردود فعل دفاعية ضدها ، أو إلى ممارسة تعصب مضاد أشد وأعنف من التعصب الأصلي .

ويعطي فؤاد زكريا نموذجًا لما يؤكده ، فقد شهد عصرنا الحاضر نموذجًا فريدًا لهذا اللون من التعصب في روديسيا وفي جنوب إفريقيا ، حيث تمارس " أقلية بيضاء " من أصل أوروبي ، " اضطهادًا جماعيًا " شاملاً ضد أغلبية إفريقية من سكان البلد الأصليين ؛ ذلك لأنه ، على الرغم من وجود أوجه تشابه قوية بين هذا النوع من " الاضطهاد العنصري " ، وبين نظيره في الولايات المتحدة الأمريكية ، فإن بينهما فارقًا بنائيًا لا يصح تجاهله ، هو أن الأول تعصب عدواني من الأقلية تجاه الأغلبية ، على حين أن الأغلبية في الحالة الثانية هي التي تمارس التعصب على أقلية مغلوبة على أمرها . ولا شك في أن " تعصب الأقلية ضد الأغلبية أشد ألوان التعصب شراسة " ، إذ أن هذه الأقلية تدرك أنها - من الوجهة العددية على الأقل - في مركز الضعف ، ومن ثم فهي تعوض ضعفها باتخاذ جميع التدابير الكفيلة بإبقاء الأغلبية المضطهدة في حالة لا تسمح لها بالانقضاض عليها . ومن هنا كانت أقسى أنواع" التعصب العنصري " التي يعرفها عصرنا الحاضر ، هي تلك التي تمارسها الأقلية الحاكمة في روديسيا وجنوب إفريقيا ، ضد الأغلبية الملونة من سكان البلاد الأصليين.

على أن " تاريخ اليهودية " يمكن أن يعد مثلاً صارخًا ، امتد عبر مئات طويلة من السنين ، لهذا اللون الفريد من تعصب الأقلية ضد الأغلبية . فالأقلية اليهودية لم تكن في أية حالة من الحالات ، أقلية حاكمة مسيطرة على زمام الدولة ، كما هي الحال بالنسبة إلى الأوروبيين في روديسيا وجنوب إفريقيا ، وإنما كانت أقلية ضعيفة من الوجهة السياسية ، ومع ذلك فقد كانت وهي في حضيض الضعف ، تمارس نوعًا من الاستفزاز ، يدفع المجتمع الذي توجد فيه إلى اضطهادها رغمًا عنه ؛

ذلك لأن " أسطورة شعب الله المختار " ، تقوم بدور حقيقي في التراث اليهودي . صحيح أن المستنيرين من أبناء هذا التراث يحاولون تفسيرها بمعان غير عنصرية ، ولكن هناك شواهد قاطعة على أن هذه الأسطورة ، تكون جزءًا لا يتجزأ من التكوين العقلي لليهودي العادي ،

وتدفعه إلى أنواع من السلوك لابد أن تؤدي آخر الأمر إلى التصادم بينه وبين مجتمعه .

وحتى لو قيل إن المجتمع يتخذ الأقلية اليهودية الموجودة فيه " كبش فداء " يفرغ فيه شعوره بالخيبة أو اليأس أو الإخفاق ، فإن وقوع الاختيار على الأقلية اليهودية بالذات ، طوال ألوف السنين ، لكي تكون كبش الفداء هذا ، هو أمر يدعو إلى التأمل العميق ، ويدفعنا إلى البحث عن " جذور التعصب " في هذه الأقلية ذاتها ، قبل أن نبحث عنها في المجتمع المحيط بها .

فالتحليل الجدلي لظاهرة " الاضطهاد العنصري لليهود " ، يثبت لنا أن هذا الاضطهاد في حقيقة الأمر ، رد فعل من جانب الأغلبية على الأقلية . إنه في حقيقته اضطهاد مضاد . أما الاضطهاد الأصلي ، فهو ذلك الذي تمارسه الأقلية اليهودية ، وهو بطبيعة الحال اضطهاد صامت مستكين حين تكون هذه الأقلية في مركز الضعف ، ولكنه ينقلب إلى وحشية مخيفة حين تتحول إلى مركز القوة ، كما هي الحال في مذابح فلسطين المشهورة . وعلى ذلك ، فلو شئنا أن نصحح الرأي الشائع عن التعصب ضد اليهود ، لقلنا عنه إنه تعصب مضاد ، أو إنه في معظم حالاته رد فعل ، أما الفعل الأصلي والتعصب الأساسي ، فيرجع إلى خرافات وأساطير استفزازية عنيدة على الدوام ، تكون جزءًا لا يتجزأ عن " التراث اليهودي " .

ويدلل فؤاد زكريا على رأيه ، بأن اليهود مهما كان مقدار ضعفهم في مجتمع ما ، " يرفضون الاندماج في هذا المجتمع ، ويعدون هذا الاندماج علامة على انهيارهم " ، فيعملون على مقاومة هذا الانهيار بكل ما يملكون من قوة ؛ ذلك لأن الاندماج والحصول على نفس حقوقهم على قدم المساواة ، هو الحلم البعيد الذي تكافح من أجله الأقليات المضطهدة في جميع أرجاء العالم .

ويستشهد مفكرنا على ذلك بكفاح زنوج أمريكا ، في سبيل " المساواة في فرص العمل والتعليم والحقوق السياسية " ، وسعيهم الدائب من أجل أن يسمح لهم المجتمع بأن " ينصهروا " فيه ويكّونوا جزءًا لا يتجزأ منه ، أما في حالة الأقلية اليهودية ، فإن الاندماج يعد في نظرها أفظع الجرائم التي يمكنها أن ترتكبها في حق ذاتها ، إنه خيانة للتراث اليهودي وضياع لكل ما هو مميز لـ " الشعب المختار " . ومن هنا كانت صعوبة التعامل مع الأقليات اليهودية ، وحتمية تحول هذا التعامل إلى اضطهاد ، حتى في المجتمعات التي لم تكن تنوي ممارسة هذا الاضطهاد أصلاً ، إذ أن هذه المجتمعات لو منحت الأقلية اليهودية حقوقها المتساوية ، وعملت على إدماجها فيها وإذابتها ذوبانًا تامًا ، لقوبل هذا الإدماج بمقاومة عنيفة منها ، ولو تركتها تعيش على هامش

الجماعة الكبيرة ، لارتفع صراخها بالشكوى من الاضطهاد . وقد نقل فؤاد زكريا في كتابه عن " ريتشارد فاجنر " أنه من أبرز من تناول هذا المعنى ، فقد حمل على اليهودية ، لاعتقاده بأن اليهود عنصريون ومتعصبون ، فطالما ظل اليهودي يقيم حاجزًا بينه وبين الدولة التي يعيش فيها ، و محتفظًا بصفات " الأمة اليهودية " ، كان على الإنسانية أن تحاربه لأنه خارج ومنشق عنها . أما صلاح اليهود فلن يكون إلا بعودتهم إلى ركاب الإنسانية ، وخلعهم " رداء التعصب " .

أعظم الأخطار التي يجلبها التعصب على العلم ، هو أنه يجعل الحقيقة ذاتية ، ومتعددة ، ومتناقضة ، وهو ما يتعارض كلية ، وطبيعة الحقيقة العلمية

وواقع الأمر أن وجود نوع من الإحساس بالظلم والاضطهاد كان ولا يزال ، جزءًا لا يتجزأ من " القوة الدافعة " التي ساعدت اليهود على التماسك ، والاحتفاظ بتراثهم على مر العصور . وإذا وعينا هذه الحقيقة جيدًا لتبين لنا أن الوصول إلى تسوية نهائية على أساس التعايش السلمي مع دولة قائمة على أساس عنصري مثل إسرائيل ، هو أمر يكاد يكون في حكم المستحيلات ، ليس فقط بسبب الأطماع المتزايدة التي تنتمي إلى صميم بناء الدولة ، بل لأن قادتها يدركون أن " حالة السلام الدائم " هي أكبر خطر يمكن أن يتعرض له كيان الشعب اليهودي في إسرائيل . فهذه الحالة كفيلة بأن تقضي على " الدينامية العدوانية النشطة لدى هذا الشعب " ، وتهدد تماسكه الداخلي وتضامنه مع الطوائف اليهودية في الخارج ، وتمزق المتناقضات التي ينطوي عليها هذا التجمع المصطنع الذي لا يوحده إلا الشعور بالخطر .

ولما كانت تصريحات القادة اليهود على مر العصور تكشف عن وعيهم المكتمل بهذه الحقيقة ، فإننا نستطيع أن نتنبأ منذ الآن بأن دولة مثل إسرائيل لن تكف عن إثارة القلاقل والمشاكل من حولها ، حتى ولو تهيأت لها في المنطقة " كل أسباب السلام " ، وذلك على الأقل من أجل الاحتفاظ بتماسكها وفاعليتها ، عن طريق " الاحتفاظ بجذوة الإحساس بالخطر متقدة على الدوام " .

ولعل أهم الأسئلة التي يثيرها " التفكير الجدلي " في ظاهرة التعصب ، هو السؤال عما إذا كان التعصب منتميًا إلى " البناء الأعلى " ، أو " البناء الأدنى " أو الأساسي ، أي عما إذا كان التعصب ظاهرة تفسر بذاتها ، أم لا تفهم إلا من خلال ظواهر أخرى أكثر أولوية منها .

يجيب فؤاد زكريا بأن التعصب كان يفسر بذاته في العصور القديمة ، التي كانت كل الأسس فيها خافية ، وكانت " الأبنية العلوية " فيها هي كل شيء . أما في عصرنا هذا ، عصر الكشف عن "

الأسس الخبيئة " ، وفضح الأسباب الحقيقية المستورة ، فقد أصبح التعصب يرد دائمًا إلى أصول أخرى أسبق منه وأقدر على تفسيره .

ولقد قام علم النفس بدور مهم فى الكشف عن " الجذور العميقة للتعصب في النفس البشرية " . ولكن الذي يعنينا هنا هو أن تفسيرات علم النفس ذاتها ، تعد في نظر الكثيرين منتمية إلى البناء العلوي ، على الرغم من أنها تتركز على الجذور الخفية اللاواعية لظاهرة التعصب . أما البناء الأساسي الذي يقدم تفسيرًا كافيًا لهذه الظاهرة ، فهو في نظر هؤلاء البناء الاقتصادي . فالتعصب ، تبعًا لهذا التفسير ، لا يعدو أن يكون مظهرًا من بين مظاهر استغلال الإنسان للإنسان ، سواء في المجتمع الزراعي أم في المجتمع الصناعي . إنه " التبرير الأيديولوجي للاضطهاد " الواقع على ئات معينة يستغل المجتمع طاقتها دون أن يمنحها حقوقها المشروعة .

ولا يجزم فؤاد زكريا إن كان هذا التفسير صالحًا للانطباق على كل حالات التعصب التي شهدها البشر على مر التاريخ ، ولكن الأمر المؤكد هو أن النظرة الفاحصة إلى " مظاهر التعصب في عالمنا المعاصر " ، تقنعنا بأن هذا هو التفسير الأكثر انطباقًا على الواقع الذي نعيش فيه ، فالحكم على الزنوج بالدونية هو الذي يجعل الأغلبية البيضاء في أمريكا ، والأقلية البيضاء في روديسيا وجنوب إفريقيا ، تستغل عملهم بأبخس الشروط ، وتبرر لنفسها ذلك بضمير مستريح . والاعتقاد بأن الشعب اليهودي شعب مختار وعده الله منذ ألوف السنين بأرض فلسطين ، هو الذي يبرر للصهيونية طرد العرب من ديارهم ، واستغلال من بقى منهم أسوأ استغلال ، بوصفهم مواطنين من الدرجة الثانية .

فإذا صح أن التعصب في عالمنا المعاصر ، هو في أساسه " تبرير ظاهري " لعلاقة الاستغلال التي تمارسها فئة قوية ، على فئة أخرى تحتل – لسبب أو لآخر – مركزًا أسوأ ، كانت النتيجة الحتمية المترتبة على هذا هي أن الكفاح ضد التعصب ، لا يمكن أن يكون " كفاحًا إصلاحيًا " يتم على مستوى " الوعظ الأخلاقي " ، بل هو في أساسه " كفاح أيديولوجي واجتماعي وسياسي " ، يؤلف جزءًا لا يتجزأ من إطار أوسع ، هو نضال الإنسان المعاصر في سبيل التحرر من جميع" أشكال الاستغلال " .

وقد تطرق فؤاد زكريا في كتابه " التفكير العلمي " لإشكالية التعصب من زاوية أخرى ، كونها عقبة في طريق التفكير العلمي ، وتتمثل هذه الخطورة في أن التعصب " يلغي التفكير الحر ، والقدرة

على التساؤل والنقد ، ويشجع قيم الخضوع والطاعة والاندماج " ، وهذا يؤدي إلى صفة أخرى أساسية في التعصب ، هي أنه ليس موقفًا تختاره بنفسك ، بل موقفاً تجد نفسك فيه .

وأعظم " الأخطار التي يجلبها التعصب على العلم " ، هو أنه " يجعل الحقيقة ذاتية ، ومتعددة ، ومتناقضة " ، وهو ما يتعارض كلية ، وطبيعة الحقيقة العلمية . فكل متعصب يؤمن بحقيقته هو ، ويؤكد - بلا مناقشة - خطأ الآخرين . ولكنك حين تنتقل إلى هؤلاء الآخرين ، تجدهم يؤكدون هذا الشيء نفسه عن " حقيقتهم الخاصة " ، ويؤكدون خطأ الأول . وهكذا تضيع الحقيقة - بالمعنى العقلي والعلمي - في هذا التشتت والتناقض . و " لو كان العقل هو الحكم بين الناس ، لما تعددت حقائقهم أو تناقضت " .

وقد يبدو ظاهريًا أن التسامح قد تغلب على التعصب ، منذ أن أحرز العلم انتصاراته الكبرى في العصر الحديث ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فما زال التعصب كامنًا في النفوس ، حتى في تلك البيئات التي يبدو فيها أنه قد اقتلع من جذوره ، وتكفي أية " هزة قومية " أو اجتماعية عنيفة لإيقاظه من سباته ، وتجديد قوته الطاغية .

ويرى فؤاد زكريا أن " التعصب هو عقبة متعددة الأطراف ، تقضي قضاء تامًا على كل إمكان للتفكير العلمي " ، إذا ترك لها المجال لكي تنتشر وتسيطر . فالتعصب ينطوي على " خضوع تام لسلطة المبدأ الذي نتعصب له " . وكل متعصب ينظر إلى طريقة تفكيره الخاص ، أو على الأصح طريقة تفكير الجماعة التي ينتمي إليها ، على أنها سلطة لا تقبل المناقشة . كما " ينطوي التعصب على تفكير أسطوري " ، إذ أن الموضوع الذي نتحيز له في حالة التعصب ، يتحول إلى أسطورة ، فيختفي طابعه الحقيقي ، ويحل طابع وهمي مختلق . فضلاً عن أن المتعصب يتمسك برأيه بطريقة خلت من كل منطق ، وهو بطبيعته يشجع التفكير اللاعقلي ، لأنه هو الدعامة الوحيدة لموقفه . ومن هنا كان أساس النازية هو " أسطورة الجنس الآرى " المتفوق ، وكان أساس التفرقة العنصرية هو " أسطورة الجنس الزنجي المنحط " ، إلى غير ذلك من الأساطير التي يستند إليها كل شكل من أشكال التعصب .

ومجمل القول أن التعصب " عقبة مركبة " ، تعترض طريق التفكير العلمي ، ومن هنا كانت المعركة التي ينبغي أن يشنها عليه هذا التفكير حاسمة ، إذ أن العقل البشري لا يستطيع أن يجد حلاً وسطًا بين الاثنين ، فـ " إما العلم وإما التعصب " ، ولابد من القضاء على أحدهما لكي يبقى الآخر .

■ د. زكى سالم

فؤاد زكريا والتفكير العلمى

فقدت مصر والعالم العربى ، بل فقدت الإنسانية مفكرا من كبار المفكرين الذين قضوا حياتهم فى البحث العلمى ، والدرس الفلسفى ، والدفاع عن قيم الحضارة الإنسانية ، والتقدم البشرى .

فالراحل الكبير يعد مفكرا إنسانيا بمعنى الكلمة ، إذ لم يتعصب يوما لجنس ، ولا لدين ، ولا لمذهب فلسفى ، ولا لاتجاه فكرى ، ولا لعقيدة سياسية، وهذا لا يعنى أنه بلا اتجاه خاص ، فهو صاحب رؤية فكرية واجتماعية وسياسية ودينية عميقة ، ولكنه - فى الوقت ذاته - قادر على رؤية مختلف جوانب الأفكار الفلسفية ، والاتجاهات الفكرية ، والمذاهب الاجتماعية ، والعقائد السياسية .

وقد ظل مفكرنا الكبير - طوال حياته - مدافعا عن دور العقل فى تحقيق التقدم المنشود ، والخروج بعالمنا العربى من مستنقع التخلف العلمى ، والجمود الفكرى ، والاستبداد السياسى ، فكم حثنا - من خلال كتبه ومقالاته وترجماته وحواراته - على ضرورة شيوع منهج التفكير العلمى فى شتى جوانب حياتنا المعاصرة ، وقد ألف كتابا مهما بهذا الخصوص ، عنوانه " التفكير العلمى " ، ولعل هذا الكتاب يمثل خلاصة للمذهب الفكرى ، والاتجاه الفلسفى لفؤاد زكريا . ومن ثم فإننى أدعو إلى تدريس هذا الكتاب القيم فى جميع كليات الجامعات المصرية بل والجامعات العربية ، فشبابنا فى أشد الحاجة إلى تعلم مبادئ وقواعد التفكير العلمى ، كما أن مجتمعاتنا العربية فى أمس الحاجة إلى تجاوز مرحلة التفكير الخرافى ، والتمسك بمنهج التفكير العلمى عند معالجة مختلف مشاكلنا الفكرية ، والاجتماعية ، والسياسية .

ويُعرف فؤاد زكريا التفكير العلمى بقوله : " هو ذلك النوع من التفكير المنظم ، الذى يمكن أن نستخدمه فى شئون حياتنا اليومية ، أو فى النشاط الذى نبذله حين نمارس أعمالنا المهنية المعتادة ، أو

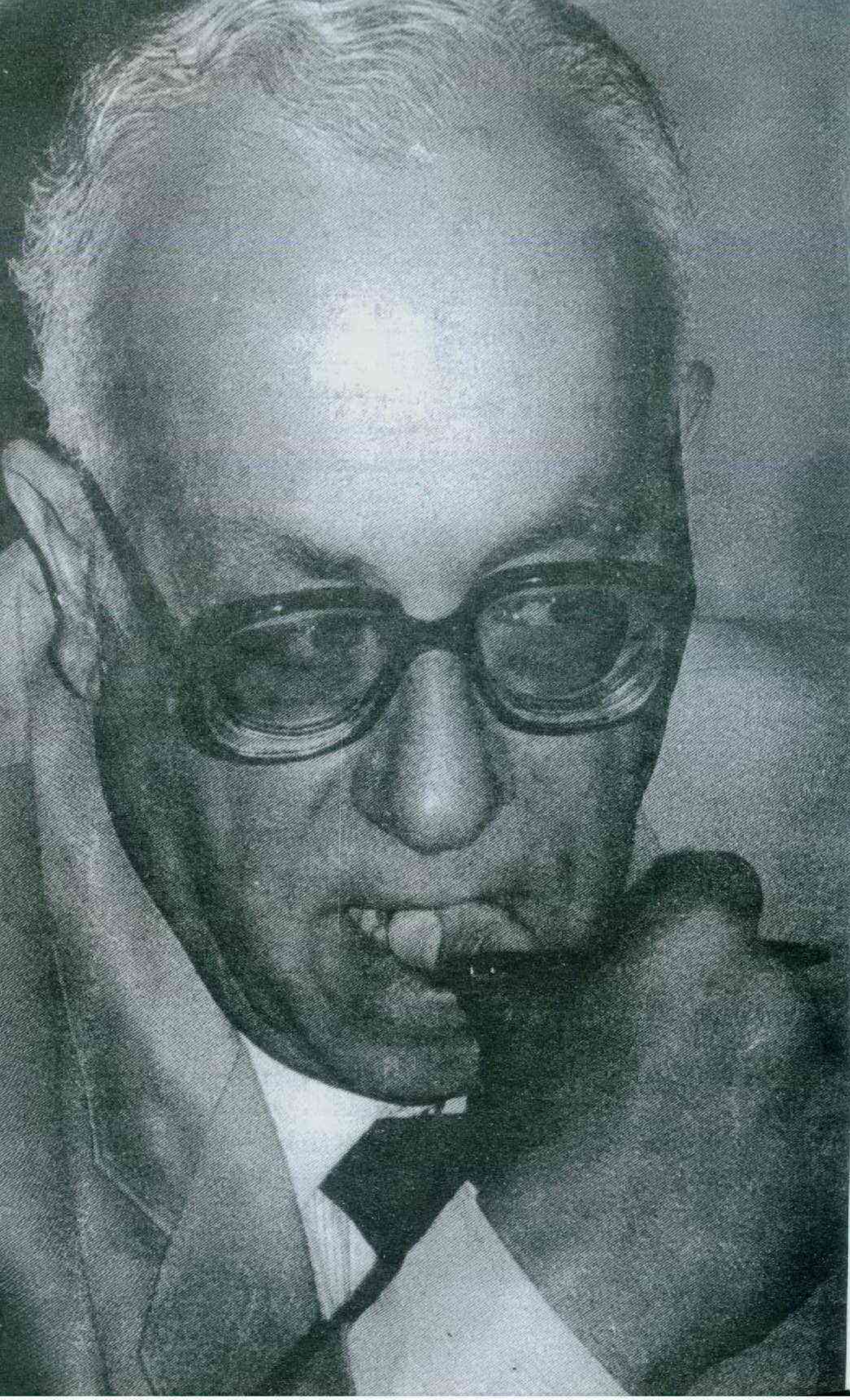

فى علاقتنا مع الناس ، ومع العالم المحيط بنا . " ومن خلال هذا النوع من التفكير المنظم ، يمكن أن تتشكل النظرة العلمية إلى شتى أمور الحياة ، أو العقلية العلمية المنطقية التى تسعى إلى التحرر من مخلفات عصور الجهل والخرافة . فنحن مازلنا حتى اليوم نتجادل حول أبسط مبادئ التفكير العلمى ، وبديهياته الأساسية . وإذا كنا لا نكف عن الزهو بماضينا العلمى المجيد ، فإننا فى حاضرنا نقاوم العلم ، والتفكير العلمى أشد المقاومة !

ويقول مفكرنا الكبير : " إن العلم ليس قوة معادية لأى شىء ، ولا منافسة لأى شىء ، والعالم شخص لا يهدد أحدا ، ولا يسعى إلى السيطرة على أحد ." وهنا لابد أن أعبر عن اختلافى فى هذه النقطة مع أستاذى الجليل – وقد علمنا أن نناقشه ، ونختلف معه عندما تتباين وجهات النظر – أقول إن العلم فى الحقيقة قوة تعادى قوى أخرى كثيرة ، فالعلم يعادى الجهل ، ويعادى التخلف ، ويعادى الخرافة ، كما يعادى كل أشكال الجمود والتحجر والرجعية ، ومن ثم نرى فى عالمنا العربى أعداء أشداء للعلم ، يقفون له بالمرصاد ، وإذا كان أستاذنا يرى أن العالم شخص لا يهدد أحدا ، فالحقيقة أن العالم – فى مجتمعاتنا العربية – شخص خطير جدا ، إذ يهدد بتفكيره العلمى الرصين كل أنواع الاستبداد والظلم والطغيان . فالعلماء قادرون على تهديد مصالح حكام فاسدين ، وزعزعة استقرار عروش قائمة على إشاعة روح الجهل ، وتنمية الفكر الخرافى بين الناس !

والتفكير العلمى لا يعنى حشد المعلومات العلمية ، ولا معرفة طرائق البحث فى ميدان معين من ميادين العلم ، وإنما هو طريقة فى النظر إلى الأمور تعتمد أساسا على العقل ، والبرهان المقنع بالتجربة أو بالدليل ، وهى طريقة يمكن أن تتوافر لدى إنسان لم يكتسب تدريبا خاصا فى أى فرع من فروع العلم .

الحرية

لا يمكن أن نتصور نمو روح التفكير العلمى فى مجتمعات تفتقد معنى الحرية ، سواء كانت هذه الحرية فكرية ، أو سياسية ، أو اجتماعية ، أو غيرها من أشكال الحريات الضرورية لخلق مساحة تسمح للعقل بالحركة ، والسعى نحو اكتشاف المجهول . فمناخ الحرية ، واتساع نطاق الحريات العامة ، واتباع نظام ديمقراطى يرعى حقوق الإنسان ، ويحافظ على كرامته ، هذه هى البيئة التى تتيح للعقل الإنسانى أن يبرز إمكاناته النقدية ، ويحقق قدراته الإبداعية .

وكما يقول مفكرنا الراحل : "لابد أن يزعزع العالم – كخطوة أولى فى بحثه – ما رسخ فى عقول الناس من أوهام وتحيزات عملت على تثبيتها عوامل غير موضوعية ." فكثيرا ما كانت نقطة البداية المؤدية إلى كشوف علمية مهمة ، هى التشكيك فى يقين راسخ عند العامة ، وأحيانا عند العلماء أنفسهم ! وهذا أمر يستلزم مناخاً من الحرية ، يسمح للعقل بالتحرر من قيود التقليد ، والانطلاق إلى المجهول ، فالعلم لا يعترف بشىء اسمه الحقائق النهائية التى تسرى على كل

زمان ومكان ، بل يعمل دائما حسابا للتغير والتطور المستمرين .

ويؤكد الدكتور فؤاد زكريا على خطورة الخضوع للسلطة ، أى سلطة مهما كانت ، والسلطة هى المصدر الذى لا يناقش ، والذى نخضع له بناء على إيماننا بأن رأيه هو الكلمة النهائية ، وبأن معرفته تسمو على معرفتنا ، فالخضوع للسلطة أسلوب مريح فى حل المشاكل ، ولكنه أسلوب ينم عن العجز ، والافتقار إلى الروح الخلاقة . ومن هنا فإن العصور التى كانت السلطة فيها هى المرجع الأخير فى شئون العلم والفكر ، كانت عصورا متخلفة خلت من كل إبداع .

إن العلم ليس قوة معادية لأى شىء ، ولا منافسة لأى شىء ، والعالم شخص لا يهدد أحداً ، ولا يسعى إلى السيطرة على أحد

« فؤاد زكريا »

التعصب

يُعرف فؤاد زكريا التعصب بقوله: " هو اعتقاد باطل بأن المرء يحتكر لنفسه الحقيقة أو الفضيلة ، وبأن غيره يفتقرون إليها ، ومن ثم فهم دائما مخطئون أو خاطئون . " وجوهر التعصب يكمن فى توحد الفرد مع رأى الجماعة التى ينتمى إليها ، إذ يمحو المتعصب شخصيته ، ويذيب عقله ووجدانه فى جماعته ، بحيث لا يحس بنفسه إلا من حيث هو جزء من هذه الجماعة . فالمتعصب يلغى تفكيره الحر ، وقدرته على التساؤل ، وملكاته النقدية ، وتمتلئ نفسه بقيم الخضوع والطاعة والاندماج ، ومن ثم فموقف التعصب لا يختاره صاحبه بوعى ، ولكنه يجد نفسه فيه ! وكأنما التعصب هو الذى يفرض نفسه على الإنسان ! إنها قوة الجماعة أو المجتمعات ، وسطوتها على أى فرد من أفرادها ، مع ملاحظة حاجة الفرد إلى رأى عام يحتمى به ، ويعفى نفسه من مشقة التفكير فى ظله !

والحماية هنا متبادلة ، فالرأى الذى نتعصب له يحمينا ، لأنه يؤدى إلى نوع من الهدوء والاستقرار النفسى، ويضع حدا لمعارك قد تنشب فى داخلنا حين نستخدم عقولنا بطريقة نقدية . ومن جهة أخرى نضمن الحماية لهذا الرأى ذاته عن طريق رفض كل رأى مخالف ، ومهاجمته بعنف ، وهكذا تتشكل حماية متبادلة ، ولكنها حماية خادعة ومضللة . فهى من نفس نوع الحماية التى يكفلها لنا الخمر أو المخدر ، لأنها ترتكز على تخدير التفكير وإبطاله ، ولأنها تضع أمامنا صورة باطلة للواقع ، لا ترتكز على دليل ، ولا منطق !

وهذا ينطبق على كل أشكال التعصب ، فالتعصب العنصرى ، والقومى ، والدينى ، والسياسى ، كل هذه الأشكال تشترك فى سمات واحدة : الانحياز إلى موقف الجماعة التى ننتمى إليها دون اختيار ، ودون تفكير ، والاستعلاء على الآخرين ، والاعتقاد أنهم أدنى منا !

وكم نحن بحاجة إلى رؤية فؤاد زكريا الثاقبة ، ودعوته إلى التخلص من التعصب المسيطر على نفوس كثيرة فى عالمنا ، فالتعصب عقبة تعترض طريق التقدم ، طريق التفكير العلمى ، إذ التعصب ينطوى على تفكير لا عقلى، ومبدأ التسامح فى الفكر والعقيدة ،

مـازال بعـيـدا عنا ، ومن ثم فـمـعـركـة فـؤاد زكـريا ضـد التـعـصب لم تنتـه بعـد ، وعلى أمـتنا أن تستـمـر فـى تقـديم المزيد من القـــرابين ، إلى أن يتم اسـتـئصال آفة التـعصب من عـــالمنا العـــربى ، ولن نتخلص من التعصب إلا بنشر مبادئ التفكير العلمى.

الإعلام المضلل

الإعلام هو نقل المعلومات أو توصيلها ، ونظرا للتطورات التكنولوجية المتلاحقة ، زاد بدرجة كبيرة جدا دور أجـهـزة الإعلام ونفـوذهـا ، وقـد أصـبـحنا فـى عـصـر السـمـاوات المفـتـوحـة ، وشـبكة المعلومـات الدولية " الإنترنت " ، فثمة قدر هائل من المعلومـات المتـدفـقـة ، أو المتـاحـة للناس العـاديين ، وهـذا الانفـجـار المعلومـاتى ، يقـابله جـدب مـعـرفى ! فـأجـهـزة الإعـلام كثيرا ما تبث للناس بيانات غير صحيحة ، أو مـعلومـات غـيـر دقـيـقـة ، أو أخـبـاراً منحـازة، أو أنصـاف حـقـائق! ومن ثم لا تتشكل لدى الجماهير رؤية حقيقية للواقع.

ووســائل الإعــلام فـى عـالمنا العـربى قادرة على نشر قـيم التـفكير العلمى ، أو هدمـهـا ، والاتجـاه الغـالب على مـا تقدمـه هذه الوسائل الإعلامية واسعة الانتشار- كـمـا يرى فـؤاد زكـريا- لا يخـدم قـضـيـة التفكير العلمى،ولايساعد على نشر قيمه بين الجماهير العريضة.

فثمة عملية تزييف للوعى العام ، تتم فى طريقين : الأول منهمـا تجـارى بحت ، هدفـه ترويج السلع والخـدمـات بين أكـبـر عـدد من الناس ، حـتى لو كـانـوا فى غـيـر حاجة إليها ! أما الطريق الآخر فسياسى ، إذ إن نظم الحكم المخـتـلفـة تسـتـعين بأجـهزة الإعلام من أجل دعـم مركزها بين شـعـبـهـا ، أو تحـسين صـورتهـا لدى الشـعـوب الأخـرى . وعـمـليـات التـضليل الإعـلامى ، والدعـاية العلمـيـة الحـديثـة ، تعـمل بحـرص ودأب على إشـاعـة العـقلية التى تصدق ما يصل إليها ، وتستسلم له ، كـمـا تعـمل على هدم روح النقـد ، ونشـر روح الانقياد . وهكذا أيدت شعوب كثيرة نظما جائرة ، وصفقت لزعماء مستبدين يظلمونها ، لأن الدعاية الحديثة أفقدت هذه الشـعـوب كل قدرة على التفكير السليم ، والرؤية الواضحة.

وأجـهـزة الإعـلام المضللة هذه ، تـعـد عقبة كبرى فى وجه انتشار روح التفكير العلمى فى عـالمنا العـربى ، ومن ثم فـقـد نبـهنا أسـتـاذنا الجليل فـؤاد زكـريا ، على أهـمـيـة تنـمـيـة الحس النقدى لدى الأجـيـال الجـديدة من الشـبـاب ، لفـحص وتحليل وتفنيـد ومـقـارنة كل مـا يلقى إليـهـم من أخبار ، وتصريحات ، وبيانات ، ومعلومات ، وأرقـام ، وإحصـاءات ، وغيـرها ، إذ إن الوصول إلى الحقائق فى عالمنا المخادع ، يسـتلزم اتبـاع منهج التـفكيـر العلمى فى البحث عن الحقيقة .

تفشي الخرافة

لابد أن نعترف بشجاعة ، ووضوح أن الخرافات – من كل صنف وشكل ونوع – مـازالت تحـتل عـقـولاً كـثـيـرة فى عـالمنا العربى !

وظاهرة الفكر الخرافى – كـمـا يقول فـؤاد زكـريا – أعـقـد من أن تكون مـجـرد بقـيـة من بقـايا عـصـور مـاضـيـة ، بحـيث يسـتطيع العلم فى مـسـيـرته الظافـرة أن

يكتسحها ويمحو جميع آثارها . فالعلم والخرافة ، وإن كانا ينتميان إلى عصرين مختلفين ، يظلان متعايشين فى نفوس البشر أمدا طويلا ، وكأنهما طبقتان جيولوجيتان متراصتان الواحدة فوق الأخرى . ولذلك نرى كثيرا ممن نالوا قسطا من التعليم ، وبعضاً ممن نالوا من التعليم حظا رفيعا ، يتمسكون بالفكر الخرافى فى كثير من جوانب حياتهم التى لايمسها العلم مساسا مباشراً !

لا يمكن أن نتصور نمو روح التفكير العلمى فى مجتمعات تفتقد معنى الحرية ، سواء كانت هذه الحرية فكرية ، أو سياسية ، أو اجتماعية

« فؤاد زكريا »

ولعل الشعور العام بالعجز ، وقلة الحيلة ، فى مواجهة استبداد داخلى ، وهزيمة خارجية ، هو العامل الأساس فى تفشى الخرافة ، واستمرارها فى عالمنا العربى . فالعجز يلجئ الإنسان – عند تعليله لمسار الأحداث – إلى قوى لا عقلية تساعده على التخلص من المشكلات التى يواجهها تخلصا وهميا ، بدلا من أن تساعده على حلها ، أو مواجهتها بطريقة واقعية .

أما أخطر ما يتعلق بظاهرة الخرافة ، فهو الربط بين الخرافة والدين ، فثمة من يستغلون وجود بعض الحقائق الدينية الغيبية ، كالروح مثلا ، ووجود بعض النصوص الدينية التى تتحدث عن السحر والحسد ، لكى يدافعوا بحرارة عن حقيقة الظواهر الخرافية مؤكدين على أن الدين نفسه يدعمها ، وهكذا يتم استغلال عمق الإيمان الدينى لدى الناس من أجل تأكيد الفكر الخرافى . وبذلك يتم وضع الدين – بلا مبرر – فى مواجهة العلم ، كما يتم وضع عقول الناس البسطاء فى مواجهة الاثنين معا ! فتقف حائرة بين عقيدة متأصلة فيها ، ومنهج علمى يثبت صحته كل يوم .

وهنا يقدم لنا فؤاد زكريا سؤالا ، وهو : لماذا لا تتكاتف الجهود من أجل دعم ، وتأكيد التفسيرات الدينية التى تحارب الخرافة ، وتؤيد العلم ؟! فثمة تفسيرات لا تتعارض مطلقا مع التفكير العلمى ، وقد تجلت فى عصور النهضة الإسلامية ، حين تألق العقل العربى ، وانطلق بقوة فى سماوات العلم والمعرفة والتقدم ، وأسس دعائم حضارة من أعظم الحضارات الإنسانية .

قدرة العقل

يقول مفكرنا الكبير : " فى مجال الفن والشعر والأدب يهيب الإنسان بقوى أخرى غير العقل ، قد يسميها الخيال أو الحدس ، ويؤمن – عن حق – بأن هذه القوى هى التى توجهه فى هذا المجال ، لأن المنطق العقلى الدقيق يعجز عن الأخذ بيدنا حينما نكون بصدد إبداع عمل فنى أو أدبى." لكن بعض المفكرين يخلطون بين مقتضيات الحياة الشخصية ، والتجارب الفنية والأدبية من جانب ، ومقتضيات المعرفة العلمية من جانب آخر ! إذ يشككون فى قدرات العقل ، ويصرون على أنه سيظل إلى الأبد قوة محدودة قاصرة !

ويرى فؤاد زكريا أننا لا يجب أن نشكك فى دور العقل ، وقدرته على كشف الحقائق فى المجالات العلمية ، وأمامنا إنجازات العلم المدهشة دليل دامغ على

ما قدمه العقل للإنسانية ، فقد تغير نمط حياة البشر تغيرا هائلا بفضل منهج التفكير العلمي .

وإذا عجز العقل – حتى الآن – عن حل مشكلات كثيرة ، تعانى منها البشرية ، فذلك لا يثبت على الإطلاق أن العقل فى ذاته قاصر ، بعد كل ما حققه من إنجازات رائعة . ومشكلات الحياة المعاصرة تمثل تحديات كبيرة أمام العقل البشرى ، ومنهج التفكير العلمى هو الطريق الوحيد للتعامل مع المشكلات الحاضرة ، وحل ألغاز العصر الحديث .

العلم والتكنولوجيا

العلم معرفة نظرية ، والتكنولوجيا تطبيق لهذه المعرفة النظرية فى مجال العمل البشرى . ومنذ أقدم عصور التاريخ كان الإنسان يستعين بأدوات تساعده فى عمله ، وهذه الأدوات تستحق اسم التكنولوجيا ، ومن ثم فالعلاقة بين العلم ، والتكنولوجيا علاقة قديمة قدم الإنسان ذاته ، إذ كانا يسيران معا طوال عصور المعرفة البشرية ، وكثيرا ما كانت التكنولوجية تسير على نحو مستقل عن العلم ، وتتطور دون أن تكون معتمدة عليه ! فاختراع البارود ، والطباعة ، والعدسات المكبرة والمقربة ، كل هذه الكشوف التكنولوجية المهمة ، والتى غيرت من وجه الحياة الإنسانية ، قد تمت على أيدى صناع مهرة ، لا يسترشدون فى عملهم بنظرية علمية ، بل يستعينون بما توارثوه من خبرات ، وبما يضيفونه إليها باجتهادهم وحدسهم الشخصى ، وبما يستشعرونه من حاجة المجتمع الملحة إلى هذه الاختراعات .

وفى أوائل القرن السابع عشر ، كان الفيلسوف الإنجليزى " فرانسيس بيكن " رائدا فى الدعوة إلى نوع جديد من العلم ، يكون هدفه سيطرة الإنسان على الطبيعة ، وتسخير قواها لخدمته وإسعاد حياته . ولكن دعوة فيلسوف الثورة الصناعية هذه ، لم تؤت ثمارها إلا بعد قرنين أو أكثر من وفاته !

ويمتاز العلم فى عصرنا الحالى بالصلة الوثيقة بينه بين والتكنولوجيا ، فقد زالت الحواجز التى كانت تفصل بينهما ، وظهرت أنواع جديدة من البحوث العلمية التى تجمع بين الأسس النظرية ، والجوانب التطبيقية فى آن واحد .

العلم المعاصر

لقد اكتسب العلم ، منذ أوائل القرن العشرين ، أهمية تفوق أهمية أى إنجاز آخر طوال تاريخ البشرية ، فصحيح أن الإنسانية تفخر – عن حق – بفلسفاتها وآدابها وفنونها ، وتعترف بما تدين به لهذه الإنجازات من فضل فى تشكيل عقل الإنسان وروحه ، ولكن المكانة التى اكتسبها العلم فى عالم اليوم ، والتأثير الذى استطاع أن يمارسه فى حياة البشر ، يجعل العلم بغير شك هو الحقيقة الكبرى فى عصرنا الحاضر .

وفى كل عقد من العقود الأخيرة تتضاعف المعرفة البشرية ! وهذا ما كان يستغرق فى العصور الماضية قروناً عدة ، وسيظل هذا المعدل فى ازدياد مستمر ، وكذلك عدد العلماء يتزايد بمعدل مذهل ، فعدد العلماء الذين يعيشون الآن يكاد يعادل مجموع العلماء الذين عاشوا على هذه الأرض منذ بدء التاريخ البشرى !

وما ينفق الآن – فى دول العالم المتقدم

– على البحث العلمى من أموال طائلة ، يعزز النمو الفائق السرعة للبحوث والاكتشافات العلمية ، فالنجاح فى العلم ، يولد المزيد من النجاح ، ومن ثم تتضاعف الإنجازات العلمية ، وفى هذا العالم الذى يقرر مصيره العلم ، لا نبدى نحن اهتماما كبيرا بالبحث العلمى فى جامعاتنا العربية ، وما ننفقه على العلم يعد ضئيلا ، وضئيلا جدا ، ليس فقط بالمقارنة مع ما ينفقه العالم فى سبيل التقدم العلمى، ولكن أيضا بالمقارنة مع ما ننفقه نحن على أمور أخرى ، لا تقارن أهميتها بأهمية البحث العلمى فى عصرنا الحالى !

التعصب هو اعتقاد باطل بأن المرء يحتكر لنفسه الحقيقة أو الفضيلة، وبأن غيره يفتقرون إليها، ومن ثم فهم دائما مخطئون أو خاطئون

« فؤاد زكريا »

الموضوعية

يقول مفكرنا الراحل : " الموضوعية كلمة شديدة التعقيد ، تحتمل أوجها متباينة ، ومن المستحيل فهمها على حقيقتها إلا إذا حللنا معانيها ، وجوانبها المختلفة بمزيد من الدقة ." وأول معنى للموضوعية هو أن تكون لدى المرء روح نقدية ، ومعنى ذلك ألا يتأثر بالمسلمات الموجودة أو الشائعة ، وأن ينقد نفسه ، ويتقبل النقد من الآخرين .

فأهم ما يميز العالم قدرته على أن يختبر الآراء السائدة ، بذهن ناقد ، ولا ينقاد وراء سلطة القدم ، ولا الانتشار ، ولا الشهرة ، إذ لا يقبل إلا ما يبدو له مقنعا على أسس عقلية وعلمية سليمة . أما ثانى معنى للموضوعية ، فهو النزاهة ، وتتمثل فى قدرة العالم على أن يقف من أعماله موقفا نقديا ، ولا ينسب إلى نفسه شيئا استمده من غيره ، مع استبعاد العوامل الذاتية من عمله العلمى . وهذا التجرد هو الذى يجعل العالم يلجأ إلى وسيلة وحيدة للإقناع ، هى الدليل والبرهان الموضوعى . وثالث معانى الموضوعية ، هو الحياد ، أى لا ينحاز مقدما إلى طرف من أطراف النزاع الفكرى أو الخلاف العلمى . والعلم محايد بين الخير والشر . وإن كان الصراع ضد الجهل يعد عملا أخلاقيا جليلا ، ولا سيما إذا اقترن بتضحيات ناجمة عن التصدى للقوى التى تقف وراء الجهل ، وتحارب كل من يسعى إلى نشر الحقائق.

فالعلم أداة تتيح للإنسان أن يفهم العالم المحيط به ، وأن يفهم نفسه على نحو أفضل ، ومن ثم فهو يزيد من قدرته على السيطرة على العالم الخارجى ، وعلى عالمه الداخلى الخاص.

والنتيجة التى يؤدى إليها مسار هذا التفكير العلمى ، فى رحلته الطويلة الشاقة ، هى توحيد الإنسانية . فقد كان الدكتور فؤاد زكريا يستشرف المستقبل ، فيرى صورة الإنسانية ، وهى تفكر بعقلية عالمية ، ترعى مصلحة الإنسان فى كل مكان ، بغض النظر عن فوارق اللون والجنس والوطن والعقيدة . وعندئذ فقط سيكون التفكير العلمى لدى البشر قد استعاد طبيعته الحقة ، بوصفه بحثا موضوعيا نزيها عن الحقيقة ، يعلو على كل ضروب التحيز والهوى ، ويزن كل شىء بميزان واحد ، هو ميزان العقل .

■ د. مينا بديع عبد الملك

شيخ الفلاسفة
وقضية التفكير المستنير

ودعت مصر فى يوم الجمعة ١٢ مارس ٢٠١٠ شيخ الفلاسفة وصاحب مدرسة التفكير العلمى المستنير الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا الذى طالما ارتبط اسمه بقضية الحقيقة، تلك القضية التى نال عنها درجة الدكتوراه فى الفلسفة عام ١٩٥٦. تعمق راحلنا الفاضل فيما هو وراء الفكرالسائد «إن الحقيقة نسبية وليست مطلقة»، فتوصل سيادته إلى أن الحقيقة المطلقة تقود بصاحبها إلى التعصب البغيض، بينما الحقيقة النسبية تقود إلى التسامح المطلوب. وعلى هذا الأساس الفلسفى - كما يقول الراحل الأستاذ الدكتور محمود رجب أستاذ الفسلفة بجامعة القاهرة - ينبنى نقد د. فؤاد زكريا للتعصب، الذى هو فى صميمه، وفى الوقت نفسه دعوة إلى التسامح، وهذا يحتم القبول بالآخر والاعتراف باختلاف اللون والجنس والدين والعقيدة.

فمنذ فترة السبعينيات تغلب ضجيج الحديث عن الانفتاح الاقتصادى على الانفتاح العقلى، أى تغلب منطق المال على اتساع الأفق الذى يستوعب الآخر ويحترمه ويقدره بمقدار ما يتبنى من فكر عوضا عن مقدار ما يملكه من مال. من هنا - كما رأى راحلنا الفاضل - أنه لم يكن انفتاحا اقتصاديا بقدر ما كان انفتاحا على الانغلاق، وفى هذا كان يكمن تشجيع أصحاب الحقيقة المطلقة، فتحررت قوى التعصب، وظهرت مشكلة وهمية تقوم أساسا على كراهية الغير والاعتزاز بالأنا.

■ كاتب وأستاذ جامعى

تميز أسلوب د. فؤاد زكريا – فى تناوله للقضايا المصيرية التى تعرض لها – بالوضوح الشديد، فلم يوجد غموض فى أسلوبه، كما أنه لم يجعل عقل القارئ فى حالة من التقبل السلبى من أفكار، بل كان دائما يجعل عقل القارئ يتفاعل بإيجابية مع ما يقرؤه من أفكار مستنيرة، هذا الوضوح فى الأسلوب منبثق من وضوح نظرته العقلية للمشكلة التى يتناولها، لذلك جاء ت كتاباته العديدة والمتعددة خالية تماما من العبارات الإنشائية الطنانة التى لا

تشبع فكرا ولا ترضى ضميرا ولا تحرك ساكنا ولا تحل مشكلة. كذلك لم يلجأ إلى أسلوب استخدام الأمثلة التوضيحية لأنه لم يفترض أن القارئ طالب قاصر أو طفل صغير غير قادر على الإلمام بما يعنيه من أفكار، بل بالعكس تماما كان يحفز القارئ - كما فى كتابه عن التفكير العلمى مثلا - على التفاعل النشط مع أفكار الكاتب، ومن هنا يأتى التفاعل الإيجابى الذى يولد بداخل الشخص الثورة الإصلاحية الداخلية من ناحية التغيير فى الأسلوب والعادات والسلوكيات والأفكار. ومن خلال هذا الأسلوب العلمى المتميز يمكنه أن يصلح من حال الشعوب والأمم.

كان راحلنا الفاضل د. فؤاد زكريا يؤمن تماما بحقه فى التفكير العقلى المستقل مستندا على المنهج الديكارتى الذى يقول: «لا أقبل شيئا على أنه حق ما لم يتبين لعقلى أنه كذلك» فكان يرى أن العقل الذى لا ينقض عقل عاطل - وفى الواقع أن هذا المنطق هو أساس البحث العلمى الجاد، لذلك نظم التعليم حاليا أفسدت هذا المنهج وأصبح التعليم يقوم على التلقين - والتفكير الذى لا يصاحبه نقد تفكير عقيم، بعكس المنهج السائد حاليا أن من يقوم بالنقد هو عدو لنا وليس منا!

فمن خلال كتاباته العديدة أظهر لنا أن غياب العقل هو السبب الأول والمباشر فى التردى والتخلف والإخفاق الذى وصلنا إليه، فأصبحنا نعتقد فى الغيبيات عوضا عن العلم الجاد. هذا العقل - كما يقول د. مجدى الجزيرى - يتجلى فى ممارساتنا وتوجهاتنا ومواقفنا. فلم نعد نمارس حياتنا بصورة صحيحة وجادة، ولم يكن لنا توجهات بناءة فى معالجة مشاكلنا الحياتية، ولم نتخذ مواقف جادة من قضايانا المعاصرة، فطالما العقل يخاف فإنه لا يفكر.

العقل يعنى احترام الشخصية الإنسانية، فلا يوجد تمييز بين إنسان وآخر من جهة اللون أو الجنس أو الدين أو العقيدة أو المذهب، إذ أن العقل السليم يحمى الإنسان من روح القبيلة والتعصب والتمركز حول الذات، فالعقل المستنير يرفض التخلف والجمود والتحجر والتعصب والانغلاق والعنصرية ورفض الآخر.

والعقل غير المستنير - كما تؤكده كتابات راحلنا الفاضل - يحول الحقيقة النسبية إلى مطلقة، ذلك الذى يقود إلى

التعصب البغيض، فالعقل هو الحرية والعدل والمساواة والكرامة والإبداع والاستقلال والتطور والتقدم ومحاربة الفساد والطغيان والاستبداد، العقل هو الشجاعة وتحمل المسئولية ومواجهة الخطأ بالتفكير العلمى المستنير ومعالجة السلبيات بشجاعة.

لذلك نجد د. فؤاد زكريا فى كتابه الرائع «التفكير العلمى» يفرق بين الأسطورة والخرافة، فالتفكير الأسطورى هو تفكير العصور التى لم يكن العلم قد ظهر فيها بعد، أما التفكير الخرافى فهو التفكير الذى يقوم على إنكار العلم ورفض مناهجه، كما أن الأسطورة تقدم لنا تفسيرا متكاملا للعالم أو المجموعة من ظواهره، بينما تتعلق الخرافة بظاهرة أو بحادثة واحدة. وهنا يؤكد راحلنا الفاضل أنه فى كثير من الأحيان أن اللفظين يستخدمان بمعنى واحد أو بمعنيين متقاربين.

من هنا نجد أن د. فؤاد زكريا كان فكره فى مجمله يأتى تكريسا لاحترام العقل

أ.د. عبدالمنعم
المفكر العلمى
مستشار

العقل يعنى احترام الشخصية الإنسانية، فلا يوجد تمييز بين إنسان وآخر من جهة اللون أو الجنس أو الدين أو العقيدة أو المذهب

ونبذه لكل فكر خرافى، لذلك كان يرفض بشدة ويقاوم كل نزعات التعصب والعنصرية.

كما أنه يرى أن نظامنا التعليمى قد أهان العقل البشرى وحوله إلى مجرد مستودع للمعلومات، وباستخدام الطريقة التقليدية فى التعليم فإن قيمة التعليم والبحث العلمى قد تدنت إلى أقل المستويات، فلم يعد خريج الجامعة قادرا على تناول القضايا اليومية بعقلانية وشجاعة، ولم يعد قادرا على التمييز بين الخطأ والصواب، أو بين الحق والباطل، أو حتى بين النافع والضار.

لقد كان راحلنا الفاضل صاحب العقل المتحرر واضحا جدا فيما يكتبه دون متاجرة أو مزايدة، فطريق العقل وحده إما أن نكون معه أو نكون ضده، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

رحم الله الفيلسوف الحر والمتحرر د. فؤاد زكريا، الذى تحرر من سجن الجسد وانط

■ رجائى عطية

الواقع أو الحقيقة «٣»

Realiy من كتاب "طبيعة العالم المادى"

للسير آرثر ستانلى ادينجتون

يواصل السير آرثر ستانلى إدينجتون حديثه عن السببية causation أو العلية causality ، فيقول : ربما يبدو أن الفيزياء تلقى بثقلها كله فى جانب الحتم وضد الاختيار فى الصراع القديم بين الحتم المسبق وبين الاختيار الحر .. وأن القانون الطبيعى يتعاطف مع فكرة أن المستقبل - كائنا ما يكون هذا المستقبل - مكتوب أو مخطط مقدما فى التكوينات التى مضت .. أو كما قال عمر الخيام فى رباعياته ترجمة فتزجرالد :

«أول صباح للوجود ، قد سطر ما سوف يقرؤه الفجر الأخير ليوم الحساب» .

«مكتف أرى ما لايقبله التصديق - أن يكون التخطيط الأوسع للطبيعة، الشامل للحياة وللوعى - محددا تحديدا تاما من قبل» .

ومع ذلك فلست قادرا على أن أتصور أى قانون - تصورا مرضياً - أيا كان نوع ذلك القانون ، دون أن يكون ملزما حتمى النزعة . وإذا كان يتنافى مع شعورنا بكرامة العقل، أن نفترض أن مهمته مقصورة على تسجيل تتابع مقدر من الأفكار والعواطف، فإنه يتنافى أيضا مع كرامة العقل وبنفس النسبة - أن يكون العقل تحت رحمة وهوى النزعات والأهواء ، والدوافع غير القابلة للتعليل ولا التسبيب .

لست قادرا على أن أتصور أى قانون - تصورا مرضياً - أيا كان نوع ذلك القانون دون أن يكون ملزما حتمى النزعة

السير آرثر ستانلى إدينجتون

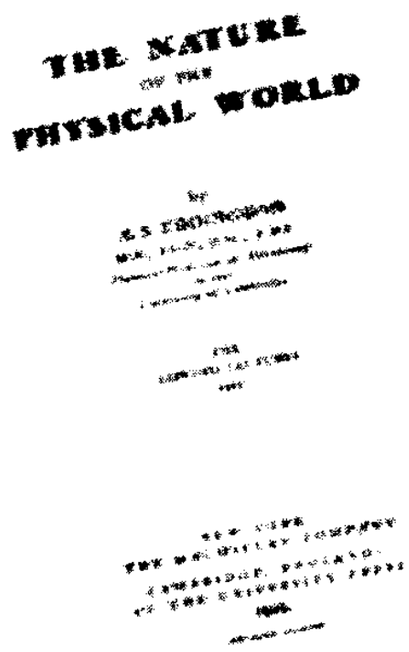

هنا علىّ أن أبيّن موقف علم الفيزياء فى هذه المسألة ، حينما تدخل هذه المسألة فى أرضه وضمن اختصاصه .. وهى تدخل فى أرضه واختصاصه لأن ما نسميه بالإرادة البشرية شىء لا يمكن فصله فصلا تاما عن حركات العضلات التى تعقبه ، وعن الاضطراب الذى يحدثه فى العالم المادى ، إذ أنه يبرز موقفا جديدا من وجهة نظر العلم .

وبسبب النظرية الكمية ، لم تعد الفيزياء رهنا بتخطيط وتطبيق قانون ذى نزعة حتمية ، بل قد استبعدت الحتمية كلية من صيغ الفيزياء النظرية ، أو بالأقل أصبح من المشكوك فيه – أن ترجع بعد ذلك الاستبعاد .

هذه الفقرة أخذتها من مسودة محاضرة كنت قد ألقيتها فى أدنبرة . حين كانت الفيزياء إذ ذاك فى موقف عدم المبالاة بالحتم والحتمية .. ولو كان هناك مخطط لقانون سببى دقيق ، موجود وراء الظواهر وفى أساسها ، فإن البحث عنه لم يعد هدفا حاضرا للفيزياء التى اتجهت إلى هدف مثالى آخر مختلف .

لم يعد الأساس العلى يلتفت إليه فى النظريات الحديثة ، وهذا واقع معروف ، أسف له كثيرون يرون ضرورة العودة إليه – كتب آينشتين بمناسبة العيد المئوى لنيوتن :

«إن طريقة نيوتن لم تعد كافية فى نظرية الكم وحدها، فإن السببية الدقيقة قد خذلتنا حقا، لكن الكلمة الأخيرة فى هذا الباب لم تقل بعد . ولعل روح الطريقة التى اتبعها نيوتن تعطينا القوة لإعادة الانسجام بين الواقع الفيزيائى وبين الخاصية الأكثر عمقا فى تعاليم نيوتن وهى السببية الدقيقة» .

وعندما أعدت كتابة هذا الفصل بعد سنة من ذلك التاريخ، وجدتنى ملزما بأن أمزج هذا الموقف غير المبالى – بموقف أكثر عداء للحتمية نتيجة قبول دوائى العلم لمبدأ عدم التحديد Principql of in-determinancy ، ولم يتح لى من الوقت إلا ما يكفى لأن أقوم بفحص عاجل للنتائج البعيدة الأثر لهذا المبدأ .

والمستقبل مزيج من التأثيرات السببية للماضى ، مع تأثيرات عناصر أخرى غير قابلة للتنبؤ بها. وذلك ليس مرجعه أن تلك العناصر يستحيل عمليا الحصول على المعطيات التى يمكن استعمالها فى التنبؤ بها ، ولكن مرجع أنه لا توجد معطيات بينها وبين خبراتناروابط علية أوسببية . يتعين تبرير هذا التغير الشديد فى الرأى – بشىء من التفصيل، ولكن من حقنا أن نلاحظ أن العلم قد سحب معارضته الأدبية ، ضد الاختيار الحر ، أما من يتمسكون بنظرية ذات نزعة حتمية للنشاط العقلى ، فهؤلاء عليهم أن يقيموا نظرتهم على أساس من دراستهم هم للعقل نفسه ، وليس على أكتاف الاستعانة بالخبرة بقوانين الطبيعة غير العضوية التى تقدمها لهم الفيزياء .

السببية واتجاه الزمان

يرتبط السبب والنتيجة ارتباطا وثيقا باتجاه الزمن ، فيجب أن يسبق السبب النتيجة . ونسبية الزمن لم تمح هذا الترتيب ، فالحدث الذى يقع الآن هنا ، لا يكون سببا إلا لأحداث تقع فى مخروط المستقبل المطلق ، ولا يكون نتيجة إلا لأحداث وقعت فى مخروط الماضى المطلق ، ولا يمكن أن يكون سببا أو نتيجة لحدث وقع فى الخط المحايد الذى يلتحم عنده مخروط المستقبل بمخروط الماضي، وإلا لوجب أن ينتقل التأثير بسرعة تتجاوز سرعة الضوء .

ومن الغريب أن فكرة السبب والنتيجة ، لا تتفق هى نفسها مع أى ترتيب – علّى دقيق .. إذ كيف أستطيع أن أتسبب فى إحداث حدث يقع فى المستقبل المطلق إذا كان هذا المستقبل نفسه معيناً مقدراً ومرسوماً من قبل أن أولد . من الواضح أن تلك الفكرة تنطوى على أن شيئا يولد أو ينشأ فى الوجود هنا فى اللحظة الراهنة، له تأثير يمتد فى مخروط المستقبل بلا وصلة مماثلة فى الماضى المطلق .

والقوانين الفيزيائية لا تسمح بهذا الالتحام من جهة واحدة فحسب .. لأن أى تغيير فى وضع معين موجود فى الكون ، يتضمن تغييرات فى حالته الماضية، مقابلة للتغييرات التى تطرأ فى حالته المستقبلة .

وفى أوليات الفيزياء حيث لا مكان ولا حساب لاتجاه الزمن، لا يمكن أن يوجد تمييز بين السبب وبين النتيجة . وإنما تترابط الأحداث برابطة مبناها التقابل والتماثل ، بحيث يمكن رؤية هذا الترابط بلا أدنى اختلاف – من أى طرف فيه.

فأوليات الفيزياء تفترض نظاما دقيقا

للقربى تكون فيه العليّة – عليّة تقابل وتماثل ، وليست علاقة اتجاه واحد تربط بين سبب ونتيجة . أما القوانين الثانوية فى الفيزياء فقد تميز بين السبب والنتيجة ، لكنها لا تؤسس هذا التمييز على نظام سببى ، ولا يهمها أن تتحقق السببية الدقيقة أو لا تتحقق .

فالرافعة فى كشك الإشارات تحرك فتسقط الإشارة، وفى الإمكان تعيين علاقة الحتم التى تجمع بين مواضع الرافعة وبين الإشارة ، ويمكن أن نكتشف أن الحركات لا تحدث معا ولا فى نفس الزمن ، وأن نحسب اختلاف زمن حدوثها .. ولا تضع قوانين الميكانيكا إشارة مطلقة لاختلاف الزمن هذا، لأنها تنظر إلى أن سقوط الإشارة يتسبب هو أيضا فى حركة الرافعة! ولتحديد أى منهما هو السبب ، أمامنا اختياران ، إما أن نسأل عامل الكشك وهو متأكد أنه هو الذى قرر شد الرافعة، وهذا يقتضى أن يكون هناك قرار حقيقى واختيار تم بين سلوكين ممكنين ، وليس مجرد تسجيل فكرة مقررة ومرتبة من قبل ، وإما أن نلجأ إلى قانون من القوانين التأكدية ، يراعى ويحسب حساب وجود قدر من العشوائية فى الكون عند إسقاط الإشارة أكثر مما يفعل حين تتحرك الرافعة . مثل هذا القانون يتميز بأنه يتجاهل السببية الدقيقة ولا يهتم بما يتحتم أن يحدث ، وإنما يهتم فقط بما يمكن أو يجوز أن يحدث . فالتمييز بين السبب والنتيجة لا معنى له فى النظام المغلق الذى تتصوره القوانين الأولى للفيزياء .. ولنصل إلى هذا التمييز ، يجب أن نقحم فى هذا النظام المغلق اعتبارات متعلقة بالإرادة والاحتمال ، وهى اعتبارات غريبة على ذلك النظام المغلق .

ومن باب الرغبة فى التيسير ، سأطلق على العلاقة بين السبب والنتيجة كلمة السببية causation وعلى العلاقة التى لا تميز بين السبب والنتيجة كلمة العلية causality .. وقد حلت العلية causal-ity فى فيزياء المبادئ الأولى – محل السببية تماما .. فالكون كله ماضيه ومستقبله – موصول مترابط فكريا فى نظام حتمى بصلات وروابط علية . وإلى وقت قريب جدا كان الاعتقاد السائد أن هذا النظام متعين الوجود – مالم يعترض سيره تدخل عوالم غيبية أو إلهية تخرج عن نطاق الفيزياء – .. وإننا لا نعرف من تركيب هذا النظام – إلا جانبا منه فقط ، وأن هدف الفيزياء المقرر – هو اكتشاف كل جوانب تركيب النظام .

وإحلال العلية محل السببية فى النظر العلمى السائد شىء هام .. من جهة أنه لا يسمح لنا فقط أن نعبر العلية التى تستند إلى الحدس – حدث السببية وحتمية السببية . فنظن أننا بفطرتنا نستبعد أن يكون للسبب الواحد نتيجتان تبادليتان ينفى وجود إحداهما وجود الأخرى .. وذلك بالرغم من أننا لا نستبعد بالفطرة أن تحدث نفس النتيجة من سببين ينفى وجود أحدهما وجود الآخر .

لهذا لا يمكن افتراض قيام حتمية لازمة لا مناص منها على أساس روابط

علية تستند إلى الفطرة والحدس.

لكن ماهو أساس ذلك الإيمان الشديد السائد بأن الظاهرة الفيزيائية ترد فى النهاية إلى نظام يتألف من قوانين ذات نمط حتمى كامل الحتمية ؟ أعتقد أن مرجع ذلك أمران : الأول أن ما اكتشف من القوانين الأساسية للطبيعة – بدا متسما بهذا النمط الحتمى ، وتلك القوانين هى التى حققت للفيزياء انتصاراتها العظيمة فى ميدان التنبؤ والتوقع . ومن المألوف أن نثق فى خط فكرى حقق كل هذا القدر من النجاح .. ثم من الفطنة أن نفترض عدم وجود شىء يمكن أن يتجاوز فى الطبيعة نطاق التنبؤ العلمى إلى أن نتبين وجود حدود لهذا التنبؤ ، أو تكشف لنا هذه الحدود عن نفسها بالفعل – الأمر الثانى أن الايستمولوجية العلمية الجارية نفسها تفترض نظاما له هذا النمط الحتمى . وتغيير تلك الايستمولوجية يستدعى تغييرا أشد عمقاً فى موقفنا من المعارف الطبيعية .. نتجاوز فيه مجرد التخلى عن فروض أصبحت غير قابلة للتمسك بها والإبقاء عليها .

ولتوضيح هذا الأمر الثانى ، يجب أن نتذكر أن معرفتنا للكون الطبيعى مستخلصة ومستمدة من الرسائل العصبية التى تصل إلى مخ الآدمى .. والايستمولوجية السائدة تفترض وجود نظام للاستخلاص المشار إليه – ذى طابع حتمى (يبدو لنا على هيئة صورة تتكشف وتتضح بالتدريج) – لكن سلاسل الاستخلاص ليست إلا قسيم سلاسل العلية الفيزيائية، حصل عن طريقها توصيل الأحداث البعيدة – فحملتها الرسائل العصبية . فإذا كان نظام إرسال تلك الرسائل الموجود فى العالم الخارجى – غير ذى نمط حتمى ، فيستحيل أن نجد النمط الحتمى فى نظام الاستخلاص المتعلق بتلك الرسائل .. فالايستمولوجية المتداولة بيننا – قائمة على مثال يستحيل التحقيق . ولذا يجب أن يتغير موقفنا تجاه نظام المعارف الطبيعية بحذافيره تغيرا أساسيا .. وسنعود إلى تفصيل ذلك كله فيما بعد . ولكننا نعلق بإيجاز على النقطتين السالفتى الذكر بما يأتى :

(١) أن العصر الحديث – أحرز انتصارات باهرة فى مجال التنبؤ الفيزيائى عن طريق القوانين الإحصائية التى لا تعتمد على السببية . وقد اتضح من الفحص الدقيق أن القوانين العظيمة المعتقد أنها قائمة على أساس السببية الحتمية كلها قوانين ذات طابع إحصائى .

(٢) أنه سواء وجد أو لم يوجد نظام من السببية وراء الظواهر الذرية – فالنظرية الذرية الحديثة لا تحاول الآن العثور على ذلك النظام وهذه النظرية تتقدم تقدما سريعا بفضل أنها لم تعد تجعل البحث عن ذلك النظام من أهدافها .. فنحن نتمسك بتلك الايستمولوجية المتعلقة بالمعارف الطبيعية،

رغم أنها لم تعد تتفق مع الهدف الفعلى للأبحاث العلمية الجارية .

قابلية الأحداث للتوقع

لنفحص مثالا لحالة نمطية من حالات التنبؤ العلمى الناجح : حالة كسوف كلى للشمس قابلة للمشاهدة فى كورنوول فى ١٩٩٩/٨/١١ . المفروض بوجه عام أن هذا الكسوف سيحدث لأنى أتوقع أنه سيحدث – والتنبؤ بحدوثه مبنى على كونه نتيجة أو أثراً من نتائج وآثار قانون الجاذبية، وهو قانون بينا فى الفصل السابع من هذا الكتاب أنه من قبيل تحصيل الحاصل.. على أن هذا لا ينتقص من قيمة التنبؤ، لكنه لا يعطينا حقا فى أن ندعى مكانة الإنباء حينما نواجه قوانين أخرى ليست من باب تحصيل الحاصل.. وقد أقول أن ٢ + ٢ ستساوى ٤ فى ١٩٩٩ ، ولكن صحة قولى هذا لا تصلح لإقناع أحد بأن الكون أو العقل البشرى محكوم بقوانين ذات طابع حتمى.. إذ مهما يكن حظ الكون من العشوائية، فإن من الممكن دائما التنبؤ فيه بشىء مادام تحصيل الحاصل غير مستبعد !

إذا نظرنا إلى قانون الجاذبية من وجهة النظر الكونية الفلكية، نجد أنه من قبيل تحصيل الحاصل ، لأنه يفترض المكان ويفترض القياس بواسطة مادة كبيرة أو بتركيبات بصرية. ولأنه لا يستطيع أن يبلغ فى الدقة إلى ما يتجاوز هذه التركيبات الكبيرة.. فهو تحصيل حاصل حيث يكون هامش الخطأ صغيرا .. لأن صحته لا تتأثر بهذا الخطأ الصغير ، وأما حيث يكون الخطأ صغيرا جدا فلا عمل له البتة . فالقوانين الكلاسيكية صحيحة فقط فى مجالات الأعداد الكبيرة جدا من حيث الكم ، والنظام الشامل للشمس والأرض والقمر مجال لأعداد كبيرة جدا من الكم، والتنبؤ بتشكيلاته لا يمثل الخصائص الطبيعية لعموم الظواهر، بل يقتصر فقط على خواص الظواهر التى تشمل أعداد ضخمة من الذرات، ولايلتفت فيها إلى أى سلوك فردى وإنما يلتفت إلى السلوك الجماعى فى المتوسط .

ومع أن الحياة البشرية غير مقطوع بمداها ، فإن يسار ونجاح شركات التأمين من أكثر الأشياء وكادة . وقانون المتوسطات محل ثقة منا ، إلى درجة يمكن معها القول بأن نصف من يولد اليوم سيعيش حتى يبلغ كذا من العمر . ولكن هذا لا يدلنا بحال أن أمد حياة الطفل المعين (أ) – مسطور فى كتاب القدر . أو أنه من الممكن تغيير أمد حياته بتعليمه ألا يجرى أمام السيارات . وكسوف ١٩٩٩ مأمون بنفس درجة أمان ميزانية شركة التأمين على الحياة . لكن القفزة التالية لأى ذرة من الوجهة الكمية شىء غير مؤكد شأنها فى ذلك شأن حياتى وحياتك.

هكذا نكون فى موقف نستطيع معه الرد على الحجة الأساسية لمن يدعون أن المستقبل له خط حتمى، بمقولة إن ملاحظة قوانين الطبيعة تدل على أنها من نمط يؤدى إلى تنبؤات معينة عن المستقبل ، وأنه من المعقول أن نتوقع بالنسبة للقوانين التى لم يتم اكتشافها بعد – أن تكون من

ذات النمط .

إننا إن سألنا ماهى خصائص الظواهر التى تم التنبؤ بها بنجاح، وجدنا أنها عبارة عن نتائج وآثار مبنية على متوسطات الصور والأشكال لعدد هائل من الوحدات الفردية.. والمتوسطات قابلة للتنبؤ بها - لكونها متوسطات بغض النظر عن نمط الحكم الذى يحكم الظواهر الحادثة خلف تلك المتوسطات .

تصور ذرة وحدها فى العالم . تجد صاحب النظرية الكلاسيكية يسأل وهى فى الموضع الثالث - ما الذى تصنعه الذرة بعد ذلك ، ويتمنى أن يجد إجابة على سؤاله . أما نظرية الكم فتستبدل سؤالا آخر بهذا السؤال - هو أى الأمرين تصنع بعد ذلك؟ إذ ليس أمام الذرة إلا وضعان اثنان يمكنها أن تذهب لواحد منهما .. لا تحاول النظرية بعد ذلك الوصول إلى أية إجابة محددة . بل تضع بحساب الاحتمالات المتعلقة بالقفز إلى الوضع الأول أو إلى الوضع الثانى ولا تزود نظرية الكم هذه الذرة بضوابط توجه سلوكها المستقبل كما يفعل الفيزيائى الكلاسيكى الذى يقوم بمثل دور الممرن للجواد المتسابق!!

ففى تركيب العالم حسب النظرية الكمية الجديدة ، يمكن أن يتوقع أنه من بين ٥٠٠ ذرة موجودة الآن فى الوضع الثالث - ٤٠٠ منها تقريبا قد يذهب إلى الوضع الثانى ، و١٠٠ تذهب إلى الوضع الأول .. وذلك بقدر ما يمكن أن يقال عن شىء معرض للتقلبات إنه قابل للتوقع والتحديد المسبق. فهناك شىء بنسبة ٤ :

١ - ماثل فى كل ذرة من الذرات الخمسمائة، ولكن بلا علامات ظاهرة أو موجودة تميز الذرات التى من مجموعة المائة عن تلك التى من مجموعة الأربعمائة

وإذا كان معظم الفيزيائيين يعتقدون أن مثل تلك العلاقات موجودة فى الطبيعة .. وليس بلازم أن توجد فى نفس الذرة ، بل قد توجد فى المحيط الذى يتبادل مع الذرة الفعل ورد الفعل ، كما لو زيف نرد الطاولة (الزهر) بحيث يظهر فيه العدد ٦ بنسبة ٤ : ١ فى كل رمية .. ففى تركيب وجوه الزهر كلها يوجد ذلك الاحتمال نتيجة انحراف فى مراكز الثقل عمل خصيصا لهذا الفرض، ولا توجد فى الزهر ذاته علامة معينة على ذلك الانحراف الذى هو مع ذلك نتيجة سببية .. حددتها وعينتها مؤثرات خارجية معينة عند التزييف ! وموقفى فى هذه المرحلة: هو موقف من يرى أن التطورات المستقبلة قد تكشف عن مثل تلك العلامات الغيبية فى الذرات نفسها أو فى خارجها وقد لا تكشف عن شىء من ذلك بتاتاً .

علما بأننا كلما تصورنا العثور على علامات تشهد للسببية فى ظواهر الطبيعة ، يتبين عند الفحص أنها علامات خارجية ، وأن كل حتمية هى حتمية ظاهرية فقط جاءت لنا عن طريق آخر خلاف طريق الظاهرة . الأمر الذى يجعلنى أميل إلى

تفضيل احتمال عدم وجود علامات على السببية فى أى مكان !!

ربما قيل إنه لايتصور أن تتوازن ذرة بهذه الدرجة من التساوى بين مسارين بحيث لا يوجد فى العالم كله أثر لعامل يرجح مسارا على مسار . هذا احتكام إلى الفطنة أو الفطرة يرد عليه باحتكام مثله إلى الفطنة أو الفطرة . لا يوجد فى العالم كله ما يرجح مقدما ما إذا كنت سأرفع يدى اليمنى أو يدى اليسرى . إذ الأمر يتوقف غالبا على تحول إرادى صرف لا قيد عليه وليس مقررا من قبل وليس له بوادر ومقدمات تسبقه ، غير شعورى الفطرى أو المبنى على الحدس ، أن المستقبل يمكن أن يحمل عوامل جديدة موجودة فى الماضى بصورة خفية .

خلاصة الموقف أن القوانين التى تحكم العناصر الدقيقة جدا فى العالم الطبيعى ، أى آحاد الذرات والالكترونات والكمات - لا تسمح بإجراء تنبؤات معينة محددة عما سيأتيه الفرد فى اللحظة التالية . ولا ينصرف حديثى هنا إلا إلى القوانين التى تم اكتشافها وصياغتها على أساس النظرية الكمية القديمة أو الجديدة. تلك القوانين تشير فقط إلى عدة إمكانات فى المستقبل ، وتبين الاحتمالات التى فى جانب كل منها ، وهذه الاحتمالات بصفة عامة متوازنة بدرجة معقولة لا تكفى لإغراء متنبئ ذى طموح .

لكن الاحتمالات القصيرة فى سلوك الأفراد كأفراد ، تتضافر لتكون احتمالات طويلة المدى جدا فى الإحصائيات المنتقاة لعدد كبير من الأفراد - والمتنبئ الحصيف يجد فى هذا النوع تنبؤات يمكنه أن يقوم بها دون أن يعرض الثقة فيه لأى خطر جدى . وكل التنبؤات الناجحة حتى الآن المعزوة إلى السببية الحتمية يمكن ردها إلى هذا النوع (الإحصائى).

أقول هذا رغم أنه ليس بين قوانين الكم وبين السببية تضاد . لكن قوانين الكم تتجاهل تلك السببية ولا تلتفت إليها . وإذا انتفعنا بهذا التجاهل لأبعاد السببية والحتمية - كأساس فى تركيب الكون - نفعل ذلك لأن فلسفتنا تهيئنا لهذا الاتجاه . وليس لأننا لدينا على هذا الاتجاه برهان تجريبى يشهد لمصلحته .

وهنا نذكر على سبيل التوضيح والمقارنة مذهب القضاء والقدر . وهو مذهب مهما قيل ضده - مازال حتى اليوم ممتزجا بالحتمية . لكن إذا لجأنا إلى التصوير الجديد فى القانون الفيزيائى ، لأجبنا على هذا الإشكال عن طريق القياس بأن الفرد ليس مقضيا عليه وليس مقدرا عليه أن يصير إلى واحد بعينه من الوضعين اللذين يمكن أن يعثر فيهما بالوضع رقم (١) أو الوضع رقم(٢). وأقصى ما يمكن اعتباره مقررا فعلا هو احتمالات وصوله إلى كل من هذين الوضعين .

■ السيد الخولى

تغريب اللغة وأزمة الهوية

يعطى مصطلح التغريب دلالتين : الأولى بمعنى تبنى قيم الحضارة الغربية ، والثانية بمعنى الاغتراب والنأى عن الأوطان ، وكلتا الدلالتين تعبران بصدق عن أزمة اللغة العربية فى وقتنا الراهن ، وهى أزمة تنعكس بالضرورة على هويتنا الوطنية ، وفى هذا الصدد لا نريد أن نتبنى نظرية المؤامرة وندعى أن ما تتعرض له اللغة العربية حاليا من هجوم شرس وتجريف مستمر هو بفعل قوى خارجية ، وإن كانت هذه القوى تجد فيما يحدث للغتنا ما يتفق وأهدافها من محو الهوية الوطنية وتفكيك المجتمع ، فما يصيب هذه اللغة من تغريب وتقويض وإقصاء تبنيناه بأنفسنا وأسهمنا فى تعميقه سواء بوعى أو بدون وعى، وهو دليل ومؤشر على عصر من الاضمحلال الثقافى نجد له سوابق فى تاريخنا ، ومن يرجع إلى أدبيات الفترة التي سبقت عصر محمد على فسيجد الشواهد الكثيرة على تدنى اللغة العربية فى مناخ من الانحطاط الثقافى وافتقاد هوية أصيلة وذلك قبل انبعاث النهضة الفكرية الحديثة على يد رجال مثل رفاعة الطهطاوى والإمام محمد عبده .

وسائل الإعلام القومية والمستقلة شاركت دون استثناء فى تجريف اللغة العربية سواء استجابة لاحتياجات السوق أو استسلاماً لأمر واقع

وقد وجد فصيل من مجتمعنا فى أجواء تردى اللغة العربية والضمور الثقافى الذى نعيشه فرصة مواتية للترويج لهويات ضيقة ومبتسرة مثل الفرعونية والمصرية وربما غيرهما ، وهم بذلك ينفذون ما عجز الاستعمار عن تنفيذه فى بلادنا ، ولايمكن فى هذا السياق تبرئة مؤسسات ثقافية مثل مجمع اللغة العربية واتحاد الكتاب ووزارات الثقافة والإعلام والتعليم بعد أن ترك واجب الدفاع عن اللغة لحفنة من المثقفين الشرفاء وإن لم تجمعهم حملة قومية شاملة . والخشية أن يجيء زمان تصبح فيه العودة إلى الأدب العربى القديم خاصة الشعر الجاهلى ضربا من فك الطلاسم وحل الرموز ،

■ كاتب ودبلوماسى

مجمع اللغة العربية

رغم أن هذا الشعر كان مجال التميز فى الثقافة العربية فيما قبل الإسلام حتى قيل بحق إن الشعر هو ديوان العرب أى سجلهم ووثيقة وجودهم ووعاء تاريخهم .

وقد يفيد أن ندرس تجارب الآخرين الذين حاولوا استبدال هوية بهوية ، وأقرب مثال أمام أعيننا هو المثال التركى ، فسعيا لتبنى الهوية الأوروبية والاندماج فى الحضارة الغربية انسلخت تركيا من هويتها الحقيقية التى تمتد شرقا حتى تخوم الصين ، ولكنها بعد نيف وسبعين عاما من السعى إلى حد تغيير الأبجدية التركية من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية وجدت الباب الأوروبى موصدا ، وهى الآن تعود أدراجها لتبنى جسورها التى احترقت مع الشعوب التركية فى جمهوريات وسط آسيا ولتعود أيضا بحكم روابط التاريخ للانفتاح على العالم العربى .

وقد كان المفترض شأن الحضارات الراسخة أن يواصل البناء الثقافى المصرى ارتفاعه وسموه واتساعه بعد أن وضعت لبناته القوية خلال النصف الأول من القرن العشرين ، ولكننا بدلاً من ذلك بدأنا نعانى فى نهايات القرن مايمكن وصفه بالانحسار الثقافى والعودة إلى نوع من الإقليمية الفكرية ، وهناك عوامل كثيرة ساهمت فى هذا الانحسار لا مجال هنا لرصدها ، إلا أن تدنى مستوى اللغة العربية وفقدانها رصانتها كان أهم هذه العوامل ، وبدلاً من استلهامها كأحد أهم روابط الهوية حدث تراجع إلى نوع من القبلية اللغوية قد يؤدى فى المستقبل المنظور إلى نوع من التفسخ المجتمعى .

وفى تأصيل هذه الأزمة وتداعياتها ، لايمكن إغفال أثر العامل الخارجى متمثلا فى ظاهرة العولمة وما أفرزته من قيم قد لا تتوافق بالضرورة مع قيم مجتمعنا ، وهو ماتزامن مع نشوء طبقة جديدة على أرضنا أفرزتها سياسات الانفتاح الاقتصادى وتبنى اقتصاديات السوق ، وهى طبقة لاتنتمى إلى الطبقة العليا بانتمائها القوى للأرض بغض النظر عن ولاءاتها السياسية ولا إلى الطبقة المتوسطة ودورها المؤثر كقاطرة للتنمية ، وإنما هى طبقة مستحدثة نشأت سريعا استجابة لهذه السياسات الاقتصادية وانخرطت فى أنشطة العائد السريع مثل السمسرة والمضاربة والاقتصاديات الموازية «اقتصاد السوق السوداء» واستطاعت فى فترة وجيزة مراكمة ثروات طائلة دون أن يكون لها تقاليد راسخة أو منظومة من القيم غير الفاسدة تضبط أداءها ، وقد وجدت هذه الطبقة فى العولمة نظاما يحقق مبتغاها من العوائد السريعة مثل الوكالة لأنشطة خدمية والمشاريع الاستهلاكية بعد أن فتح باب الاستيراد دون قيود وهى عمليات لاتضيف إلى التراكم الرأسمالى وبالتالى تظل مرتبطة وخاضعة للمراكز الخارجية .

ولأن هذه الطبقة المستحدثة قد سعت للحصول على نوع من الشرعية الاجتماعية ولما لم يكن بمقدورها الالتزام المطلق بمصالح الأمة بحكم تبعية مصالحها للخارج فقد كان عليها أن تفرض قيمها

باستخدام ثروتها ، وهى قيم تتسم فى الأغلب بالفجاجة والعشوائية والانتهازية ومن ثم ازدراء ماهو أصيل ومتجذر فى تراب الوطن ، وكمكون أساسى لهذه الشرعية كان على هذه الطبقة البحث عن هوية تنتمى إليها ، وقد وجدت ضالتها فى استحقاقات العولمة وسعيها لخلق «مواطن عالمى» ينتمى إلى القرية الكونية الموحدة دون أن تعيق حركته قيم قومية أو أعراف محلية بما فى ذلك اللغة ، واستتبع ذلك أن يتحدث المواطن العالمى لغة جديدة ومفردات مستحدثة تمكنه من التواصل مع مراكز العولمة والحصول على مغانمها . وكان من الضرورى والحال كذلك استيراد نظم تعليم تستجيب لهذه الاحتياجات الجديدة، وقد توافق هذا المطلب مع تدهور شديد القسوة أصاب منظومة التعليم القومى وتدهور أشد أصاب تعليم وتدريس اللغة العربية بوجه خاص بعد أن وصمها أنصار العولمة بأنها لغة لاتستجيب لاحتياجات العصر ، وبذلك أصبح لدينا نظامان أو أكثر للتعليم ولأن نظم التعليم المستوردة باهظة التكلفة فقد اقتصرت على أبناء الصفوة فقط ويتم التدريس فيها باللغة الأجنبية ، وترك التعليم العام لسواد الشعب بكل أسباب القصور والتردى ، واستجابة أيضا لاحتياجات الصفوة بدأ المشروع الرأسمالى فى تسويق التعليم باعتباره سلعة الهدف من ترويجها هو الربح فقط ، وسارعت جامعات خاصة وأجنبية للحصول على نصيب من الكعكة ، فأصبح لدينا خليط من جامعات ذات جنسيات شتى ، بل إن الجامعة المصرية بحثا عن وسائل للتمويل الذاتى افتتحت فى عدد من كلياتها أقساما يجرى التدريس فيها بلغات أجنبية .

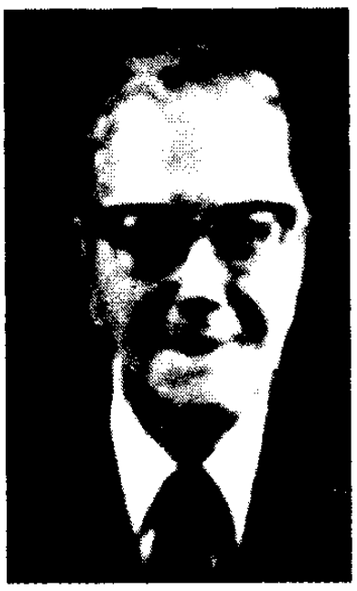

د. محمود حافظ
رئيس مجمع اللغة العربية

مكرم محمد أحمد
نقيب الصحفيين

ولا يوجد عاقل يعترض على تعلم اللغة الأجنبية بل هو أقرب إلى الواجب والفرض ، ولكن بشرط أن يكون ذلك ضمن منظومة تعليمية موحدة ، لأن مايحدث هو خلق ثقافتين متباينتين أو بمعنى أدق خلق مجتمعين منفصلين ومتباعدين وهو ما تسميه علوم التنمية بالاستقطاب، وبالتالى أصبح لدينا مجتمع «الصفوة» بثقافته الأجنبية ومجتمع «الأهالى» بثقافته المحلية . وأى نظرة إلى مناهج الشهادات الأجنبية التي تبنيناها سنجد أنها لم تتضمن كشرط للحصول عليها أدنى معرفة باللغة العربية «اللغة الأم» وأقصى ما فعلته وزارة التعليم هو إضافة بعض المواد باللغة العربية إلى مناهج هذه الشهادات – فى مرحلة ما قبل الجامعة – ولكن دون أن يشكل النجاح فيها إضافة لمجموع الطالب الذى يسوغ التحاقه بالجامعة ،

وبذلك استقر فى يقين الطلاب وأولياء أمورهم عدم أهمية هذه المواد ولا اللغة العربية فى تكوينهم العلمى ، واستتبع ذلك استصغار شأن اللغة العربية والنظر بشىء من الدونية إلى المتعاملين بها.

ولم يتوقف تجريف اللغة العربية عند منظومة التعليم ، بل تعداها إلى أغلب الأنشطة الاقتصادية حيث أصبح التعامل فيها فقط باللغة الأجنبية مثل البنوك الاستثمارية والشركات الخاصة الكبرى نظرا لارتباطها العضوى بمراكز العولمة . وهو ما يجعل احتياجات هذه الأنشطة من سوق العمل مقصورة على أصحاب الشهادات الأجنبية ومستبعدة الشهادات المحلية ، وفى ذلك مزيد من توسيع الفجوة بين مجتمعين وخلق هويات تابعة لاتنتمى إلى الأرض التى غذتها . واستعراضا للهويات الوافدة فقد أصبح من علامات الرقى والسمو التخاطب بلغات أجنبية فى النوادى والتجمعات والأنشطة الاجتماعية وأغلب الأنشطة الخدمية .

وبطبيعة الأمور فإن اقتصاديات السوق تستجيب بداهة لأذواق وقيم واحتياجات أكثر شرائح المجتمع قدرة على الاستهلاك وفى حالتنا فهى الطبقة المستحدثة ، ولأن حواس هذه الطبقة لم يجر بعد تهذيبها وتنقيتها من الشوائب حتى تنتقل إلى الطبقة العليا – وهو ما قد يستغرق أجيالا – ولضمان سرعة الاستجابة والاستيعاب فقد جرى استحداث لغة خاصة للتخاطب معها، لغة تصلح فقط للترويج السلعى ولكنها لا تصلح كوعاء ثقافى ، وكانت المبررات جاهزة مثل الرغبة فى التبسيط والتواصل مع أجيال شابة ، وقد استخدمت هذه اللغة بداية على استحياء ثم جرى تكثيفها والإصرار عليها خاصة فى صناعة الإعلان حيث استخدمت مفردات عامية مسفة ولم يسلم من ذلك إعلانات مؤسسات عريقة مثل البنوك الوطنية .

والمؤسف فى هذا السياق أن وسائل الإعلام القومية والمستقلة شاركت دون استثناء فى تجريف اللغة العربية سواء استجابة لاحتياجات السوق أو استسلاماً لأمر واقع رغم أن الإعلام خاصة ما كان قوميا يضطلع بمهمة تثقيفية لعموم الناس قبل التنافس على الأسواق وإرضاء للأذواق ، فالصحافة الآن لاتجد حرجا فى نشر الإعلانات بالعامية دون الالتزام بجماليات هذه العامية ، كما أن أغلب الصحف يتسع صدرها للإعلان باللغة الأجنبية فى خطاب يعنى بشريحة معينة من المجتمع فى حين أن الإعلان – حتى فى الاشتقاق اللغوى – قصد به إعلام الكافة ، وبهذا الأسلوب تسهم صحافتنا أيضا فى تعميق حالة الاستقطاب المجتمعى والتنكر للغة الأم .

وبنفس القياس لم يسلم الإعلام المرئى والمسموع – حكوميا كان أو خاصا – من هذا التدهور اللغوى والاستخفاف بقواعد اللغة بحجة المنافسة على قلب وعقل المتلقى – ومن ثم المزيد من الإعلان – إلى حد أن إحدى الفضائيات تستخدم فى برامجها حتى ما كان منها إخباريا العامية فقط وهو أمر يبدو متعمدا ، وفى التليفزيون

دور كبير لاتحاد الكتاب والمؤسسات الاعلامية للحفاظ على اللغة العربية

«الحكومى» نفسه تسمت برامج عديدة بأسماء أجنبية ولم يعد فى وسع المذيعين والمذيعات الحديث أمام الشاشة والميكروفون دون تطعيم خطابهم بكلمات وتعبيرات من لغة أجنبية فى إيحاء قد يكون غير مقصود بأن اللغة العربية لايمكنها الاستجابة لاحتياجات ومتطلبات العصر ، وهؤلاء الإعلاميون يسهمون بشكل أو بآخر فى تعميق وتأكيد هويات مستحدثة لأن معنى خطابهم أنه يوجه إلى من يفهمون هذه الكلمات والتعبيرات الأجنبية وليس غالبية الجماهير كأهل الريف مثلا الذين سيشعرون بأنهم متطفلون على هذا الإعلام وأن هناك على نفس الأرض التى يدبون فوقها عالماً آخر وبشراً مختلفين استهدفهم هذا الخطاب الإعلامى .

ودون إثارة جدل أكاديمى ، فإن العولمة رغم بريقها وهيمنتها تشكل نوعاً من الامبريالية الحديثة على المستويين الاقتصادى والثقافى ، ومايعنينا هنا هو الحالة الثقافية ، فالعولمة تروج لثقافتها بدعوى الحداثة وما بعد الحداثة وإن الشعوب التى تعجز عن تبنى قيمها سوف تخرج من سياق التاريخ ودوائر التقدم ، وقد يدفع الخوف من مصير كهذا بعض المجتمعات إلى الانصياع لهذه القيم وتبنى استحقاقاتها والتخلى فى النهاية عن هويتها وأصالتها ومعايير تفردها وامتيازها ، والخشية أن يجىء زمن تنطبق فيه علينا مقولة ابن خلدون : «إن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده» وفى تعليله لذلك :«أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه» وكأننا هزمنا فى غير حرب ودون قتال .

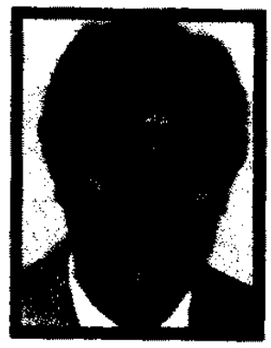

وديع فلسطين

حديث عن لغة الضاد

لغات العالم تكاد فى تعددها تزيد حتى على عدد دول العالم ، لأن هناك دولاً مثل الهند فيها مئات من اللهجات التى لاتقع فى نطاق حصر، وهناك سويسرا التى تعترف بأربع لغات رسمية هى الفرنسية والألمانية والإيطالية ولغة الرومانش . وهناك كندا التى تعترف باللغتين الفرنسية والإنجليزية لغتين رسميتين لها ، كما أن هناك لغات اندثرت ، أو على الأصح ، أصبحت تراثية مثل اللاتينية واليونانية القديمة والتركية القديمة .

ويعزى اختلاف اللغات تاريخياً إلى برج بابل الذى حاول بناته الارتفاع به حتى يصل إلى السماء ، ولكن الله «بلبل »ألسنتهم فتعذر عليهم التفاهم فى عملية البناء ، وهكذا انقسم اللسان الواحد إلى عشرات من الألسنة .

وعندما قامت الأمم المتحدة استقر مؤسسوها على اتخاذ اللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والروسية والصينية لغات رسمية لها، ولكن نظراً لأن الدول العربية أصبحت تمثل عدداً كبيراً من أعضاء الهيئة ، فقد وافقت على جعل اللغة العربية لغة رسمية سادسة .

صحيح أن الأمم المتحدة لم تضف إلى هذه اللغات الرسمية لغات حية أخرى مثل الألمانية واليونانية والهولندية ، ولكنها مع ذلك سمحت لأصحاب هذه اللغات بأن يعبروا عن آرائهم فى اجتماعات الهيئة ومنظماتها بلغاتهم الأم ولكن من خلال مترجم أو نص جرت ترجمته إلى لغات الأمم المتحدة الرسمية .

ولأن اللغة هى سبيل التفاهم بين الأمم ، فقد جرت محاولة لاستحداث لغة عالمية ، تحل محل جميع اللغات المتداولة ، وأطلق عليها اسم «الإسبرانتو» ، ولكن جميع دول العالم أبت أن تتنازل عن لغاتها القومية ولو بتبنى هذه اللغة العالمية التى تيسر التفاهم بين

الصحافة هى أول من يستقبل الفتوحات العلمية الجديدة وترتجل أحياناً مصطلحات يعز فهمها على القارئ

■ كاتب وناقد

شعوب الدنيا كما كان يأمل الداعون لها .

وطبيعى أن تستمسك كل أمة بلغتها القومية كتابة ونطقاً . ولكن تركيا فى عهد كمال أتاتورك قامت بتغيير الحروف العربية للغة التركية واستبدلت بها الحروف اللاتينية ، وترتب على ذلك أن انقطعت تركيا تماماً عن تراثها التاريخى وأصبحت اللغة التركية القديمة من اللغات الميتة .

وقد جرت فى مصر محاولة مماثلة للمحاولة التركية عندما تقدم عبدالعزيز فهمى باشا إلى مجمع اللغة العربية بمشروع لكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية أسوة بما فعله أتاتورك فى تركيا.

ولكن المجمع وقف وقفة صارمة أمام هذا المشروع وأجمع على رفضه من أساسه على اعتبار أنه يهيل التراب على كل تراث اللغة العربية ، ولم يبال بأن مقدم المشروع هو شيخ القضاة .

على أن هذا المشروع لم يؤيده – ولكن من خارج المجمع – إلا سلامة موسى .

وكانت منظمة اليونسكو قد أجرت حصراً للغات الأجنبية التى ترجمت لها كتب عربية فاكتشفت أن هناك أربعين لغة ماترجم إليها ولو كتاب عربى واحد .

ومع تعدد اللغات فى العالم صار التفاهم بين المتكلمين بها يحتاج فى حالات كثيرة إلى مترجم ، بل إن المسئولين فى الدول المختلفة يفضلون دائماً التحدث بلغتهم القومية مع إجادتهم للغة أخرى أثناء محادثاتهم الرسمية مع أندادهم ،

كمال أتاتورك

سلامة موسى

تاركين للمترجم أن ينقل كلامهم إلى الطرف الآخر .

وقد تكون الترجمة الأدبية بين اللغات ميسورة إذا ما تشابهت الأسس الحضارية بينها ، ولم تكن هناك فوارق غليظة بين هذه الأسس، ولكن التصدى للترجمة العلمية أو المتخصصة يتعين فيه مراعاة الدقة الحرفية ، سواء من حيث الإلمام بالمصطلحات الخاصة بكل علم أو

من حيث مراعاة الدقة المطلوبة ولاسيما عند ترجمة المعاهدات أو المواثيق أو العقود القانونية أو النصوص الرسمية .

ولعل عقبة المصطلحات العلمية هى العقبة الكئود أمام كل من يحاول التصدى لنص علمى حتى وإن كان من المشتغلين به . وهى عقبة واجهت المترجم الأول فى مصر وهو رفاعة رافع الطهطاوى ولكنه تغلب عليها بصياغاته الأدبية لا العلمية . صحيح أن هناك عشرات من معاجم المصطلحات صدرت فى البلدان العربية من سنوات بعيدة ، ولعل من أقدمها «معجم الحيوان» للفريق أمين المعلوف باشا ، ولكن الحاجة الماسة إلى هذه المعاجم شجعت أفراداً وأيضاً مجامع على تصنيف معاجم للمصطلحات العلمية يستعان بها فى الترجمات العلمية بل إن فى لبنان داراً للنشر هى دار لبنان تخصصت فى إخراج معاجم المصطلحات والموسوعات إخراجاً علميا دقيقاً . ولكن الملاحظ أن معاجم المصطلحات لاتتفق على مصطلح واحد مجمع عليه يتم تداوله فى جميع البلدان العربية . ومن ذلك مثلاً أن جهاز الكمبيوتر يترجم فى معجم باعتباره «الحاسب الآلى» وفى آخر باعتباره «الحاسوب» مع شيوع الاسم الفرنجى له وهو الكمبيوتر . والتليفون المحمول يعرف فى بعض المعاجم بـ «الخليوى» وفى غيرها بـ «الجوال» . أما التليفون العادى فهو «الهاتف» وكان يطلق عليه من قبل اسم «الإرزير» .

وفى سبيل توحيد المصطلحات ولو فى علم واحد مثل علم النفس ، جرى الدكتور يوسف مراد أستاذ علم النفس ورائد جماعة علم النفس التكاملى ، على مطالبة جميع أعضاء الجماعة وطلابه باستخدام المصطلحات السائغة التى استنبطها مع إثبات مسرد بهذه المصطلحات فى ذيل كل كتاب ينشرونه تعميماً لها فى التداول العام .

وكنت سألت صديقى العلامة الأمير مصطفى الشهاوى رئيس مجمع دمشق عن الأسلوب الذى ترسمه فى إعداد معجميه الكبيرين عن الزراعة والحراج . فقال لى إنه شرع ابتداءً فى جمع المفردات الخاصة بالفلاحة والحيوان والنبات ومن الكتب التى ألفها قدامى العرب، ثم غربلها واستخرج منها جميع أسماء النبات والحيوان والمواليد التى عرفها العرب، ثم عكف على معاجم الضاد اللغوية واستخلص من ألفاظها كل ما جاء فى باب الزراعة والنبات والحيوان حتى إذا ما استوت لديه المادة العربية الأصيلة التي صحت لغة واستعمالاً وجرت على الألسنة العربية ، قام بعملية المؤانسة والمجانسة بين هذه الألفاظ العربية وبين مقابلاتها باللغتين الفرنسية واللاتينية . ثم اجتهد بعد ذلك فى ترجمة المصطلحات التى لم تعرض لقدامى العلماء ، لأنهم لم يعيشوا فى القطبين الشمالى والجنوبى أو فى الأدغال أو فى فيافى آسيا والأمريكتين ، وكلها ألفاظ اجتهد فى ترجمتها ترجمة سائغة مع حرصه على التعريف بكل نبت أو حيوان مما لم تعرفه العرب قديما وربما حديثاً .

ولأننى أمارس الترجمة أحياناً ، وأرانى مضطراً إلى استخدام عشرات من المعاجم العلمية ، فكثيراً مايعيينى الاهتداء إلى مصطلح جديد لم يرد فى ثنايا المعجم

الخاص بمادته ، وهو مايدعونى إلى المطالبة بإجراء مراجعة دورية لجميع المعاجم العلمية كيما تضاف إليها المصطلحات الجديدة التى باتت تعدد بالمئات بل بالآلاف ، لأن مستحدثات العلم لا تتوقف وعجلة المصطلحات لايكف هديرها .

وعندما كنت أعمل بالصحافة اليومية فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، فوجئنا بالقنبلة الذرية تلقى على هيروشيما ونجازاكى فى اليابان ، وانهالت علينا البرقيات الصحفية تصف هذه القنبلة الماحقة، وكيف أنها تعتمد على شطر نواة الذرة ، وهناك مايسمى بالماء الثقيل وبالبلوتونيوم المخصب إلى آخر هذه المعلومات الطارئة على القارئ العربى . ولكننى لم أجد مشقة فى ترجمة هذه البرقيات لا بسبب «شطارتى» بل لأن أستاذى العالم فؤاد صروف كان ينشر فى مجلة «المقتطف» مقالات عن شطر نواة الذرة والقوى المدمرة التى تنطلق من هذه العملية . وكنت أقرأ هذه المقالات بشىء من الاستخفاف ، ولكن جاء هول الحرب مصدقاً بـ «نبوءات» صروف ومعينا لى على شرح أخبار القنبلة الذرية لقرائى .

وإذا كانت الصحافة هى أول من يستقبل الفتوحات العلمية الجديدة ، توافيها من مستحدثات الحياة الهادرة بالتكنولوجيات ، فهى ترتجل أحياناً مصطلحات يعز فهمها على القارئ دون أن تحاول شرحها وتوضيح معناها مثل «الآلية» و«الحوكمة» و«التوريق» و«التعهيد» و«الاحتباس الحرارى» وغيرها ، وهى مصطلحات حبذا تفسيرها للقارئ العادى ولست أستثنى نفسى من القراء العاديين .

ورحم الله الشاعر حافظ إبراهيم القائل بلسان لغة الضاد :

رفاعة الطهطاوى

مصطفى الشهاوى

وسعت كلام الله لفظا وغاية

وما ضقت عن آى به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة

وتنسيق أسماء لمخترعات ؟

والضاد لغة وحضارة وعلماً وعملاً هى ألف باء العروبة ابتداءً ، وهى جامعتها الكبرى انتهاءً وكل حديث عن العروبة يجب أن يبدأ بالضاد وينتهى بها .

■ د. كمال نشأت

سيريالية التعبير هذيان مضحك

السريالية تعنى «فوق الواقعية»، وهى مذهب نما فى ظل كشوفات علم النفس، وكان فيلسوفه «أندريه بريتون» وقد بدأ كما بدأت كل المذاهب الأدبية الأخرى فى عاصمة الفن الخالدة «باريس» بين الحربين العالميتين، وكان هدفه تحطيم القيم الأدبية السائدة خاصة التى تنادى بأن الأدب تعبير عن الواقع وأنه فى خدمة المجتمع. وكان السرياليون يدعون إلى الصدق ولا يرونه إلا فيما ينبعث من داخل الإنسان «اللاشعور» وكانوا يعتقدون «أن حالات الوعى فى كيان الإنسان لم تعد كافية لتفسيره للآخرين ، وبأن لا شعوره يتضمن جانبا من كيانه الواسع وهو أكثر أصالة ودقة ..» من هنا اعتمد السرياليون على اللاشعور يستمدون منه أدبهم ليخلقوا عالما يعوض نقص العالم الواقعى الذى ثاروا ضده، وقد كان من أسس مذهبهم ما حققه فرويد من نتائج تومئ إلى الصدق فى النقل عن اللاشعور، وما دعا إليه «بزجسون» من صدق الحدس، وما بينه أندريه جيد فى كتاباته من صدق الأخلاق الفردية وعلى هذا الأساس الجديد الذى كون نظرتهم المذهبية أرادوا أن «يغيروا العالم»، ويهدموا الأدب الواقعى؛ لأن مهمة الأدب الأولى – فى رأيهم – هى التعبير عن دخيلة الإنسان أولا وأخيرا، وقد انضم إلى المذهب وأصحابه عدد من الأدباء والفنانين التشكيليين، ولكن بعضهم مثل أراجون، وكلود روى، وبيكاسو انفصلوا عن الجماعة، وقد يعلل انفصالهم مالاحظوه من أن السريالية حركة انطوائية، لا تعترف بالعالم الخارجى والصلة به.

السريالية لم تستطع أن تقدم روائع أدبية - على مستوى الكتابة العالمية - تفخر بها مثلما هى الحال مع المذاهب الأدبية الأخرى

■ شاعر وناقد وأستاذ جامعى

سلفادور دالى

وأنها «مظهر من مظاهر الانهيار فى التكامل الاجتماعى، وليست أداة لاستعادة هذا التكامل» .

إن السريالية ترتاد «المنطقة الحرام» كما يقول فيلسوفها بريتون، من هنا كان السرياليون يؤمنون بالأشباح والقصور التى تسكنها الأشباح، وها هو بريتون يقول «ليس أدعى للإثارة من هذا الأدب المفرط فى الخيالية والبالغ التعقيد، فجميع قصور «اوترانت» و«ادولف» و«البيرينية» و«أوفل» و«شلين» التى تجتاح الشقوق الكبيرة أسوارها وتتآكلها الكهوف ظلت تعيش باستمرار حياتها المصطنعة فى الزاوية الأشد ظلمة من فكرى، وتبعث فيه فسفوريتها الغريبة.

وتظل فكرة الأشباح مسيطرة على السرياليين حتى وهم فى مقهى كانوا يجتمعون فيه فى باريس، فقد دخل هذا المقهى صبى يبيع زهورا فسأل أراجون إن كان هذا الصبى شبحا، فأخرج «شريكو» دون أن يلتفت «مرآة صغيرة من جيبه وأجاب بعد ما تفرس طويلا فى وجه الصبى الصغير : إنه شبح بالتأكيد...».

ومن هذه الظاهرة الدالة على الهلوسة التى كانوا يتعمدون التظاهر بها حقيقة أو ادعاء كان الطريق الفنى للتعبير أمام السريالى هو اختلال الحواس.

وها هو بريتون منظّر السريالية وفيلسوفها يعترف: «عودت نفسى على الهلوسة البسيطة فكنت بمنتهى الصدق أبصر جامعا مكان معمل . ومدرسة لقارعى الطبول قوامها الملائكة، وعربات على دروب السماء. وصالة فى قعر بحيرة، ووحوشا وأسرارا، وكان عنوان مسرحية خفيفة كافيا ليزرع الرعب فى طريقى..» إلى ـ "احد كان الأمر عند السرياليين.

من هنا كان الشعر السريالى شعر الهواجس، والكوابيس والهلوسات الصادرة عن اختلال الحواس طبيعة وفطرة أو تعمدا بتناول المخدرات أو العقاقير حتى ينام العقل الواعى ويبدأ اللاشعور شغله .. وها هو سريالى آخر هو الفنان التشكيلى سلفادور دالى يقول: «إن المعانى الخفية التى يجدها فى الظواهر التى يدرسها تأتيه من حالات جنون مؤقت ..»

إن بريتون يحدد الكتابة السريالية والتى يسميها «الكتابة الآلية» أو الميكانيكية بقوله «بعدما تقيم فى مكان يتفق ما أمكن وتركز فكرك على نفسك .. ضع نفسك على وسعها فى أكثر الحالات سلبية وانفتاحا ، واكتب بسرعة ودون موضوع سابق التصميم ، بسرعة تكفى لتمنعك من الحفظ . أو أن تساق إلى استعادة ما تكتب . وسوف تأتيك الجملة الأولى دون عناء ؛ لأن فى كل ثانية – والحق يقال – جملة غريبة عن تفكيرنا الواعى لا تلتمس إلا البروز إلى النور ...»

ومن الطبيعى أن هذه الكتابة المنثالة دون اختيار والتى لا يحكمها منطق ولا تسيطر عليها مراجعة لن تكون إلا هلوسة لا ضابط لها . ومن الطبيعى أيضا أن يكون مضمونها بعيدا عن أى التزام جمالى أو أخلاقى .. إنها أشبه ما تكون بلعبة طفولية لا هدف لها . إن ما نقوله هو كلامهم هم .. فهم يعترفون بالهلوسة والجنون وانعدام المنطق والبعد عن الواقع ... إلخ ... فمذهبهم لا يقوم إلا على هذه الأسس، ولكن من الممكن أن نذكر بعض جملهم المشهورة مثل «الفيلة معدية» و«اضرب أمك وهى صغيرة السن» ومنها فكرة بريتون عن السمكة القابلة للذوبان . وواضح أن هذه الجمل هذيان صارخ ، والمعروف أن السريالية لم تستطع أن تقدم روائع أدبية – على مستوى الكتابة العالمية – تفخر بها مثلما هى الحال مع المذاهب الأدبية الأخرى .

على أننا ونحن فى مجال الحديث عنها نود أن نناقش أساس قيامها، وهو اعتمادها على «اللاشعور» وقد مرت بنا فكرة «الكتابة الآلية» أو الميكانيكية، وهى الكتابة التلقائية التى لا يتدخل فيها العقل الواعى والتى رأينا «بريتون» يشرحها . وهى طريقة السرياليين فى التعبير، وهى – كما نرى فى كل نماذجها المكتوبة – لم تقدم إلا خليطا من الأفكار والصور المشوشة السائبة التى لا يربطها رابط وهى أفكار منفلتة لا منطق لها .. وهذا شىء طبيعى ماداموا يعتمدون على «اللاشعور» الذى يعبر خلال الأحلام بنفس الأسلوب اللامنطقى ..

بيكاسو

وهنا أحب أن أسأل كيف يتميز الأديب أو الشاعر السريالى مادام بقية الناس العاديين الذين ليسوا بشعراء ولا أدباء يشبهون الأدباء والشعراء فى أنهم مثلهم يحملون فى عمق نفوسهم لا شعورا جمعيا ولا شعورا «فرديا».

كيف يتميز أديب عن أديب وشاعر عن آخر والكتابة السريالية تفرز تلقائيا .. بطريقة آلية متتالية، فلا جهد فيها، ولا معاناة، ولا براعة شخصية للشاعر أو الكاتب ؟!.. إنها كتابة لا يعلو فيها الفنان الحق عن أى رجل عادى يعرف مبادئ القراءة والكتابة لأن هذا الأخير يملك لا شعورا جمعياً وآخر فرديا مثل هذا الفنان . والمذهب بطبيعته يعتمد على الكتابة الآلية التى تأخذ «مادتها الفنية» من اللاشعور . وهى كتابة لا روية فيها، ولا إعمال فكر، ولا جهد خالقاً من الفنان، كما ذكرنا أن الفنان الحق فى عملية الخلق الأدبى السريالى سيكون «اللاشعور» لا الفنان الإنسان كاتبا أو شاعرا لأن «المادة الفنية» كلها قد أفرزها هذا اللاشعور «الفنان» أما عمل الشاعر أو الكاتب فهو «تبييض» ما يقوله اللاشعور دون تدخل أو مراجعة .. وهنا نسأل . أين فضل الكاتب أو الشاعر السريالى إن كان كل عمله أن يتحول إلى كاتب طابعة يسجل ما يمليه عليه هذا «اللاشعور» إن اللاشعور يتدخل فى كتابات الأدباء غير السرياليين وهى حقيقة علمية مفروغ منها . ولكن الأديب الذى لا ينتمى إلى السريالية يكتب نصف واع لما يكتب .. إنه يضع عنانا لكل ما يرد إليه من لاشعورية الجمعى والفردى . إن هناك رقابة شبه واعية على المادة المنحدرة من أعماق الإنسان وهو لا يعتمد على هذه المادة تماما كما يفعل السريالى كما أنه لا يلجأ إلى المخدرات والعقاقير لينيم عقله الواعى فيترك المجال حرا للاشعور ،ذلك

أن الجنس الأدبى الذى اختاره شكلا لما يكتب «قصيدة - مسرحية - رواية ..... إلخ» له قواعد وله أصول . فالشاعر مثلا عليه أن يراعى إلى جوار المادة الفنية لقصيدته قواعد النحو وإيقاعات الوزن الشعرى .. فليس هناك فن بلا قواعد وإلا أصبحت المسألة فوضى .. هكذا كان الفن - مهما تعددت ألوانه وأصابه التغير التجديدى جيلا بعد جيل - منذ أن عرفه الإنسان.

قد يكون الرد علينا أن الناس يشتركون فى اللاشعور الجمعى فنانين وغير فنانين لأن «اللاشعور» الفردى وهو خزانة التجارب الشخصية يختلف من أديب إلى أديب كما يختلف من إنسان عادى غير أديب إلى إنسان عادى آخر . أقول إذا كان الرد أن اختلاف «اللاشعور الفردى» عند السرياليين كحقيقة إنسانية معروفة سيشكل أدبهم ويجعله مختلفا .. فأين هذا الاختلاف مادام الكلام حرا سائبا لا منطق فيه وليست له خصوصية إلا خصوصية اختلاف تجارب اللاشعور الفردى، إن تشابه الأسلوب التعبيرى لقيامه على اللامنطق أدى إلى عدم التمايز فليس هناك أسلوب خاص فى التعبير ... من هنا لم يكن للسريالية روائع تنسب إليها .

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا هو .. أين المقاييس النقدية الخاصة التى تستطيع أن تميز العظيم من الأدب السريالى من غير العظيم ؟

إن النقد الحالى عاجز عن تناول هذا الأدب ولا عبرة بالمقالات الإنشائية الأكثر غموضا من النص السريالى المنقول .. تلك التى نراها منشورة هنا أو هناك ، والعجيب فى أمر السريالية وأصحابها أنهم ينكرون كل أدب آخر وهم لا يعترفون بأدباء إلا إذا كانت مواقفهم قريبة من موقفهم السريالى مثل الكونت دى صاد وبودلير ورامبو ... ولو جاريناهم فى آرائهم لفقدنا تراث الإنسانية الأدبى كله ..

إن المذهب نفسه ضد عملية الفهم العقلى .. ضد الشرح والتفسير .. ضد الواقع والمنطق والمعقولية وهو مذهب لا يستهدف إلا ذاته .. قطع الصلة بالناس وبواقع حياتهم واهتماماتهم وتجاربهم وها هو نموذج من أساليب السرياليين المصريين يعادى المنطق ويستعين بالغموض .. والإبهام التامين، وهو يدل على أن صاحبه قد جعل لغة تعبيره ملكية خاصة، والتعبير عبر أية لغة يعتمد على الوضوح الذى يقوم بعمله فيحقق التفاهم المشترك بين الأديب والمتلقين ... والمضحك

فى هذه المشكلة هو قول السرياليين إنهم سيغيرون العالم : وهنا يسأل كل إنسان عاقل كيف يغير هذا الأسلوب الذى يتلفع بإبهامه الشديد حياة الناس وصاحبه نفسه لا يفهمه؟!

وأختم مقالى بنص من نصوصهم المضحكة يقوم على ما أسميه «تهريج الكلمات» :

«الطواحين تنتج صمغ العروق، المسافات غيب من الارتكاس مدى الطرح فى السنبلات يجلده المن، والسنبلات أراجيح صفر التدابير .. هل يدرك الماء طلعى أم يستدير ؟

انتحيت على رأس سنبلة واستعذت من الحال عند الصروف الطواحن

يا سيدى جئت أحمل لوحى..

وهنا نسأل هل يغير هذا الكلام المضحك حياة الناس ؟

■ محمد سعيد السيد

الوثائق السرية بين يدي

تنتاب الدبلوماسى فى بداية مسيرته الدبلوماسية الرهبة عندما تقع بين يديه لأول مرة مذكرة فى أعلاها عبارة «سرى للغاية» ، أى ليس لأحد أن يتداولها أو يتحدث عما بها من معلومات،وإنها وثيقة ليست للنشر إعلاميا.

وتزداد الرهبة عندما ينفض الاجتماع بين الطرفين من المفاوضين وتتجمع الأوراق ومحاضر المناقشات والمذكرات المتبادلة بين الجانبين ويعهد بها رئيس الجانب المصرى إلي ذلك الدبلوماسى الصغير القابع فى طرف مائدة المفاوضات، لتجميع الأوراق والمستندات لتصنيفها فى ملفات ونسخها علي وجه السرعة لعرضها وإرسالها لمن يهمهم الأمر ولمن بيده اتخاذ القرار .

يشعر الدبلوماسى أنه يمتلك «أسرار الدولة» فهل له أن يسبق الزمان ويحتفظ بنسخة لوثيقة من تاريخ المستقبل؟

وفي ذلك الوقت يشعر الدبلوماسى الصغير أنه يمتلك «أسرار الدولة» ..إنه شعور بالاعتزاز بالعمل الدبلوماسى، ففى دراساته الجامعية للتاريخ الدبلوماسى والعلاقات الدولية كانت أسرار الدول التى مضي بها الزمن تدرس ومدونة كتاريخ، ولكن أمامه الآن فى حاضره ما سيكون تاريخا فى المستقبل، فهل له أن يسبق الزمان ويحتفظ بنسخة لوثيقة من تاريخ المستقبل؟ إنها قضية كبري لم يستطع أن يتخذ فيها قرارا سريعا، ونازعته الرغبة فى تملك التاريخ حاضراً ومستقبلا قبل أن يصبح ماضياً.

وكانت مفاوضات الجلاء بين مصر وإنجلترا، هى الموضوع الدبلوماسى والسياسى والثورى الأول أمام جمال عبدالناصر وهى الهدف الأهم فى تحقيق الاستقلال والحرية لمصر، وكانت المفاوضات تجرى على عدة محاور سياسية وعسكرية لإخلاء القاعدة البريطانية فى قناة السويس من قوات الاحتلال إلى جانب

■ كاتب ودبلوماسى

النواحى الاقتصادية والمالية. وكان المرجع الرئيسى فى المفاوضات هو جمال عبدالناصر وبجانبه صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة والوزير الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية، وكان الجانب العسكرى وتفاصيله على طبيعة موقع القاعدة تتولاه القيادة الشرقية المصرية بالإسماعيلية .

وكان كل يوم يأتى بجديد من آراء ومذكرات ووثائق لا حصر لها، ويتجمع أغلبها بين يدى الدبلوماسى الصغير وكان مستمتعا بالفرصة التى أتاحها له القدر أن يقرأ ويرى أمام تاريخ المستقبل، ولكن متطلبات المسئولين الكبار العاجلة تدفعه دائما لإنجاز المطلوب بسرعة بغض النظر عن قيمة ما يمتلك بين يديه .

وانشطر العالم الذى يعيش فيه إلى شطرين، العالم الذي يعمل فيه كدبلوماسى وعالم آخر كان يستمتع به دائماً وهو عالم أصدقائه، الذين أصبح الحديث معهم له حدود معينة لا يتجاوزها، إنه سلوك جديد وغريب وعلى الدبلوماسى الصغير أن يتصوره فى حديثه معهم ولقائه بهم. وكانت الوثائق والمستندات تتجمع يوميا بالمئات تبعا للجلسات وتعدد مرات انعقادها ما بين سياسية وعسكرية واقتصادية ومالية، وكانت اللجان المختصة تتناول ما يخصها، وفى نهاية اليوم تختفى المذكرات والوثائق فى الحقائب ، وإلى يوم جديد ومستندات وأوراق أخرى جديدة، وفيما يخص مستندات وزارة الخارجية كانت منحصرة فى اثنين فقط من الدبلوماسيين العاملين بقسم شئون بريطانيا واتفاقية الجلاء وعلى رأسهما وزير الخارجية الدكتور محمود فوزى، ولا عجب لهذا العدد القليل، لأن فى

عبد الناصر يرفع العلم بعد الجلاء

الوثائق السرية بين يدي

ذلك الوقت كان عدد الدبلوماسيين فى الوزارة كلها لا يتجاوز الخمسة عشر يعملون فى الإدارة السياسية بأقسامها العربية والإفريقية والآسيوية والشئون الأوروبية وشئون بريطانيا وشئون الأمريكتين، إلى جانب إدارة المراسم والإدارة الاقتصادية، والكل كان فى مبنى سراى الوزارة فى التحرير ولم يكن هناك مبنى الجيزة ولا مبنى ماسبيرو.

وكانت الاجتماعات تعقد فى صالونات وزارة الخارجية، وأحيانا فى مقر القيادة البريطانية فى الإسماعيلية، فكنا نسافر بالقطار إلى هناك لننضم إلى رئاسة هيئة القيادة الشرقية المصرية، لنلتقى جميعا مع الجانب البريطانى، ونعود إلى القاهرة فى نفس اليوم، وقد امتلأت الحقائب بالمستندات لترتيبها وتصنيفها وعرضها على الوزير لتصل إلى جمال عبدالناصر على الفور.

وسارت الأمور على هذا النحو والدبلوماسى الصغير غارق فى الوثائق السرية للغاية، وقد زالت عنه الرهبة والشعور الأول الذى انتابه عندما وقعت بين يديه لأول مرة مذكرة السفارة البريطانية وعليها عبارة سرى للغاية، إنه أصبح يعيش فى قلب الأسرار، واعتاد على أن كل ما يراه ويسمعه يضعه خلف سد كبير ولا يمكن أن يتحدث عنه أو «حتى مع نفسه به».

وفى يوم تسلم بطاقة دعوة إلى حفل استقبال من السفير البريطانى باسمه وهو السكرتير الثالث بوزارة الخارجية قسم شئون بريطانيا واتفاقية الجلاء وذلك على شرف وكيل وزارة الحرب البريطانى «أنتونى ناتبخ» بمناسبة زيارته للقاهرة لمتابعة سير المفاوضات. والسفارة البريطانية فى ذلك الوقت - مع بداية الثورة - كانت لا تزال محتفظة بمكانة الدولة الكبرى امتدادا لتاريخها مع العهد الملكى واحتلالها لمصر، وذهبت إلى السفارة البريطانية وكان الجمع كبيرا على مستوى الدبلوماسية البريطانية التقليدية، والتقيت فى الحفل بسكرتير أول السفارة وكنا معه على اتصال دائم شبه يومى من واقع طبيعة العمل الدبلوماسى ما بين الخارجية والسفارة، فاصطحبنى إلى حيث ضيف الشرف ونفذ من خلال الحشد حوله وذكر أنه سيقدمنى إليه لأن من الضرورى أن يتعرف على جميع ضيوف الحفل المدعوين على شرفه، وفعلا التفت إلينا ودارت كلمات المجاملة والتمنيات الطيبة بنجاح المفاوضات، وكانت هذه الواقعة بالنسبة لى كدبلوماسى صغير أول درس فى أصول وبروتوكولات حفلات الاستقبال بأن ضيف الشرف له أن يلتقى بالمدعوين من الحاضرين على شرفه،وأن المدعوين ليسوا مظاهرة عددية ومفاخرة بكثرتهم، وهو ما يحدث حاليا حيث أصبح حفل الاستقبال حشداً جماهيرياً لتناول المشروبات، وفى زاوية منعزلة يجتمع النخبة من علية القوم لفترة قصيرة وينفضون بلا معنى ولا هدف، وغالباً ما يرجع التطور فى السلوكيات إلى ما كان فى الدول الشيوعية من انفصال تام بين الطبقة الحاكمة والآخرين .

ومن المواقف التى لا تنسى أثناء

توقيع اتفاقية الجلاء من الجانب المصري

المفاوضات أن الحوار بين الوزير محمود فوزى والسفير البريطانى سير رالف ستيفنصن قد تأزم ومع البرود الإنجليزى الذي يضرب به المثل، أخذ السفير البريطانى يجمع أوراقه قائلاً: إننا وصلنا إلى طريق مسدودة وأصبح الاجتماع غير مثمر، ولكن الوزير فوزى بادره قائلاً: إنى أرى عكس ذلك فالاجتماع مثمر جدا، فقد وضحت وجهتى النظر البريطانية والمصرية «وضوح الكريستال» .

وفى الاجتماع المقبل ترى تواصل الحوار، وكان بالنسبة للدبلوماسى الصغير درساً فى كيفية استيعاب الأزمات التفاوضية والتغلب على احتمالات توقفها أو قطعها .

واستمرت المفاوضات وهو ما يعنى تراكم الوثائق والمستندات، واستمر الحال على هذا المنوال حتى تم الاتفاق على مشروع اتفاقية جلاء القوات البريطانية عن قاعدة قناة السويس على أن يتولى إدارة القاعدة بعض العسكريين بملابس مدنية حتى نهاية رحيل الإنجليز عن مصر.

وأقيمت الاحتفالات الكبرى بتوقيع اتفاقية الجلاء يوم ١٨ يونيه ١٩٥٤، وكان إنجازا رائعاً للثورة، وفجأة وجد الدبلوماسي الصغير الوثائق التى بين يديه تتحول من «تاريخ للمستقبل» كما كان يراها إلى «تاريخ ماض» وبدأت مرحلة نوعية جديدة من المفاوضات عن وضع وحقوق الخبراء المدنيين البريطانيين فى القاعدة بعد جلاء القوات العسكرية لحين قيام القوات المسلحة المصرية باستلامها بالكامل، والقاعدة لفظ وتعبير

بسيط عن تلك المنطقة التى تشغلها قوات الاحتلال وما بها من منشآت مدنية وعسكرية ومعدات حربية وبحرية وأجهزة اتصالات بل ومطارات، إنها أكبر من مدينة، وقد تنقلت بداخلها فى عدة أجزاء منها، إنها عبارة عن قطعة من الامبراطورية البريطانية الاستعمارية على الأراضى المصرية.

وفى النهاية تحقق الجلاء التام لقوات الاحتلال عن أرض مصر، وانتقلت القاعدة بالكامل إلى القوات المصرية، وكانت المكافأة التى أنعم بها على الدبلوماسى الصغير، هى تعيينى سكرتيرا ثانيا فى سفارتنا فى لندن وهو موقع يتوق إليه أى دبلوماسى ، إلا أن الاحداث السياسية دائمة الحركة والتحرك فكان العدوان الثلاثى على مصر ومن الطبيعى ألا يتحقق الأمل الذى كنت أرنو إليه وهو السفر إلى لندن، وتحول الأمر مرة أخرى إلى تجميع للوثائق السرية للغاية، وكان مصير اتفاقية الجلاء التى كانت نصرا وفخرا للثورة، أن تم إعداد المذكرة القانونية اللازمة بإلغائها لأن العدوان أسقط تصنيفها كمعاهدة للصداقة بين بلدين فيحق لمصر إلغاؤها من طرف واحد.

وسارت مفاوضات جديدة وتنوعت الوثائق التى انبعثت عن قبول وقف إطلاق النار مع دول العدوان وإسرائيل وما تلا ذلك من نشر قوات مراقبة دولية للأمم المتحدة بقيادة الجنرال أور بول على ضفاف قناة السويس للمراقبة وتسجيل حوادث خرق اتفاقية وقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل ومن موضوعات المفاوضات كانت مثلا تحديد خط وقف إطلاق النار بين القوات المصرية وبين القوات الإسرائيلية المحتلة لسيناء، وهل هو الشاطئ الشرقى لقناة السويس الموجودة به القوات الإسرائيلية، أم هو منتصف المجرى المائى لقناة السويس ؟

واستمرت الوثائق تتهاوى على الدبلوماسى الصغير فى جميع مواقع عمله فى وزارة الخارجية وهو يرقب «سير الزمن» وكيف تتحول الأوراق السرية للغاية إلى أطلال ، ولعلها الآن قابعة فى مغارات جبل المقطم المأوى الأخير للأوراق الحكومية والأضابير على اختلاف أنواعها.

وسارت بى الحياة الدبلوماسية وسرت فى دروبها وخبرت السياسة الخارجية والعلاقات الدولية لمصر، ولم يطل بى الأمد حتى غرقت فى بحر عميق من الوثائق السرية للغاية، وذلك عندما توليت إدارة الشفرة والبرقيات الرمزية والاتصالات بوزارة الخارجية، ولم أصدق عينى عندما كنت أرى يوميا عشرات من الموضوعات السرية للغاية والمتداولة بين الوزارة والسفارات فى الخارج بين يدى، إنها أسرار ترسم الخطوط المستقبلية لسياسة مصر وعلاقاتها الدولية، إنها ترسم تاريخ المستقبل، وتذكرت أول مرة وقعت بين يدى مذكرة من نوع «سري للغاية» وكان التفكير الأول هل أحتفظ بنسخة منها لنفسى ؟ ولكن أين أحتفظ بها فى مكتبى فى الوزارة أم فى درج مكتبى فى المنزل ؟ وسريعا ما كان رد الفعل، وهو بأى حق أحتفظ بها ؟ فليس لى هذا الحق، وإن الأمر الموكول إلى فقط هو التعامل معها لا

أن أتملكها، وخلصت إلى قرار نهائى وهو أنها ورقة ملك الدولة وموقعها فى وزارة الخارجية وملفاتها، وعاهدت الله سبحانه وتعالى الذى هدانى إلى أن أنفض يدى من الوثائق وأدعها تمر إلى منتهاها ولا أقبض بيدى على أى منها، وكان قرارا أراحنى كثيرا طوال حياتى الدبلوماسية، وسعدت أن أرى الوثائق التى ترسم المستقبل وهى تصبح تاريخا ماضيا فيما بعد وكان فى هذا رضاء كافيا.

وفى خضم هذا البحر من الوثائق والبرقيات المشفرة عشت زمانا نادرا وأنا أرى العالم أمامى على مدى ٢٤ ساعة تبعا للاتصالات مع السفارات المنتشرة حول الكرة الأرضية ودورانها حول الشمس وأرى الموضوعات والمشاكل الدولية واتخاذ القرار بشأنها على أعلى مستويات السلطة فى الدولة.

وأعود إلى قضية الاحتفاظ بنسخة من الوثائق السرية أو البرقيات الرمزية، وما سيحدث بها عندما تصبح تاريخاً وقد شاهدت الكاتب حسنين هيكل وقد استخدم هذه الوثائق فى سلسلة أحاديثه مع هيكل على قناة الجزيرة الفضائية، ولاأذكر أن هيكل قد طلب من وزارة الخارجية فى أى وقت موافاته بأي برقية شفرية كما أن اسمه لم يكن مدرجا على قائمة التوزيع الخاصة بالبرقيات، ولكن كلنا نعلم أن الوثائق السرية من البرقيات وغيرها كانت تصل إليه لاتصالاته المباشرة برئيس الدولة، وقد استخدم هيكل فى حديثه عن أزمة ٦٧، البرقيات الشفرية وعرضها على الشاشة التليفزيونية مع وثائق أفرجت عنها أمريكا وإنجلترا، وهو نظام متبع فى تلك الدول بالإفراج عن الوثائق السرية للدولة بعد فترة زمنية محدودة وهذا النظام غير متبع فى مصر، إن ما أتى به هيكل فى حديثه عن تاريخ مصر والأحداث السياسية مدعما بالوثائق الرسمية يعتبر منهجا فريدا له قيمته، وفى الحقيقة أنه كانت هناك محاولات متعددة فى عصر السادات وعصر مبارك لكتابة تاريخ مصر من واقع مستندات وملفات مهجورة وتشكلت اللجان لذلك ولكن جميعها باءت بالفشل، وكم من الوثائق ضاعت وفقدت من كبار المسئولين الذين آثروا أن يحتفظوا بالوثائق لأنفسهم فأضاعوا تاريخ مصر كما أضاعوا الوثائق ذاتها.

فياليت يكون الوقت قد حان لإرساء نظام خاص معلن بالدولة للكشف عن وثائقها السرية بعد مرور فترة زمنية معينة عليها، لإتاحة الفرصة للباحثين والمؤرخين ليعملوا على أسس من البحث العلمى التاريخى السليم، بدلا من الإرهاصات والحكاوى التليفزيونية لكل مسئول استطاع أن يخفى وثيقة فى جيبه وأن ينقلها إلى منزله إذا ترك موضعه ليصنع منها حكاوى مدفوعة الثمن يتحدث بها، ويمجد بها فقط راويها .

إن الدولة بتاريخها لها قدسيتها وحرمتها والدبلوماسي يدرك ذلك عند بداية عهده بالعمل الدبلوماسى، ولا يتردد فى اتباع الأسلوب الدبلوماسى الموقر الصحيح أن ما للدولة للدولة وما عليه إلا آداء واجبه إزاءها محافظا على القسم الدبلوماسى .

■ د. فهد بن عبد العزيز العسكر

ركيزة أساسية فى تجليته والحفاظ عليه

الإعلام والموروث الشعبى

لابد أن تذكر الدراسات التاريخية جهود الطاهر قيقة (تونس) والشاعر عبدالرحمن الأبنودى (مصر) وكذلك التفات اليونسكو مؤخراً لجمع هذه السيرة واعتبارها ملمحاً إنسانياً

ونحن نتحدث عن ثقافتنا الشعبية وضرورة المحافظة عليها فى بلادنا العربية كزاد ودافع لانطلاقنا نحو المستقبل، لابد لنا أن نعترف أن الإعلام العربى يعد ركيزة أساسية فى تجلية موروثنا الثقافى ووضعه فى المشهد الفكرى المعاصر، خاصة أن التجليات النظرية فى الإعلام قد أفسحت مجالاً لما يطلق عليه النظرية الثقافية The Cuilturalist Theory التى تعد أكثر النظريات الإعلامية إيجابية تجاه الثقافة الشعبية والجماهيرية(١) باعتبار أن هذه الثقافة وعاء يعكس الترتيبات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية فى المجتمع، أى مجتمع، حيث ترى هذه النظرية أن فهم العملية الثقافية فى أية دولة يتطلب بالضرورة، فهما للقوى المؤثرة فى تلك الدولة، وأن فهم هذه القوى وزنها الحقيقى يتطلب فهماً لدور الثقافة فى مجتمعها.

دعونا نقفز على التعريفات الخاصة بالثقافة والتى تتعدى المئات، وندخل إلى الثقافة من مدخل العالم البريطانى الشهير «تايلور» الذى قال فى تعريفه الكلاسيكى إن الثقافة هى الكل المعقد الذى يتضمن المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل المقومات الأخرى التى يكتسبها الإنسان كعضو فى

■ كاتب من المملكة العربية السعودية

الموروث الشعبى يتمثل عبر قطعة موسيقية أو أغنية شعبية أو عرضة نجدية

المجتمع(٢)، والذى يشير فيه إلى أن الثقافة تتضمن مظاهر العادات الاجتماعية التى يعيشها الناس فى مجتمعاتهم المختلفة.

فالثقافة وإن كانت تعبيراً ذاتيا للفرد أو الجماعة، إلا أنها تعيد إدراك العالم ـ أيضا ـ من جانب الفرد أو الجماعة وكيفية التعامل معه أو معها، وأهمية الثقافة ـ خاصة الثقافة الموحدة ـ أنها تتضمن ملامح مشتركة فى أكثر من مكان وقد تصل إلى أكثر من قطر ودولة، سواء فى الأزياء أو فى الالتفاف حول قصص بعينها (الهلالية ـ الزير سالم ـ الظاهر بيبرس... إلخ) وصولاً إلى تلك العادات والتقاليد المشتركة التى يمارسها الناس فى مناسبات بعينها، مع ملاحظة عدم الانغلاق أمام ثقافات وافدة والأخذ من بعضها رغم اختلاف هذه الثقافات عن ثقافاتنا العربية: فكرياً واجتماعياً وكذلك فى التقاليد وغيرها(٣).

وإذا كانت الثقافة الشعبية حاضرة لدى كل منطقة من أوطاننا، فإن الإعلام هو الذى يقوم بعمليات الغرس الثقافى عبر ما يقدمه من إضاءات وأفلام تسجيلية انتشرت هذه الأيام عبر قنوات تليفزيونية متعددة (قناة الجزيرة الوثائقية ـ قناة أبوظبى الوثائقية... إلخ) وعبر مئات البرامج التليفزيونية والإذاعية المسموعة وعشرات الصفحات التى تذخر بها بشكل دورى أغلب الصحف والمجلات وبخاصة فى منطقة الخليج، إذ أن هذا الغرس الثقافى الذى يربط الفرد بتاريخه الثقافى الشعبى المحكى أو المشاهد وغير المدون يحدث نتيجة للتعرض المكثف والمستمر لهذه الوسائل الإعلامية وفى مقدمتها ـ حالياً ـ التلفاز والإنترنت، حيث يتم التفاعل بين المضامين المقدمة وبين كثافة التعرض لهذه الوسائل من جانب الجمهور.

تفاعل ثقافي

وإذا كانت هذه الثقافة العربية الشعبية تتنوع وتختلف باختلاف المناطق التى تعبر عنها سواء كانت هذه المناطق محدودة أو تشمل كياناً ثقافياً كبيراً، فإن هذا لايمنع أن لكل منطقة حضارية ثقافتها الخاصة بها والتى تأتى أغانيها وقصصها وأمثالها ونكاتها معبرة عن هذه الخصوصية.

فأغانى الأفراح فى شمال المملكة العربية السعودية ـ على سبيل المثال ـ غيرها فى جنوبها والمنطقتان تختلفان عن شرقها (جدة) وغربها (الخُبر والدمام) وهذا لأن كل منطقة تأثرت بما حولها وبما يصلها من جيران ربما عبر الحدود..

لكنها جميعها تأخذ الملمح السعودى قيماً وأداء ومعنى.

والحال نفسه فى مصر حيث طقوس الأعراس جنوب الصعيد تختلف عنها فى واحة سيوة مثلاً أو فى الساحل الشمالى، والإعـــلام هو الرابط هنا بين مناطق ومراحل حضارية حتى لو امتدت هذه المراحل مئات السنين، فبالتأكيد عندما جاب محمد بن عبدالله اللواتى الطنجى الشهير بـ «ابن بطوطة» فى رحلاته ابتداء من يوم الخميس ٢ من رجب عام ٧٢٥هـ كلاً من المغرب ومصر وبلاد الشام والحجاز والعراق وتركيا والهند والصين وجزر الملايبار، والبنغال والباكستان، فإن ما رآه فى ذلك الوقت قد تغير بدرجة كبيرة تصل إلى ١٠٠٪ فى الإعمار والبنيان، فتبوك السعودية ـ التى تقع بين وادى القرى والشام ـ كانت حصناً بين عين ونخل وحائط ينسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم(٤) وعندما يصف ابن بطوطة قدومه إلى مكة المكرمة يقول إن الرمل يكون ذاهباً وعائداً بين الساعين فى البيت الحرام، وأن بين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه، والساعون بين الصفا والمروة لايكادون يخلصون لإزدحام الناس على حوانيت الباعة(٥) ولو أطل ابن بطوطة هذه الأيام على ساحة الحرم المكى ورمى نظراته على المساحة الحالية لأصابه الذهول مما جرى فقد وصلت هذه المساحة ٣٦٦١٦٨ متراً مربعاً شاملة مبنى المسجد الحرام والأسطح وكامل المساحات التى تتسع لحوالى ٨٢٠ ألف مصل فى الأيام العادية ولأكثر من مليون مصل فى مواسم العمرة والحج.

فرق كبير طبعاً بين زمن ابن بطوطة وزماننا والرابط بين الزمنين هو الإعلام الذى يعتبر بمثابة «ذاكرة الشعوب» عبر ما يقدمه من توثيق ومعلومات تعتبر أرشيفاً حياً يستدعيه الفرد عبر لمسة بسيطة من أصبعه إلى مؤشر كمبيوتر أو «زر» تلفاز أو قرص راديو لتنساب الذاكرة وتتمثل فى أذهاننا عبر قطعة موسيقية أو أغنية شعبية قديمة تعيد إلينا الحنين للماضى أو عرضة نجدية كان يمارسها المحاربون القدماء فى بلادنا ـ ويطلق عليها رقصة السيف فى بلاد أخرى ـ وتتناغم مع الأشعار المنسابة المعبرة عن ثبات الحركات السريعة فى هذا الفن الشعبى، أو عبر أى مكون ثقافى فولكلورى آخر.

ذاكرة شعوب

اضغط على قرص كمبيوتر أو أدر

مؤشر التلفاز إلى قناة فضائية توثيقية، ستنساب أمامك الذاكرة حية نابضة عفية معطاءة، وهذا دور من الأدوار المتعددة للإعلام.

لو أخذنا الألعاب الشعبية ـ على سبيل المثال ـ كلون من ألوان النشاط الشعبى الإنسانى فسنجدها تقريباً ـ عبر الوسائل الإعلامية ـ شبه متشابهة فى مناطق عربية متعددة وتضاف إليها ـ بفعل التحضر ـ أساليب جديدة تطور من أدائها، ومن هذه الألعاب(٦).

لعبة الزقطة

يقوم اللاعبون فيها بجمع عدد من حصوات صغيرة، ويقوم عدد منهم بقذف حصوة إلى أعلى ثم يلتقط حصوة من الحصوات التى على الأرض، وفى المرة الثانية يلتقط الحصوة التى قذفها إلى أعلى ويلتقط حصوتين من على الأرض، وهكذا.. ويتفنن الصغار والكبار والأولاد والبنات فى إتقان هذه اللعبة وإظهار مهاراتهم عبرها.. واللعبة نفسها منتشرة فى مصر وفى عدة بلدان عربية مع بعض تفاصيل إضافية أو مختلفة قليلة أو مسميات أخرى.

لعبة بطيخ يا بطيخ

وفيها يمسك والد الطفل بكف ابنه أو ابنته فينشرها ويمسح عليها، وفى كل مرة يقول: بطيخ يابطيخ.. ويمسح كف يد الابن أو الابنة وهو يكرر الكلمات السابقة، ثم يقول وهو يطوى أصابع الابنة أو الابن(٧):

هذى خنصر
وهذي بنصر
وهذى عيداء الطويله.
وهذي عوجاء طويله
وهذه ملحسة القدحان... إلخ

واللعبة نفسها موجودة فى مصر وإن كانت بكلمات أخرى تقول:

آدي البيضه
وآدي اللي قشرها
وآدي اللي سوَّاها
وآدي اللى أكلها

كرر.. كرر.. إلخ (يقولها الأب وهو يزغزغ ابنه أو ابنته).

ولعبات أخرى كثيرة منها: «لعبة عظيم سارى»:

ولعبة «يابونا جانا الذيب» و«رجلى ضالع» و«حدارجة مدارجة» التى تقول كلماتها:

حدارجه مدارجه
كلي عيني سارجه
يارايحين الحاضره
خدوا معاكم بقره

احلبوا واسقوني
حيني علي حيني
والرب يعطيني... إلخ

وهى تقريبا منطوقها فى مصر على النحو التالى:

ياطالع الشجره
هات لى معاك بقره
تحلب وتسقينى
بالمعلقة الصينى... إلخ

وهى الفكرة التى اتخذ منها العبقرى توفيق الحكيم عنواناً لإحدى أعماله المسرحية الشهيرة، ولايقتصر دور الإعلام فى جانبه الثقافى على تقديمه السائد والمعروف ولكنه يفتش عن الكنوز التى تضىء زمانها، من هذه الفنون فن «المواليا» الذى يذكر المؤرخون أنه نشأ فى الجزيرة العربية عندما فتك هارون الرشيد بالبرامكة فأمر أن لايرثيهم أحد بشعر معرب، وتوعد من يفعل ذلك، فانبرت إحدى جوارى جعفر البرمكى، ورثتهم بشعر ملحون كانت تقول فى آخره «ياموالياً».. وهى صيحة تشبه العدودة فى مصر.

وقد تطور هذا الفن بفعل الزمن.. ومنه(٨):

ست النسا «عزما» أحسنا وأزهاها
جل الذى فى كمال الحس أنهاها
فاقت من الحور أجملها وأشهاها
وأحسن نسا العصر وأجملها وأبهاها

وهى تشبه مربعات ابن عروس المعروف فى العالم العربى رغم تنازع أكثر من دولة: (مصر/ تونس) على اعتباره ابناً لها:

ويتأكد دور الإعلام فى إحياء «السيرة الهلالية» وإبقائها جلية متجلية لدى سكان آلاف القرى العربية، إذ تغطى هذه السيرة بالذات منطقة جغرافية عريضة امتدت من الجزيرة العربية حيث نشأة الهلاليين، مروراً بهجرتهم الأولى إلى الأردن وفلسطين، ووصولاً إلى مصر والمغرب العربى «تونس الخضراء» وكيف أدت هذه القبائل العربية دوراً مهماً فى ترسيخ أركان الدين الإسلامى حيث إن النبى صلى الله عليه وسلم أسكنهم وادى العباس(٩).

إن ملامح البطولة التى تجسدها «السيرة الهلالية» معروفة في تونس ومصر والسعودية وفلسطين وغيرها، ولابد أن تذكر الدراسات التاريخية جهود الطاهرقيقة (تونس) والشاعر عبدالرحمن الأبنودى (مصر) وكذلك التفات اليونسكو مؤخراً لجمع هذه السيرة واعتبارها ملمحاً إنسانياً.. عبر جهود أساتذة مرموقين فى هذا المجال منهم د. أحمد مرسى، ود. أحمد شمس الدين الحجاجى.

الإعلام يفعل ذلك كله وغير ذلك من تقديم ملامح شعبية إنسانية فى السيرة الهلالية تتسم بالواقعية ـ رغم إضافة الكثير والكثير وغير المعقول عند روايتها ـ وكذلك بالحيوية التى ترسم أدق خلجات النفس بصورة راقية ومركبة فى رهافة ظاهرة ومتجلية (١٠) وهذه الملاحم والألعاب والألغاز، والأحاجى، وأغانى الأفراح، وعديد المآتم وغيرها ترسخ معتقدات عربية وقيماً أخلاقية وتعلم بعض المعارف الشعبية وكذلك الترويح فى إطار الحياة الشعبية، وهذا كله لم يكن له أن يستعاد إلا بالوسائل الإعلامية المتجددة والمتعددة والمتنوعة التى أجازت لنا أن نقول إن السماء تمطر إعلاماً وثقافة.

المراجع:

١ ـ Denis Me Quil, Mass Communication Theory, Second ed, (Y. S. A,. Sage Publieations: 1967) pp. 28: 35.

٢ ـ مصطفى النشار، فى فلسفة الثقافة، ط١، (القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع: ١٩٩٩) ص٧٨.

٣ ـ أوليرى، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ترجمة حسان تمام (القاهرة، عالم الكتب، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ص ١٠.

٤ ـ رحلة ابن بطوطة: شرح طلال حرب (لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية: ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) ص ١٢٩ وما بعدها.

٥ ـ السابق نفسه، ص ١٦٢.

٦ ـ سليمان الشرارى، «ألعاب شعبية من الجوف ووادى سرحان»، جريدة «الجزيرة» السعودية، العدد: ٩٩٨٨، فى ٢٦ من شوال ١٤٢٠هـ

٧ ـ ليلى عبدالرحمن السلطان، ألعاب شعبية من المملكة العربية السعودية، مجلة «الحرس الوطنى» (الرياض، الحرس الوطنى: ١/٣/٢٠٠٥م).

٨ ـ رضا محسن محمود، المواليا: سلسلة ذاكرة الكتابة (القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة: ١٩٩٩)، ص٦٥.

٩ ـ شوقى عبدالحكيم، تراث شعبى، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب: ٢٠٠٥)، ص١١١.

١٠ ـ أحمد رشدى صالح، الأدب الشعبى، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢) ص٢٧.

■ معصوم مرزوق

الفتنة في مجلس اللوردات

" الفتنة نائمة ، لعن الله من أيقظها " .. حكمة سارت بين السنين، وأثبت التاريخ صحتها في العديد من الوقائع الدموية ، ومع ذلك فإن البعض في مجلس اللوردات البريطاني لا يبدو مقتنعاً بهذه الحكمة ، فهو لم يكتف فقط بإيقاظ الفتنة ، وإنما أصر على أن تدخل قاعة مجلس اللوردات الموقر..

على أوروبا والعالم أن ينتبهوا لتلك الأصابع المشبوهة التي تسيء استخدام الحرية للإضرار باستقرار وسلام العالم كله

بعد شد وجذب سياسي وقانوني، تمكن النائب الهولندي المتعصب " جيرت فيلدرز " من عرض فيلمه " فتنة " في إحدى قاعات مجلس اللوردات البريطاني يوم ٥ مارس الماضي ، وذلك بناء على دعوة عضوين فقط من المجلس وهما اللورد الموقر « بيرسون» ، والبارونة الموقرة «كوكس» ..

الفيلم مدته ١٥ دقيقة ، يعرض فيها أجزاء من القرآن ، مصحوبة ببعض لقطات من هجمات الحادي عشر من سبتمبر ، والاعتداءات الإرهابية في كل من مدريد ولندن ، ويؤكد النائب الهولندي أن " الديمقراطية " و " الإسلام " غير متوافقين ، وأن الإسلام ديانة شمولية سلطوية ، كما قارن بين " القرآن " وكتاب " كفاحي لـ " هتلر " زاعماً أنه دليل على فاشية وإرهابية الدين الإسلامي ..

وكانت محاولة سابقة لعرض الفيلم في المجلس قد باءت بالفشل في فبراير من العام الماضي ، وصدر أمر بمنع النائب الهولندي من

■ كاتب و دبلوماسي

أحداث سبتمبر المفتعلة المشبوهة التى أشعلت الفتنة

دخول الأراضى البريطانية ، ولكنه حصل على حكم من المحاكم البريطانية لصالحه فى أكتوبر الماضى ، وبالتالى لم يعد هناك عائق قانونى لدخوله إلى بريطانيا .

ومن المعروف أن النائب الهولندى المتطرف يرأس حزب الحرية فى فنلندا ، وهو الحزب الذى حقق انتصارات ملموسة فى الانتخابات المحلية مؤخراً ، وإذا استمر صعوده فقد يصبح هذا النائب رئيساً لوزراء هولندا فى يونيو القادم ، علماً بأن عدد المسلمين فى هولندا يزيد على مليون نسمة .

وقد قالت البارونة الموقرة :إن زيارة النائب الهولندى وعرض فيلمه فى مجلس اللوردات يعد انتصاراً لحرية التعبير ، بينما أعرب متحدث باسم الحكومة البريطانية عن الأسف سرار عضوى مجلس اللوردات عرض الفيلم فى المجلس.

ومثلما الحال فى أزمة الرسوم المسيئة فى الدانمارك ، دار الجدل الحاد حول مفهوم حرية التعبير ، وانطلقت عقيرة النائب الهولندى ومن لف لفه توجه السهام ليس فقط ضد المسلمين ، وإنما ضد الإسلام كدين ، بل وصرح نفس النائب بأنه لو فاز حزبه فى الانتخابات القادمة فإنه سيسعى إلى طرد المسلمين من أوروبا ، محذراً من خطورتهم .

من الصحيح أن العائق القانونى قد أزيح أمام ذلك النائب المتعصب للدخول إلى بريطانيا ، ولكن ألا توجد معايير

أخلاقية أو ضوابط سياسية لمجلس اللوردات البريطاني؟.. وأسارع بالتحفظ بأن اثنين فقط من أعضاء هذا المجلس هما اللذان تقدما بالدعوة ، ووحدهما فقط من تمتعا بمشاهدة الفيلم من بين الأعضاء .. ولكن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً ، فلقد تمكن شخص موتور من فرض رؤيته الخاصة التى تسىء إلى حوالى بليون ونصف البليون مسلم فى العالم ، ليس هذا فحسب ، بل إن رسالته تؤدى حتماً إلى مزيد من الحض على الكراهية والتعصب ضد المسلمين فى أوروبا ، بما فى ذلك من ردود أفعال معاكسة تزيد من حدة الاستقطاب الدينى فى العالم ..

لا شك فى أن حق النائب الهولندى فى حرية التعبير مكفول ، ولا ننازعه حقه فى إبداء ما شاء من آراء ، وهذه بالمناسبة تعاليم وسلوكيات الدين الإسلامى " لهم دينهم ولى دين " ، ومهما كانت الافتراءات والإساءات التى تتضمنها هذه الآراء ، حيث لا يكون الرد الصحيح عليها إلا بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن المشكلة هى مأسسة هذا الرأى وهذه الإساءات ، أى وضعها فى إطار مؤسسة يفترض فيها الرشاد والتعقل ، حيث توازن بين حمأة الآراء الخاصة وتطرفها وبين الإطار الأخلاقى والسياسى العام الذى يحتويها أو يؤدى إليها .

كم من مجنون مريض بالهوس يصرخ بالمعقول وغير المعقول ، وهذا مكانه الطبيعى مصحات العلاج النفسى وليس مجلس اللوردات البريطانى الموقر أو برلمانات الشعوب ، ولا ننسى أن مجنوناً آخر " أدولف هتلر " تسلل من باب حرية التعبير والديمقراطية كى يقود ألمانيا والعالم إلى جحيم الحرب العالمية الثانية ، وفى ظنى أن المشكلة لم تبدأ عندما تنازل تشامبرلين رئيس وزراء بريطانيا فى ميونيخ للطاغية الألمانى المجنون ، وإنما بدأت عندما أتيح لهتلر أن يتسلق بأفكاره العنصرية إلى قمة هرم السلطة فى ألمانيا .. وهناك تشابه كبير بين ما يذكره الآن النائب الهولندى عن نيته طرد المسلمين من أوروبا ، وما كان يذكره هتلر عن اليهود .

كم من الجرائم صارت ترتكب تحت عباءة " حرية التعبير " ، إلا أن جريمة " الفتنة " من أشد هذه الجرائم ، وتتطلب موقفاً حاسماً من

النائب جيرت فيلدرز

اللورد بيرسون

تداعيات التعصب ضد الإسلام والصور المسيئة للرسول الكريم فى أوروبا

المشرعين الأوروبيين قبل فوات الأوان ، ولعلنا نذكر الموقف الأوروبى من " يورج هايدر " السياسى النمساوى حين اتضح أن لدى حزبه فرصة كبيرة عام ١٩٩٩ لتولى الحكم ، حيث هدد الاتحاد الأوروبى بمقاطعة النمسا على خلفية أن السياسى المذكور لديه مواقف متطرفة معادية للسامية .. لقد مات الرجل بعد ذلك فى حادثة سيارة يشتبه أن الموساد الإسرائيلى كان متورطاً فيها ، وهذا لا يهمنا فى هذا المقام ، وإنما ما يهمنى هو ازدواجية المعايير فيما يتعلق بحرية التعبير ، فعلى الرغم من أن تصريحات " هايدر " النمساوى لم تكن تؤدى إلى فتنة بأى حال ، فإن أوروبا كلها وقفت معارضة له ، فى حين أن تصريحات وتصرفات " فيلدرز " الهولندى تجد ترحيباً ، بل وصدراً حنوناً من البارونة الموقرة " كوكس " التى ترى فيها " انتصاراً لحرية التعبير " ..

لقد علمنى أبى منذ نعومة أظافرى " أننى حر فيما لا يضر " ، وإذا كانت " الفتنة " أشد من القتل، فإن " فتنة " فيلدرز ليست فقط ضارة، وإنما تعد جريمة متكاملة الأركان ، وعلى أوروبا والعالم أن ينتبهوا لتلك الأصابع المشبوهة التى تسىء استخدام الحرية للإضرار باستقرار وسلام العالم كله ، وأظن أن "اللعنة " فقط ليست كافية لمن يشعل الفتنة..

معراج نامة

إلى: د. ماهر شفيق فريد

شعر: ماجد يوسف

.. وف أول سما كان فيه دخان
بيشكّل شعب كبير م الجان
عاملين زوبعه من غير فنجان
تنويعه بديعه بألوان طيف
سحرها شعشاع
وانا سارى بخفة نفس وروح
باتضوع عطر منين ما بروح
وغريبه ان انا بانطق وبابوح
من غير كلمات ولا لغه ولازيف
ملو الأسماع
أرواح بترحب بيَّا بشوق
وتاخدنى عشان نطلع على فوق
وملايكه سعيده بينفخوا بوق
وكأنه فريق ترحيب بالضيف
إن حس ضياع
وانا ماشى كأنى شعاع من نور
مطرح ما بروح باحرق ديجور
واكشف عن عالم كان مستور
وانا باقطع فيه وكأنى السيف
باتر .. لمَّاع
شفت الدخان يرقص ف سحاب
والغيمه تبان بالضبط سراب
والسما بنيان مليان أبواب
فى بيبان للحكمه .. وباب تحاريف
مليان أنطاع
تدخل م الباب تلقاه بيدوب
وتحس بعالم مش محسوب
وان انت دخلت كتاب مكتوب
وحروفه بتنطق نطق مخيف
مفعم إقناع
والباب من دول لين .. مفتوح

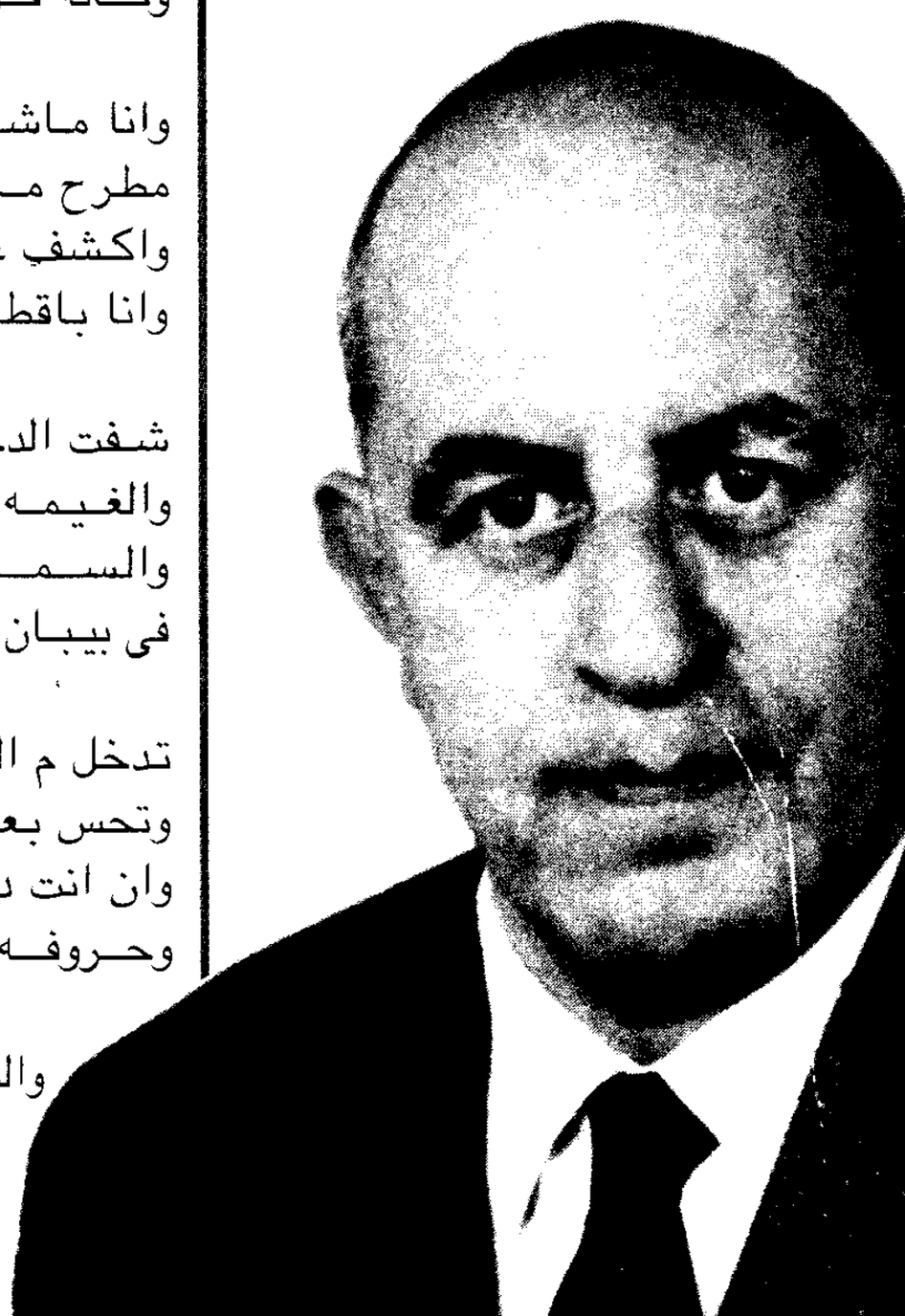

وتخـــشـــه تحس بردة روح
وان انت كمان جواك مفضوح
ظاهر بوضوح من غير تعريف
ومالكش قناع
وانك ف محيط مليان أبعاد
له عمق محيط مفعم بوداد
والبحر غويط أمواجه قتاد
وانك ف عناية ســـر لطيف
قادر له باع
وبالاقى إجـــابه لكل ســـؤال
بمجرد يخطر كده ع البال
وساعات أسئله إجاباتها وبال
تشعر لها ردة فعل عنيف
وجدل وصراع
وباحس ان انا أسرع م الضوء
وباشوف بعيون بره الصندوق
واســـتـــوعب علم بفكر طلوق
وبروح بتزيد وعى وتثقيف
ورضا وامتاع
عديت لسماء دخانها شواظ
فى بروق ورعود بحواف ألماظ
وعيون ف مرايا كبار .. وجحاظ
وبتغلى ف قِدر سماوى كثيف
دِن بدون قاع
والدن كـــأن ف كُن سَـــميك
من كَل جهَاته عليه أساميك
وتخشه تحسه قوام سما بيك
لبصر وبصيره ووعى شفيف
كان سر وذاع
حيوات بتحاوطك بالبراهين
على ان الشك مـــحك يقين
وان انت الرك عليك إلى حين
طول ما انت بتضرب زى كفيف
فى ودع .. ووداع
وتنور شـــمس الروح إشـــراق
وتحس ان انت بتـــملا آفاق
وف لحظه بتسرى ف ألف مساق
والرحله معاك بتضم لفيف
عاملين إجماع
وتحس بمنطق ف التـــحليق
مال هوش برهان ولا له تحقيق
ومالوش ف الدنيا كمان تصديق
لو قلتـه لحد يقول : تخاريف
أو محض خداع
وبصيرتك كاشفه بواطن كون
ومـــا بينك والأسرار كذا بون
عن حرف الكاف والواو والنون
وأسير كان حر وله تكليف
وبصيرته مشاع
طالع ف مطالع لها معراج
ف مدارج دارج فوق أبراج
بسلالم عاج وزجاج زجزاج ..
ويا قوت بللورى الحمره شريف
له ألف شعاع
يا سلام على حس الروح بسموق
من غير لا ايدين ولا راس .. ولا سوق
وانت انت ف كون لانهائى .. طلوق
ولا عدش زمان ولا كم وكيف
والحيز ضاع

نافذة على الثقافة العالمية

د. ماهر شفيق فريد

إنجلز والرأسمالي الشيوعي

فى عدد مارس من «الهلال» حدثت القارئ الكريم عن واحد من أعمدة ثورة أكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية فى روسيا هو «ليون تروتسكى». واليوم أحدثه عن واحد من الآباء المؤسسين للشيوعية هو «فردريك إنجلز»، رفيق ماركس فى كفاحه وزميله فى صياغة «بيان الحزب الشيوعى» (١٨٤٨)، ومحرر الجزءين الثانى والثالث من كتاب ماركس «رأس المال» بعد رحيل هذا الأخير عن الدنيا فى ١٨٨٣ .

ومناسبة هذا الحديث هى صدور كتاب جديد من تأليف ترسترام هنت عن دار «آلن لين» للنشر بإنجلترا فى ٤٦٤ صفحة، يحمل عنوان الشيوعى مرتدى الفراك (وهى بتعريف قاموس المورد - سترة رجالية سوداء تبلغ الركبتين) : الحياة الثورية لفردريك إنجلز .

كان إنجلز فيلسوفا سياسيا ورجل أعمال ولد فى برمن بغرب ألمانيا، وأقام مع ماركس مذهب «الاشتراكية العلمية» المناهضة للاشتراكيات الطوباوية بقدر مناهضتها للنظام الرأسمالى . عاش أغلب حياته فى إنجلترا، ابتداء من عام ١٨٤٢، حيث نشر كتابه المسمى «وضع الطبقة العاملة فى إنجلترا» (١٨٤٥) كان شريكا فى ملكية مصنع إرمن - إنجلز للأقطان بمدينة مانشستر، ثم تحول إلى الشيوعية تحت تأثير مفكر راديكالى هو موسى هس . وبعد أن التقى بماركس لأول مرة لقاء قصيرا فى كولونيا، زاره فيما بعد فى باريس وتكونت بينهما صداقة شخصية وفكرية وطيدة من منطلق إيمانهما المشترك بالاشتراكية . كان يدعم ماركس بالمال، ويساعده فى تنظيم حركة شيوعية دولية، وقام على نشر مخطوطاته التى تركها - كاملة أو ناقصة - عقب وفاته .

وقد كانت لإنجلز آراء فى الأدب والفن عبر عنها فى رسالتين إلى روائيين طامحين : رسالة إلى مينا كاوتسكى فى ١٨٨٥ يقول فيها إنه ليس بحال من الأحوال ضد الأدب الذى يرمى إلى بث أفكار سياسية أو اجتماعية ولكنه يعتقد أن «الدعوى ينبغى أن تنبثق من الموقف والحدث ذاته، دون أن تعرض صراحة» والرسالة الثانية كتبها بالإنجليزية إلى مرجريت هاركنس فى ١٨٨٨ عند تلقيه نسخة من روايتها عن حياة البروليتاريا «فتاة من المدينة» وفى هذه الرسالة ينتقد الرواية لأنها «ليست واقعية بما فيه الكفاية» مضيفا «أن الواقعية - فى نظرى - تتضمن إلى جانب صدق التفاصيل، إعادة إنتاج صادق لشخصيات نمطية فى ظروف نمطية.. وفى رواية «فتاة من المدينة» تبدو الطبقة العاملة وكأنها كتلة سلبية، عاجزة عن أن تساعد نفسها ويكرر أنه «كلما بقيت آراء المؤلف مختفية، زادت جودة العمل الفنى» وهى كلمات فسرت

■ كاتب وأستاذ جامعى

على نحوين متناقضين : فهى يمكن أن تكون دفاعا عن ضرورة الالتزام السياسى فى الفن، ويمكن أن تكون مناهضة لهذا الالتزام .

ومن الإنصاف لإنجلز أن نضيف أن نظرته إلى الفن قد تطورت عبر السنين، وأن ماركسيته كانت أرحب أفقا من انغلاقية زدانوف وغيره من منظرى الواقعية الاشتراكية فى عهد ستالين . وفى ذلك يقول رينيه ويليك « هناك عدة رسائل لإنجلز كتبت فى التسعينيات - تسعينيات القرن التاسع عشر - تعبر عن تراجع محدد عن الجبرية الاقتصادية المباشرة فى النظريات المبكرة، ففى رسالة إلى جوزيف بلوخ (٢١ من سبتمبر ١٨٩٠) يعترف إنجلز بوجود تفاعل بين البناء الفوقى والقاعدة الاقتصادية بل حتى أنه يتشكك فى أن التغير الاقتصادى هو العامل الحاسم الواحد فى التغير التاريخى» (ويليك، تاريخ النقد الأدبى الحديث ١٧٥٠ - ١٩٥٠، المجلد الثالث : عصر التحول، ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد ، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩، ص ٤٦٠) .

وقد كتب روبرت سرفيس - فى ملحق الثقافة الصادر عن جريدة «ذا سندای تايمز» البريطانية - عرضا لكتاب هنت عن إنجلز تحت عنوان «بيان رأسمالى» (وهى إشارة ساخرة إلى بيان ماركس وإنجلز الشيوعى) يقول سرفيس : لقد طور إنجلز مع ماركس نظرية تقول بأن الرأسمالية مآلها حتما إلى السقوط، وما كانا ليدهشا لو أنهما شهدا أزمتها المالية الراهنة .

فردريك إنجلز

كان إنجلز يناهز الخمسين حين ترك مكتبه - مكتب إرمن وإنجلز - فى شمالى إنجلترا ليتفرغ كلية لقضية الثورة الاشتراكية، لقد ولد لأسرة ألمانية صناعية فى إقليم الراين عام ١٨٢٠، وسرعان ما صدم أبويه بآرائه الراديكالية. وعندما شبت الثورات فى أوروبا خلال عام ١٨٤٨ - انظر رواية فلوبير «التربية العاطفية» - شارك فيها .

لقد ظل دائما - وهذه هى المفارقة فى حياته - مالك مصنع رغما عنه، أى أنه كان رأسمالياً بحكم المولد والوظيفة. وقد اضطر إلى أن يواصل أعمال أبيه التجارية فى مدينة مانشستر كى يوفر المال الذى يحتاجه - هو وماركس - كى يعيشا فى بحبوحة من العيش. لقد كان ماركس مبذرا خليعا يعيش دائما على حافة الإملاق، أما إنجلز فكان أكثر حرصا على المال، ولكنه لايبخل به على ملذاته. فقد كان يخرج لصيد الثعالب - شأن الارستقراطيين الإنجليز - ويشرب أحسن أنواع النبيذ والجعة، ويعاشر عدة نساء، بعضهن من البغايا. وكان يلبس حسب آخر صيحة فى عالم الموضة .

لقد حافظ على مظاهر وضعه

البرجوازى وذلك بأن فصل بين حياته - من حيث هو رأسمالى - وحياته من حيث هو شيوعى . اشترى رجل الصناعة الألمانى هذا بيتا ثانيا فى مانشستر أنزل به عشيقته الأيرلندية النارية مارى بيرنز وكان يستقبل فيه أصدقاءه من الاشتراكيين . وعندما توفيت مارى حلت أختها ليزى محلها فى فراشه. كان رجال الصناعة فى شمال إنجلترا يدركون أنه «أحمر» (كناية عن شيوعيته) ولكنه كان يلزم الحرص فى ممارسة أنشطته السياسية والجنسية، ومن ثم لم يستبعده المجتمع الإنجليزى .

وبعد عام ١٨٦٩- عندما اشترى منه الأخوان إرمن نصيبه فى المصنع - انتقل إلى لندن وأحسن استثمار ماله فى مشروعات أخرى.

ولإنجلز عدة أعمال نقلت إلى اللغة العربية عبر السنين : كتاب «أنتى «ضما دوهرينخ» من ترجمة فؤاد أيوب «نصوص مختارة» من ترجمة وصفى النبى «الماركسية» من ترجمة ماهر نسيم، ولكن أحظى كتبه بعناية مترجمينا وكتّابنا ربما كان كتاب «ديالكتيك الطبيعة» : ترجمه كاملا محمد أسامة القوتلى، ولخصه د.توفيق سلوم فى كتاب مستقل صدر عن دار الفارابى ببيروت، وكتب عنه د. إمام عبدالفتاح إمام على صفحات مجلة «الفكر المعاصر» (أغسطس ١٩٦٨).

وممن كتبوا عن إنجلز الدكتور رمسيس عوض فى كتابه «موقف ماركس وإنجلز من الآداب العالمية» ومحيى الدين خطاب فى مقالة ضافية «فردريك إنجلز : رائد الفكر الاشتراكى الحديث» (مجلة الفكر المعاصر، أغسطس ١٩٧١) وللعقاد عدة كتب ومقالات تهاجم المذهب الشيوعى، وتنحرف - فى كثير من الأحيان- عن الموضوعية العلمية إلى الطعن الشخصى (مذهب ذوى العاهات .... إلخ) وأقرب منه إلى التوازن الدكتور زكى نجيب محمود - حامل لواء الوضعية المنطقية فى بلادنا - الذى ختم مقالة رصينة له عن «الماركسية منهجا» (مجلة الفكر المعاصر، مايو ١٩٦٥) بقوله : «فمهما يكن من أمر النظرية الماركسية من حيث موضوعها ومادتها، فأحسب أن بها ثغرات فى منهج استدلالاتها» .

ومن الكتب المترجمة التى تتضمن فصولا عن إنجلز كتاب «التراث الغامض ماركس والماركسيون» لسيدنى هوك الذى كان رئيسا لقسم الفلسفة بجامعة نيويورك، وترجمه سيد كامل زهران (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦)

وقبل ذلك أصدرت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت كتابا مترجما عن إنجلز من تأليف جريس كارلتون.

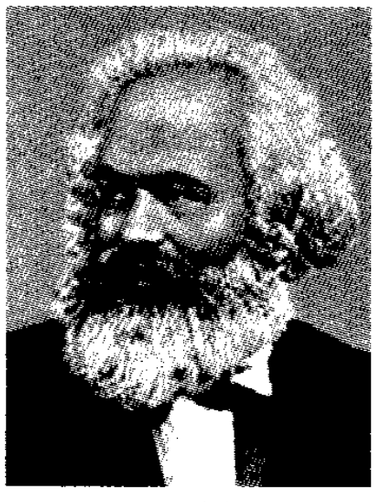

ماركس

ستالين

في صدد إ.م. فورستر

إ.م. فورستر (١٨٧٩ - ١٩٧٠) روائى إنجليزى عرف بروايته «طريق إلى الهند» (١٩٢٤) التى صورت توترات الحياة فى شبه القارة الهندية أثناء وقوعها تحت حكم التاج البريطانى، وانعكاس ذلك على العلاقات الشخصية بين الإنجليز والهنود وبين أفراد كل قومية من هاتين القوميتين وحديثا صدر عنه كتاب قصير نسبيا (١٨٠ صفحة) عنوانه «فى صدد إ.م. فورستر» من تأليف الناقد البريطانى المعاصر فرانك كيرمود .

وكيرمود فى اعتقادى واحد من أعظم ثلاثة نقاد فى العالم الأنجلو - سكسون اليوم (الاثنان الآخران - عندى - هما كرستوفر ريكس وجورج شتاينر). ولد فى ١٩١٩ فى آيل أوف مان لأب بقال . تلقى دراسته فى جامعة ليفربول، أدى الخدمة العسكرية فى البحرية الملكية البريطانية (١٩٤٠ - ١٩٤٦) اشتغل بالتدريس فى كلية الملك بـ«نيوكاسل» ثم فى جامعة ردنج. حرر طبعة من مسرحية شكسبير «العاصفة» (١٩٥٤) ثم أصدر أول عمل نقدى مهم له وهو كتاب «الصورة الرومانسية» (١٩٥٧) انتخب زميلا بـ «الجمعية الملكية للأدب» فى ١٩٥٨ انتقل إلى جامعة مانشستر أستاذا للأدب الإنجليزى بها (١٩٥٨ - ١٩٦٥) نشر «ولاس ستفنز» (١٩٦٠) «أحاج وتجليات» (١٩٦٢) «جون دن» «شكسبير المسرحيات الأخيرة» (١٩٦٣) ثم غدا أستاذ كرسى الأدب الإنجليزى بجامعة برستول (١٩٦٥ - ١٩٦٧) ونشر «الإحساس بالنهاية» (١٩٦٧

إ. م . فورستر

- له ترجمة عربية) كما كان أحد رؤساء تحرير مجلة «إنكاونتر» لفترة قصيرة (١٩٦٦ - ١٩٦٧) انتقل إلى كلية الجامعة بلندن (١٩٦٧ - ١٩٧٤) حيث نشر «استمراريات» (١٩٦٨) ومجلدين من المقالات : «مقالات عن عصر النهضة : شكسبير وسبنسر ودن» و«مقالات حديثة» (كلاهما فى ١٩٧١) «فن الأخبار» (١٩٧٢) «د.هـ.لورنس» (١٩٧٣ . له ترجمة عربية بقلم أ.ز.بسطامى) حرر سلسلة «أساتذة محدثون» التى تصدرها مكتبة فونتانا وشارك فى تحرير «منتخبات أكسفورد من الأدب الإنجليزى» (بالاشتراك مع جون هولاندر ١٩٧٣) غدا أستاذا بجامعة كمبردج (١٩٧٤ - ١٩٨٢) ونشر «العمل الكلاسى (١٩٧٥) و «تكوين السرية» (١٩٧٩) استقال من جامعة كمبردج فى ١٩٨٢ ثم اشتغل أستاذا زائرا بجامعة كولومبيا

الأمريكية وأستاذا للشعر بجامعتى هارفرد وبيل ، وفى كندا، له «مقالات عن القصة ١٩٧١ - ١٩٨٢» (١٩٨٣) «أشكال الانتباه» (١٩٨٥) «التاريخ والقيمة» (١٩٨٨) «شهية للشعر» (١٩٨٩) «فوائد الغلط» (١٩٩١) «لغة شكسبير» (٢٠٠٠) وقد أنعم عليه بلقب «سير» فى ١٩٩١.

ومن أعماله الأخرى أنه حرر كتاب «ملتن الحى» (١٩٦٠) و «كتاب أكسفورد للرسائل» (بالاشتراك مع زوجته الثانية أنيتا كيرمود ١٩٩٥) وله كتاب ذكريات عنوانه «ليس من حقى» (١٩٩٥) وحرر «مجموعة أشعار ولاس ستفنز ونشره» (بالاشتراك مع جوان رتشاردسن فى ١٩٩٧) .

وقد ظهر عرض لكتاب كيرمود عن فورستر فى عدد ١٧ يناير ٢٠١٠ من «صحيفة ذانيويورك تايمز لعرض الكتب » بقلم إدموند هْوايت . وهوايت يشتغل بتدريس فن الكتابة فى برنستون، وله عدد من السير والروايات وكتب الرحلات والمسرحيات. وأحدث كتاب له عنوانه «صبى من المدينة» يحكى ذكرياته عن مدينة نيويورك فى ستينيات القرن الماضى وسبعينياته .

يقول هوايت : إن كيرمود - الذى أتم التسعين من عمره فى العام الماضى - قد كتب هنا كتابا فاتنا يمتاز بالحذق المستخفى، وهو يبدأ فصله الأول بالوقوف عند كتاب فورستر المسمى «أوجه الرواية» (١٩٢٧) فيسمى فصله «أوجه الأوجه» مستكشفا ما يثيره من قضايا استاطيقية ومستعرضا حياة فورستر وعلاقته بكتّاب آخرين مثل فرجينيا ولف ود. هـ . لورنس.

وليس هناك ما يدعو إلى الاستغراب فى توقف كيرمود عند كتاب «أوجه الرواية» فهو من أجمل الأعمال النقدية التى تتناول مختلف جوانب هذا الفن من حكاية وحبكة ورسم للشخصيات وإيقاع ومعالجة للزمان والمكان. حقق فورستر هذا كله على نحو يمتاز بالرشاقة والفطنة ويخلو من التقعر الأكاديمى، مما جعل كتابه من أحب الأعمال النقدية إلى قلوب القراء . وهذا نموذج من الكتاب (له ترجمة عربية) ربما نقل شيئا من مذاقه الجذاب :

«يمكننا أن نعرف الخطر الذى كان يحدق بالقصاص حينما نفكر فى مهمة شهرزاد فى الأزمنة الحديثة نسبيا، وقد نجت شهرزاد من سوء مصيرها، لأنها عرفت كيف تحسن استخدام سلاح التشويق، تلك الأداة الوحيدة فى الأدب التى لها سلطان على الطغاة والمتوحشين ورغم أن روايتها كانت رواية عظيمة، رائعة فى وصفها، عادلة فى حكمها، ذكية فى سرد الحوادث، تقدمية فى دروسها الأخلاقية، حية فى تصويرها للشخصيات، خبيرة فى معرفتها بثلاث عواصم شرقية، رغم كل هذا لم تعتمد على شىء من هذا وهى تحاول أن تنقذ حياتها من زوجها الفظ، بل كانت كل هذه الأمور ثانوية، أما هى فلم تبق على قيد الحياة إلا لأنها استطاعت أن تجعل الملك يتساءل دائما : ماذا سيحدث بعد ذلك؟ وفى كل مرة تدركها شمس الصباح تتوقف فى منتصف الجملة، تاركة إياه يحملق فيها

كـــالمذهول : «وفى هـذه اللحظة أدرك شـهـرزاد الصبـاح فسكتت عن الكلام المباح» هذه الجملة القصيرة الجافة هى العمود الفقرى فى «ألف ليلة وليلة» هى الدودة الشـريطيـة التى تربط أجـزاءها وهى التى أنقذت حيـاة أكثر الأميـرات دهاء» (ترجمة كمال عياد جاد) .

ويقول هوايت إن كتاب «فى صدد إ.م. فورستر» يكشف عن كل مـزايا كيـرمـود الناقد فهو واسع العلم (يحمل أحد كتبه هذا العنوان الفرعى : «من بيولف إلى فيليب روث» أى من ملحمـة أنجلو – سكسـونيـة قديمة من القرن العاشر الميلادى وصولا إلى روائى أمريكى يهودى معاصر مازال يواصل الكتابة) إنه مهتم بكل أوجه الفن القصصى (ثقافة وخيوطا وشكلا وتقنية) على نحو منبه ومترابط منطقيا

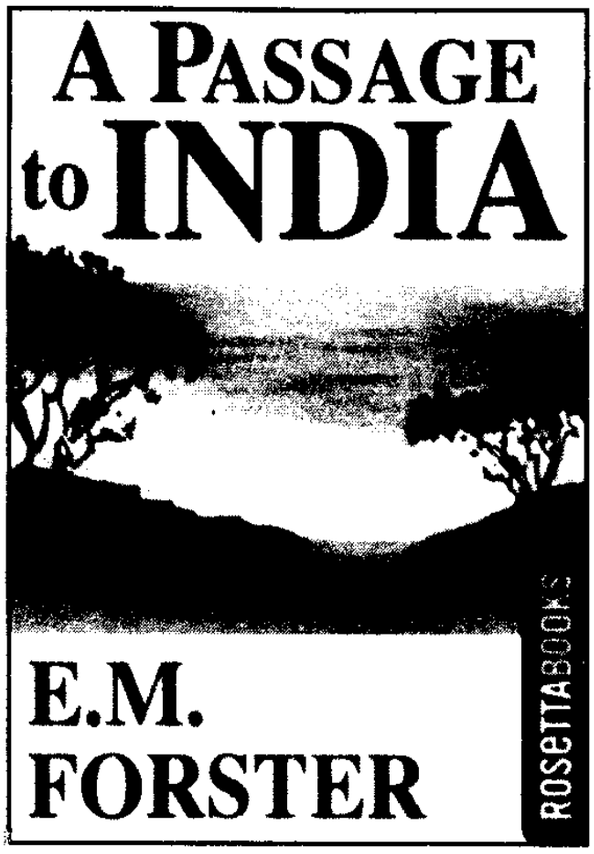

رواية « طريق إلى الهند»

رجل فى مصطدم عصرنا

أى حيـاة حـافلة قـد عـاشـهـا هذا الرجل! وأى خبرات قد مر بها ! لقد تلقى تعليـمـه فى آخـر أيام الإمبـراطورية النمساوية – المجرية فى روضة تجريبية للأطفـال بمدينة بودابست . كـانت أمـه لفترة قصيرة من مرضى سيجموند فرويد . وفى فـيـينا فى فـتـرة مـا بين الحـربين العالميتين انتهى به الأمر إلى أن اشتغل سكرتيرا خاصا لفلاديمير جابوتنسكى أحد الرواد الأوائل للحركة الصهيونية. وأثناء سفره فى تركمنستان السوفييتية، وهو شاب متعاطف مع الشيوعية، التقى بالشـاعـر الأمـريكى الزنجى لانجـتـون هيـوز، وإذ اشـتـرك فى الحـرب الأهليـة الإسـبـانيـة مـقـاتلا ضـد فـرانكو التـقى بالشاعر و . هـ. أودن فى «حفلة مجنونة» بمدينة بلنسيـه ، قبل أن يقع أسـيـرا فى أحد سـجون الجنرال الفاشى وفى برلين – إبان جمهورية ڤيمار انضم إلى دائرة عمـيل للكومنترن سـيئ السـمـعـة، وعن طريقه التقى بأبرز الشيوعيين الألمان فى تلك الحـقـبـة مـثل هانز إيزلر وبرتولد برخت. وإذا كان يخشى أن يقبض عليه الجستابو أثناء فراره من فرنسا استعار حبوبا للانتحار من الناقد والفيلسوف الألمانى فالتربنيامين . وقد ابتلعها – بعد ذلك بعـدة أسـابيع – عندمـا بدا أنه لن يتمكن من الخروج من لشبونه، ولكنها لم تقتله على حين أن بنيامين (الذى منع عند حدود فرنسا من السفر إلى أسبانيا) قد ابتلعها فلقى حتفه فى ١٩٤٠ .

وخلال مسيرة حياته تناول الغداء مع توماس مـان، وسكر مع الشاعر الويلزى

– المخمور أغلب الوقت – ديلان توماس، وصادق جورج أورويل، وغازل الروائية الأمريكية مارى مكارثى، وضاجع سيمون دوبوفوار، وعاش فترة فى شقة الأديب الإنجليزى سيريل كونلى بلندن. وفى ١٩٤٠ أطلق سراحه من معسكر اعتقال فرنسى وذلك، جزئيا، بفضل وساطة الدبلوماسى والكاتب البريطانى هارولد نكلس والكاتب المسرحى البريطانى نويل كوارد. وفى خمسينيات القرن الماضى ساعد على إنشاء «مؤتمر الحرية الثقافية» بالاشتراك مع ملفين لاسكى وسيدنى هوك. وفى الستينيات جرب تعاطى عقار ل س د. وفى السبعينيات كان مازال يلقى محاضرات جذبت – فيمن جذبت – شابا يدعى سلمان رشدى .

من الصعب – بمعنى آخر – أن نفكر فى أى مثقف غربى مهم من القرن العشرين لم يتقاطع دربه مع درب هذا الرجل، فى فترة أو أخرى. ومن الصعب أن نفكر فى أى حركة عقلية مهمة لم ينضم إليها أو يناهضها. لقد ظل مفتونا بكل بدعة فلسفية – جادة أو غير جادة، سياسية أو لا سياسية – فى عصره: تعليم تقدمى، تحليل نفسى فرويدى ، صهيونية، شيوعية، وجودية، عقارات مخدرة، علم نفس مواز (باراسايكولوجى) ، موت رحيم (يوثنازيا) إلخ .

ولم تكن هذه عواطف سطحية من جانبه، وإنما كان على استعداد لدفع الثمن. إن إيمانه بالشيوعية قد دفعه إلى أن يحارب فى إسبانيا وأن يزور الاتحاد السوفييتى. وإيمانه بالصهيونية قد جعله يشتغل فى مستوطنة جماعية (كيبوتز) قرب حيفا، وفى أوقات مختلفة كان يناصر استخدام العنف سواء لإقامة مدينة شيوعية فاضلة، أو لخلق دولة إسرائيل . وحتى عندما انقلب على معتقداته السابقة (وعلى أصدقائه السابقين الذين كانوا يشاركونه هذه المعتقدات) فقد كان يفعل ذلك بحماس حقيقى مشبوب، إنه فى النهاية معروف بأنه عدو للشيوعية، لا بأنه كان شيوعيا، وذلك بفضل كتابه الذى يعد أفضل كتبه وأعظمها تأثيرا، نعنى «ظلام فى الظهيرة» وهو وصف روائى للتحقيق مع عضو قيادى فى حزب شيوعى لايسميه المؤلف. كذلك كان انخراطه مع «مراجعى الفكرة الصهيونية» أقل إثارة للاهتمام من كتابه المسمى «القبيلة (أو السبط) الثالثة عشرة» وهو كتاب يذهب فيه إلى أن اليهود الأوروبيين فى العصر الحديث منحدرون من صلب قبائل الخزر فى آسيا الوسطى وليسوا من صلب اليهود الذين كانوا قديما يعيشون فى فلسطين. وعندما كان يقع تحت سيطرة هوس بعينه كان يعجز عن رؤية أى حجج مضادة : ففى وجه كل الحجج العقلانية ظل متمسكا – فى أواخر حياته – بأفكار لايؤيدها العلم عن التخاطر عن بعد (التليباثى) والإدراك المجاوز للحواس – وذلك إلى الحد الذى جعله يوصى بأغلب تركته لإنشاء كرسى لعلم النفس الموازى فى إحدى الجامعات البريطانية .

وعلى نحو مشابه، كان فريسة أهواء عنيفة فى حياته الخاصة، ظل – على التعاقب – واقعا فى إسار جابوتنكسى، ثم محلله النفسى، ثم سلسلة غير عادية من النساء وكان أيضا يطوى جوانحه على كراهية عنيفة لبعض الناس : بدءا بأمه، ويسعى إلى الثأر من خصومه، ويشعر بغيرة ضارية من همنجواى ويمقت برتراند

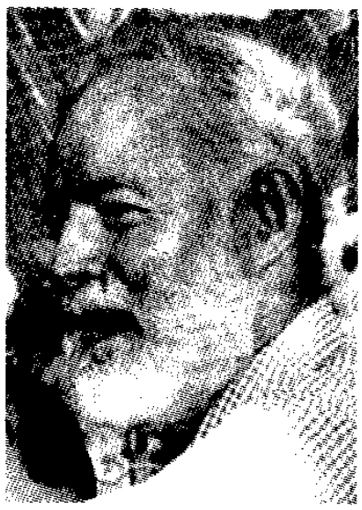

هيمنجواى

برتراند راسل

أرثر كستلر

راسل، فضلا عن منافسيه فى الحب والجنس (ومنهم الناقد الأمريكى إدموند ولسون) والأزواج السابقين لزوجاته (تزوج ثلاث مرات) وانتهى به الأمر إلى الإساءة لكل معارفه تقريبا، ولكن بعد أن سكروا معا قبل ذلك !

إنه الأديب المجرى المولد، البريطانى الجنسية منذ عام ١٩٤٨، آرثر كستلر (ولد فى بودابست فى ٥ سبتمبر ١٩٠٥ وانتحر فى لندن مع زوجته الثالثة سنثيا فى ٣ مارس ١٩٨٣ بعد أن عانى طويلا من سرطان الدم (لوكيميا) ومن مرض باركنسون (الشلل الرعاش) وما سبق هو ما تقوله عنه «آن أبلباوم» فى مقالة لها عنوانها «رجل الأمس» ظهرت فى «صحيفة نيويورك تايمز رفيو لعرض الكتب» فى ١١ فبراير ٢٠١٠. لكن لندع مقالتها ونقول المزيد عن وقائع حياة هذا الرجل ومؤلفاته .

كان كستلر - إلى جانب سارتر وجورج أورويل - من أبرز الكتاب الأوروبيين الراديكاليين فى القرن العشرين. درس فى جامعة فيينا العلوم والهندسة وعلم النفس ومن ثم كان جسرا بين الثقافتين الأدبية والعلمية، وانحاز إلى جانب لامارك ضد دارون فى الجدل حول نظرية النشوء والارتقاء . اشتغل مراسلا صحفيا فى الشرق الأوسط وباريس وبرلين، ورأس تحرير صحيفة أسبوعية كانت تصدر فى القاهرة ١٩٢٦ - ١٩٢٩ انتقل - على حد تعبير كنيت ماكليش - «من المثالية إلى القنوط، ومن وصفات لترقية حال الإنسانية إلى كتابة مراث لها» وحين فقد إيمانه بالشيوعية اشترك مع آخرين - منهم أندريه جيد وإينازيو - سيلونى - فى وضع كتاب عنوانه «الإله الذى هوى : ست دراسات عن الشيوعية» (١٩٥٠) بتحرير السياسى البريطانى «رتشارد كروسمان» .

كان غزير الإنتاج خلف وراءه ثلاثين كتابا وست روايات وعددا ضخما من المقالات تشى بسعة اهتماماته الأدبية والعلمية والسياسية ، من مؤلفاته غير القصصية : موسوعة الحياة الجنسية (بالاشتراك مع آخرين ١٩٣٤) اليوجى والقوميسار ومقالات أخرى (١٩٤٥) البصيرة والنظرة إلى الحياة : بحث فى الأسس المشتركة للعلم والفن وعلم الأخلاق الاجتماعى (١٩٤٩) الوعد والتحقيق : فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٩ (١٩٤٩) محاكمة الديناصور ومقالات أخرى (١٩٥٥) تأملات فى الشنق (١٩٥٦) تأملات فى عقوبة الإعدام

(بالاشتراك مع ألبير كامو ١٩٥٧) المسرغون (السائرون نياما) تاريخ رؤية الإنسان المتغيرة للكون (١٩٥٩) شاربو اللانهائية : مقالات ١٩٥٥ - ١٩٦٧ (١٩٦٩) اللوتس والروبوت (١٩٦٠) كعب أخيل : مقالات ١٩٦٨ - ١٩٧٣ (١٩٧٤) فعل الخلق (١٩٦٤) الشبح (أو العفريت) فى الآلة (١٩٦٧) جذور المصادفة (١٩٧٢) السبط الثالث عشر: إمبراطورية الخزر وميراثها (١٩٧٦) الحياة بعد الموت (بالاشتراك مع أرنولد توينبى وآخرين ١٩٧٦) يانوس : خلاصة (١٩٧٨) آجر لبابل : كتابات وتعليقات مختارة (١٩٨٠) .

ومن أعماله التى تدخل فى باب السيرة الذاتية : حثالة الأرض (١٩٤١) الكتابة اللامرئية (١٩٥٤) .

أما رواياته فتشمل :

- المصارعون (١٩٣٩) المجتلدون بترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد لكلمة Gladiators) وهى عن ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس فى القرن الأول قبل الميلاد.

- ظلام فى الظهيرة (١٩٤٠) عن اعتقال (ثائر بلشفى سابق ومحاكمته الصورية وسجنه وسقوطه المعنوى، وهى آيته التى تدين ما آلت إليه الشيوعية السوفيتية على يدى ستالين .

- وصول ورحيل (١٩٤٣) عن انقشاع آمال ثورى يدرك أنه كان طيلة الوقت فريسة لخداع الذات .

- لصوص فى الليل : سجل تجربة (١٩٤٦) عن سعى اليهود إلى إقامة دولة لهم فى فلسطين .

- عصر التوق (١٩٤٦).

- مومسات التليفون : تراجيكوميديا مع استهلال وتعقيب (١٩٧٢) .

وكتاباته غير القصصية تتناول موضوعات مختلفة فى «المسرغون» مثلا موضوعها علم الفلك القديم والقروسطى، مع الإشارة بوجه خاص إلى يوحنا كبلر ، و «اليوجى والقوميسار» تقابل بين نمطين من البشر : اليوجى رمز الوسائل وداعية التغير من الداخل، والقوميسار رمز الغايات وداعية التغير من الخارج .

ولكستلر بعض أعمال نقلت إلى اللغة العربية منها كتاب «اليوجى والقوميسار» : ترجمته ، تحت عنوان «ملح الأرض» لجنة من الأساتذة الجامعية (دار الشرق الجديد ، بيروت، د.ت) وكتاب «القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم» من ترجمة المربى النبيل والمؤرخ الثقة أحمد نجيب هاشم (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١) ومقالة «الأدب وقانون العائد المتناقض» من ترجمة أحمد حسان (مجلة الفكر المعاصر، مايو ١٩٧١).

وممن كتبوا عنه من مفكرينا الدكتور زكى نجيب محمود فى مقالة له بصحيفة الأهرام فى ٧ يناير ١٩٨٦ حيث يقول : «إن رواية (ظلام فى الظهيرة) قوية التصوير ناصعة البيان كتبها كستلر فى لحظة تحوله من يسار السياسة إلى يمينها، فقد كان شيوعيا متطرفا وشارك فى الحرب الأهلية الإسبانية فى أواخر الثلاثينيات على ذلك الأساس. وكان يحلم مع سائر الحالمين بأن جنة الله قد أوشكت على الظهور فوق الأرض، ولكنه لم يلبث على أحلامه تلك إلا قليلا حتى تجهمت سماء السياسة فى وجهه وأظلمت الدنيا ساعة الظهر» (نقلا عن مقدمة أحمد نجيب هاشم لترجمته «القبيلة الثالثة عشرة» ص ٦» .

وللدكتور أحمد أبو زيد ، أستاذ

سيمون .. وسارتر

الانثروبولوجيا، مقالة فى مجلة «العربى» الكويتية (يوليو ١٩٨٣) عنوانها «انتحار آرثر كسلر» يقول فيها : «انتحر الزوجان فى وقت واحد عن طريق تناول جرعة كبيرة من الحبوب المهدئة، وعثر على الجثتين جالستين فى جلال ووقار على مقعدين بلندن، ولم تكن سنثيا قد تجاوزت الستة والخمسين من عمرها كما كانت تتمتع بصحة جيدة، ولكنها كانت تدرك أنها لن تستطيع العيش بدونه بعد أن ارتبطت به كل هذا الارتباط وطيلة كل هذه الفترة».

عندما الليل

وهل ثمة أفضل من أن نغلق هذه النافذة على قصيدة مما نشرته الصحافة الأدبية الإنجليزية حديثا؟ اخترت هنا قصيدة قصيرة عنوانها «عندما الليل» لشاعر هولندى، مترجمة إلى الإنجليزية الشاعر هو «تجر كوبلاند» أستاذ العلاج النفسى البيولوجى بجامعة جرونينجن (هولندا) له أربعة عشر ديوانا من الشعر، وظفر بعدد من الجوائز الأدبية . أحدث ديوان له يحمل عنوان «عندما رأيت هذا» (٢٠٠٨) وفيما يلى نص القصيدة وهى منشورة فى مجلة AMBIT (النطاق أو المدى) (العدد ١٩٨، خريف ٢٠٠٩) .

عندما الليل

عندما غدا نور الليل

ظلاماً

جعلنا نور الليل

غير مرئيين

ولم نعد إلا أصواتا

على مقعد فى الحديقة

عندما احتوانا الليل

وحملنا إلى أسئلة مظلمة

عن : مـــتى وأين ومن الذى وقع عليه هذا

عندما كان الليل سرا

اختفى مع الليل .

البحر الأحمر

قصة: وفية خيري

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

كان الجو خانقا والشمس تشوى الوجوه - نسيم البحر كان يتسلل إلينا رطبا منعشاً - وكان الجالسون فى المقهى يتضاحكون - شباب وشابات أطفال ومراهقون ومراهقات - جاءوا جميعا للاستمتاع بهذا البلاج الهادئ بأحد شواطىء مدينة السويس .

السويس !! ياللذكريات التى تنعش القلب عندما تتردد عبارة مدينة السويس المطلة على البحر الأحمر .

كنت أعرف أنها دائمة التردد على هذه المدينة الرائقة لكى تعود أخاها المقيم هناك والذى يعمل بوظيفة مرموقة بها.

كانت تمكث معه طوال شهور الصيف - وكنت أفتقدها - ولكنه واجبها - واجب الأخت الكبرى نحو أخيها الأصغر .

لقد تربى على يديها . حملته رضيعا وتابعت

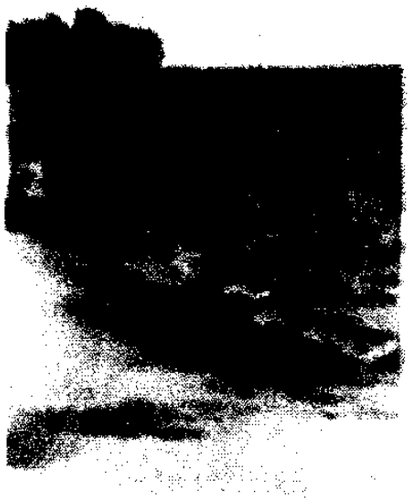

خطاه مراهقا ثم شابا نابها وبعد ذلك أصبح فخر العائلة عندما عين بوظيفة مرموقة بمدينة السويس وهو فى هذه السن المبكرة.

وعندما مرض ذلك المرض القاتل ظلت تلازمه وترعاه وتلبى طلباته . لا يهم أنها كانت تترك عملها بالقاهرة وتظل بجانبه - فقد كان - ومنذ طفولته قرة عين العائلة .

لم تندم يوما على ما فعلته من أجله وكانت تقول لو كنتم رأيتم كيف أحاط به أهل السويس جميعهم مسلمين وأقباطاً لعرفتم كم كان عزيزا على الجميع .

حتى محافظ المدينة جاء لتقديم واجب العزاء ..

ياليته عاش حتى يرى حب الناس له ولكى يعرف أن لا شىء يضيع هباء وأن من زرع حصد - ومن بذل وجد وأن لا أحد فى تلك اللحظة كان يسأل عن ديانته وما إذا كان من دين آخر مخالف - اندمج الجميع فى تقديم واجب العزاء ولم يذكروا إلا أنه كان فخر المدينة. ولد وأقام بها وعمل بإحدى وظائفها المهمة وأخلص فى عمله فأحبه الجميع وبكوه عندما رحل عنها مرغما لكى يلبى نداء ربه الذى دعاه، بالنسبة لها كان الحدث الجليل الذى لم يمهله سوى ليلة واحدة نزف فيها كثيرا حتى كاد دمه يصفى - كان الحدث أقوى من قدرتها على الاحتمال فباتت عند قدميه بعد أن فارق الحياة .

نقلت لى مشاعرها بكل دقة حتى أصبحت أنا

البحر الأحمر

الأخرى جزءًا من الحدث ..

ولكن لابد للحياة أن تسير - ولقد سارت الحياة بى لعدة أيام - ثم قررت العائلة أن نسافر جميعا إلى العين السخنة بمدينة السويس للترفيه عن النفس . لم أكن بحاجة إلى الترفيه عن النفس بقدر ما كنت بحاجة إلى معرفة المزيد عنه هو الذى لم أره فى حياتى مطلقا - ولكنى كنت أشعر به فى دمى لشدة حبها له هى صديقة عمرى .

وهناك فى العين السخنة جلست أرقب البحر وأمواجه تنساب ناعمة هادئة تحت أشعة الشمس الحارقة.

طوال جلستى بالمقهى المطل على البحر الأحمر والذكريات تندفع إلى رأسى ومن خلال حديثها الدائم عنه شعرت أننى أعرفه منذ زمن خاصة تلك الجنازة المهيبة التى ودعه بها أهل المدينة مسلمين وأقباطاً وعلى رأسهم محافظ المدينة .

إن عاطفة الحب تطغى على كل ماعداها ...

نسى الجميع تلك الأحداث المؤسفة التى وقعت أخيرا بين مسلمين وأقباط ولم يذكروا سوى شىء واحد أن حبيبهم «جورج» قد مات - لم يقفوا لكى يسألوا عن ديانته - فقد كان بالنسبة لهم إنساناً عالى الخلق الذى أفنى حياته فى خدمتهم ببسالته وخلقه الكريم ومعاملته الراقية .

ولما ذهبت إلى رحلة العين السخنة بمدينة السويس كانت الذكريات تعصف بى رغم أننى لم أره فى حياتى ولكنى سمعت عنه الكثير .

يارب - كيف يتحول الخيال إلى حقيقة على الرغم أننى لم أره فى حياتى أبدا .. ولكن من خلال حديث شقيقته - صديقة عمرى - عنه ،عرفته كما عرفته هى وأحببته كما أحبته . وأصبحت أراه ماثلا أمامى طوال رحلتى للعين السخنة بالسويس . لم أستمتع بالرحلة ولكنى رأيته ماثلا أمامى فى هؤلاء الشبان والشابات والأطفال وهم ينادون بعضهم البعض «رينا» - «بطرس» «إيفون» .

لكم أشعر أنهم إخوة لى من خلال حبى لصديقة عمرى .

أحببتهم واستمعت إلى ضحكاتهم البريئة الصافية والشابات منهن مزهوات بشعورهن المرسلة على الأكتاف .

كم يستمتعون بالحياة بقلوب صافية - وكم أحببتهم - طوال عمرى وأنا أحبهم كانوا زملائى بالمدرسة ثم بالجامعة ثم فى مجال العمل . وعندما حدثت الأحداث المؤسفة بالصعيد أحسست أننى قد أهنت . أهنت فى كل معتقداتى . فأبدا أبدا ، طوال حياتى لم أشعر أنهم غرباء عنى، بل نحن نسيج واحد وقلب واحد، فكيف هان على هؤلاء القتلة المأجورين أن يزهقوا أرواحهم بكل قسوة وجبن كيف؟!

على شاطئ البحر الأحمر بمدينة السويس كنت أتمثله أمامى من كثرة ما حدثتنى شقيقته - صديقة عمرى - عنه والتى لم تجف دموعها حتى الآن

- مع كل ضحكة بريئة من رواد المقهى كنت أراه - أصبحت رحلتى للعين السخنة وكأنها واجب عزاء فى فقيد غالٍ لم أره فى حياتى ولكنى رأيته هناك فى وجوه هؤلاء الشباب والشابات بضحكاتهم الصافية وشعورهم المرسلة التى تعلن عن حبهم وتمسكهم بالحياة دون مداراة.

وعندما عدت إلى القاهرة ورويت لها عن مشاعرى - نظرت إلىّ فى اندهاش - ولكنك لم تعرفيه فى حياتك فكيف تشعرين بكل هذه المشاعر !!

رددت عليها :

- ولكنى عرفته من خلال أصدقائى وصديقاتى طوال أيام الطفولة والشباب ..

كانت أعز صديقة لى هى إيفيلين ومن بعدها إلز والآن أنت ياليليان .. عرفته خلالكم جميعاً وكما أحببتكم أحببته فلماذا الدهشة والاستنكار؟! لم أجد ما أداويها به وأخفف من آلامها سوى كتابة هذه الكلمات والتعبير عن تلك المشاعر التى أحسست بها وأنا جالسة فى المقهى المتواضع الذى يطل على البحر الأحمر بمدينة السويس .

لعل تلك الكلمات تخفف عنك ما تشعرين به من ألم الفراق ياليليان.

قد تدهشين أن عزائى لك جاء عن طريق كتابة هذه الكلمات ولكنى لا أجد وسيلة أخرى أعزيك بها فهل تقبلين العزاء !!

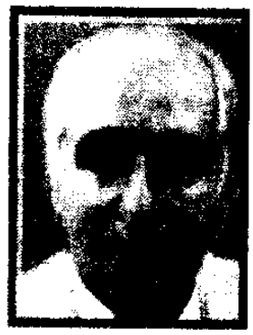

■ د. السيد أمين شلبى

تحولات الأمم والمستقبل العالمى

كتاب جديد للأستاذ السيد ياسين

ينبه الكاتب إلى أن وضع المجتمعات المتقدمة من زاوية استقبال موجات العولمة المتدفقة، أفضل بكثير من وضع المجتمعات النامية مثل المجتمع العربى الراهن

المتتبع للكتابات المصرية والعربية للعلاقات الدولية والنظام الدولى وخاصة منذ التسعينيات سوف يكتشف أن الأستاذ السيد ياسين هو من أبرز المفكرين المصريين والعرب الذين تابعوا ورصدوا هذا التطور منذ تفكك الاتحاد السوفييتى واختفائه كقوة عظمى كانت لعقود طويلة تتنافس على المكانة فى العالم ، ومن ثم انتهاء الحرب الباردة وبروز الولايات المتحدة كالقوة الأولى والوحيدة فى النظام الدولى ، غير أن من يتابع اهتمام وكتابات الأستاذ السيد ياسين فى هذا التطور سوف يلاحظ أنه قد تلازم معه متابعته واهتمامه بواحدة من أهم الظواهر التى لازمته وتأثيرها فى حياة الأمم والمجتمعات ألا وهى ظاهرة العولمة ، وليس غريبا أن يخصص الأستاذ السيد ياسين لتشريح هذه الظاهرة خمسة كتب :

- العولمة والطريق الثالث
- العالمية والعولمة
- حوار الحضارات فى عصر العولمة
- المعلوماتية وحضارة العولمة
- أزمة العولمة وانهيار الرأسمالية

وفى كتابه الجديد يرصد الأستاذ ياسين تحولات الأمم على المستوى العربى والمستوى العالمى على السواء ، والكتاب ينقسم إلى أربعة أقسام هى :

القسم الأول : العروبة والعالم بين المراجعة والمستقبل .

القسم الثانى : العولمة الرأسمالية والأزمة المالية .

السيد ياسين

القسم الثالث : السلوك الأمريكى والعقل العربى .

القسم الرابع : النظام الدولى وتحولات الأمم .

ففى القسم الأول «العروبة والعالم بين المراجعة والمستقبل» يعتبر الأستاذ ياسين أن هناك تحولات كبرى لحقت ببنية المجتمع العالمى ، وأبرزها تعمق آثار الثورة العلمية والتكنولوجية، وبزوغ الثورة الاتصالية العظمى بما أحدثته من آثار بالغة العمق ، مما جعلنا نعيش حقا فى زمن عالمى سريع الإيقاع وزاخر بالتحديات الكبرى . وطرح الأستاذ ياسين عن العولمة هو : هل هى ثقافة غربية تستتر وراء الصبغة العالمية ، وهل هذه الثقافة الكونية ليست سوى القيم الأساسية للثقافة الأمريكية، مما يجعل العولمة الثقافية أمريكية الطابع ؟ وتثير هذه التساؤلات مسألة «الإمبريالية الثقافية» التى عادة ما تصحب «الإمبريالية السياسية»؛ ولأن الولايات المتحدة الأمريكية هى القطب الأعظم الأوحد فى العالم الذى يمارس بإطلاق الهيمنة السياسية، أليس معنى هذا أنها ستفرض أيضا عولمتها الثقافية ؟

أما القسم الثانى عن «العولمة الرأسمالية والأزمة المالية» يؤكد الكاتب أن هذه الأزمة اقتصادية وليست فقط مالية، بمعنى أنها نتيجة منطقية للخلل فى النموذج الرأسمالى نفسه . ولقد اعتمد الكاتب فى تبريره لهذا التشخيص على آراء الفيلسوف الاقتصادى الكبير «جوزيف شومبيتر» الذى أصدر الحكم النهائى عن الرأسمالية حين قرر «أن الرأسمالية ستسقط بحكم التناقض الجوهرى بين جماعية عملية الإنتاج وفردية الاستحواذ على الفائض!» وبينما ظن أنصار الرأسمالية أن هذا الانهيار تأكيد تاريخى على صحة توجهات النظام الرأسمالى ، إلا أن الأزمة المالية سرعان ما وقعت لتعلن نهاية عصر الرأسمالية المعولمة ، وبداية لعصر اقتصادى جديد مازال غامض الملامح عصيا على التحديد؛ لأنه يحتاج إلى عملية تأليف خلاقة بين

حقوق الدولة وواجباته وحرية السوق المطلقة .

لذلك فإن هذه الأزمة العالمية أزمة اقتصادية بالأساس بمعنى أن هناك خللا جسيما فى نموذج الرأسمالية المعولة الذى طبقت قواعده فى العقود الأخيرة وامتدت ممارساته إلى كل بلاد العالم بفضل موجات العولمة المتدفقة فى ظل مذهب «الليبرالية الجديدة» .

واتصالا بذلك ففى بحثه عن الجذور التاريخية للأزمة العالمية ، يكشف الكاتب الحقيقة التى ناقشها تاريخ الفكر الاجتماعى الحديث، وهى أن الأزمة الاقتصادية العالمية الراهنة ليست إلا فصلا جديدا من فصول الصراع العنيف بين أنصار التوازن الذين يريدون الإبقاء على النموذج الرأسمالى بغض النظر عن سلبياته وأنصار الصراع الذين يريدون إعادة الصياغة الجذرية لهذا النموذج فى ضوء علاقة متوازنة بين واجبات الدولة فى الرقابة على الاقتصاد وحرية السوق المطلقة .

وفى الجزء الرابع «عالم واحد أم شظايا متناثرة» يعتبر أن موضوع الهيمنة الأمريكية يحتاج إلى تحليل تاريخي ونقدى متعمق لأنه أساس الصراعات الدولية التى تدور فى العالم اليوم ، ومن بين الكتب الأساسية التى طبقت المنهج التاريخى النقدى بإبداع للكشف عن جذور الهيمنة الأمريكية كتاب «أحزان الإمبراطورية» للمفكر الأمريكى «تشالمرز جونسون» .

ويرى الكاتب أنه من المفيد التعرف على وجهة النظر الروسية فى ظاهرة الهيمنة الأمريكية المطلقة . نجد ذلك فى كتاب بالغ الأهمية لم يلتفت إليه عديد من المثقفين العرب وهو كتاب «الاستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين» للمؤلف الروسى «أناتولى أوتكين» . وفى هذا الكتاب يسوق المؤلف أرقاما قد تثير دهشة القارئ غير المتابع لتجليات الهيمنة الأمريكية، ذلك أن «الاستراتيجية الأمريكية - كما يذكر - تقوم على وجود ١٠٠ ألف من العسكريين الأمريكيين فى أوروبا ، ومثل هذا العدد فى آسيا، وهناك ٢٥ ألفا فى الشرق الأوسط، وعشرون ألفا فى البوسنة .

وينهى الأستاذ السيد ياسين هذا الجزء بخلاصة مفادها أن الضربة العسكرية الروسية الموجعة فى أوكرانيا هى الفعل الرمزى البارز لنهاية عصر الهيمنة السياسية الأمريكية، كما أن الأزمة المالية الكبرى التى ضربت المؤسسات الرأسمالية الأمريكية الكبرى كانت إشارة إلى نهاية عصر العولمة الأمريكية التى أرادت أن تصب العالم كله فى قالب واحد تحت رقابتها المباشرة، وأن هذا التحول الكبير فى النظام الدولى يكشف أننا على مشارف نظام دولى جديد سيسعى دعاته إلى إقامة نظام متعدد الأقطاب يقضى على العالم الأمريكى الأحادى القطبية إلى الأبد !

ويناقش الكتاب التحول الأخير فى الولايات المتحدة الذى جاء بـ «أوباما» فيتساءل: هل يمكن اعتبار انتخاب أوباما

رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية فرصة تاريخية أمامها للتغيير الجوهرى فى سياستها الخارجية، بما من شأنه التأثير إيجابيا على مسيرة العالم المعاصر ؟ هل تستفيد الولايات المتحدة الأمريكية من الفرصة التاريخية المفتوحة أمامها للتغيير الإيجابى فى مجال علاقاتها الدولية ؟ لقد أجاب عن هذا السؤال أحد ألمع المفكرين الاستراتيجيين المعاصرين وهو «ريتشارد هاس» الذى قال: إن الولايات المتحدة الأمريكية لم تستفد من الفرصة التاريخية التى كانت متاحة أمامها بعد انهيار الاتحاد السوفييتى ونهاية الحرب الباردة ؛ وذلك لأن إدارة الرئيس كلينتون - بحكم تركيزها على أمور أمريكا الداخلية - لم تفعل فى التسعينيات شيئا يذكر لرسم خريطة جديدة للعالم .

غير أنه أخطر من ذلك أن جورج بوش الابن قام بمجموعة ممارسات خاطئة ، وخصوصا فى حربه ضد الإرهاب ودخوله فى مغامرات خطيرة بغزو كل من أفغانستان والعراق .

وإذا تم وضع انتقادات «ريتشارد هاس» فى الاعتبار، نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية قد تخبطت تخبطا شديدا فى حقبة ما بعد الحرب الباردة .

وفى مناقشة نوايا الرئيس الأمريكى الجدية وبيان قدرته يطرح المؤلف سؤالاً رئيسياً هو : هل الرئيس الشاب الجديد الذى تبنى شعارات بالغة الإيجابية واعتمد لغة الحوار بدلا من لغة المدافع، قادر على إحداث التغيير أو أن هناك عقبات كامنة فى صميم بنية النظام السياسى الأمريكى ، قد تحد من طموحه ولا تسمح له بالتغيير إلا قليلا ؟

يرى الأستاذ السيد ياسين أن إدراكات النخبة السياسية الحاكمة فى الولايات المتحدة الأمريكية للمصالح القومية الأمريكية، من شأنها أن تحد قدرة أى رئيس أمريكى ، جمهوريا كان أو ديمقراطيا ، من إمكانية التغيير المطلقة مهما كانت شخصيته واتجاهاته السياسية. والخلاصة أن هناك أجندة محددة للمصالح القومية الأمريكية لا يستطيع أى رئيس أمريكى جمهوريا كان أو ديمقراطيا أن يغير فيها إلا قليلا وبقدر محسوب؛ لأن مراكز القوة الأمريكية هى التى حددت أجندة المصالح القومية.

ويضيف الكاتب إن السؤال الذى يستحق إجابة عنه هو ما هى هذه المراكز التى تتحكم فى صياغة وتنفيذ السياسة الخارجية الأمريكية بالإضافة إلى السياسات الداخلية ؟ بعبارة أخرى من يحكم أمريكا ؟

يمكن القول إن البحث عن مراكز القوى الأمريكية تتنازعه ثلاث نظريات رئيسية ، النظرية الأولى هى التعددية ، والتى ترى أنه ليس هناك مراكز قوى محددة مهيمنة ؛ لأن القوة موزعة بين مراكز متعددة تتبادل التأثير والتأثر . والنظرية الثانية هى «نخبة القوة» التى ترى أن القوة مركزة فى أيدى نخبة محددة . والنظرية الثالثة والأخيرة هى نظرية «الطبقة الحاكمة المسيطرة» .

وفى مناقشة للعولمة والحداثة يعتبر أن العولمة أصبحت الظاهرة البارزة التى

تهيمن على المناخ السياسى والاقتصادى والثقافى ونحن فى بداية القرن الحادى والعشرين . والواقع أنه إذا أردنا أن نقترب من صيغة تعريف شامل للعولمة، فلابد أن نضع فى الاعتبار ثلاث عمليات تكشف عن جوهرها :

- العملية الأولى تتعلق بانتشار المعلومات بحيث تصبح متاحة لدى جميع الناس .

- العملية الثانية تتعلق بتذويب الحدود بين الدول .

- والعملية الثالثة هى زيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات والمؤسسات، لقد أدى المجتمع العالمى المعولم إلى استحداث أنواع جديدة من الخطر لم يشهدها العالم من قبل ، ومن بينها بدون أدنى شك عولمة «الأوبئة» . وقد أسهمت هذه المخاطر جميعا فى إقامة ما سماه ايرليش بك «مجتمع المخاطرة العالمية» .

فى الجزء التاسع «مراجعة سياسات العولمة الرأسمالية»: فالعولمة هى العملية التاريخية الكبرى التى ستدور حولها سياسات القرن الحادى والعشرين، فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاتصالية. وعلى عكس الاتجاه الغالب الذى كان ينحو منذ وقت مبكر إلى اتخاذ موقف قاطع من العولمة، اتجه الأستاذ السيد ياسين إلى تبنى موقف فكرى مناقض ، شعاره الفهم قبل التقييم وكان مدخله الأساسى لذلك هو محاولة رسم خريطة معرفية للعولمة تعتمد على نموذج فكرى ثلاثى الأبعاد . ويقوم هذا النموذج على أساس دراسة البعد الأول ويتمثل فى الدراسة النقدية الدقيقة لتعريفات العولمة التى يشيع استخدامها لدى الباحثين العلميين ولدى الساسة فى الوقت نفسه . أما البعد الثانى فيتعلق بأطروحات العولمة المختلفة ، والبعد الثالث والأخير يتعلق بسياسات العولمة .

وفى تقدير الأستاذ السيد ياسين ، أنه بالنظر إلى الأزمة الاقتصادية العالمية، والتى تعنى على وجه التحديد سقوط نموذج الرأسمالية المعولمة، فإن الحاجة تدعو إلى مراجعة جذرية لسياسات العولمة ليس فى مجال إعادة تحديد العلاقة بين الدولة والسوق لكفالة دور أساسى للدولة فى الرقابة، ولكن بالنظر إلى السلبيات المتعددة التى ترتبت على ممارسات العولمة فى العقود الماضية .

ويعود الأستاذ ياسين إلى مناقشة «العولمة والمستقبل العربى» حيث تمر العولمة الاقتصادية الآن بأزمة بالغة العمق بعد انهيار المؤسسات والبنوك الرأسمالية فى الولايات المتحدة الأمريكية . ولم تقف حدود الأزمة عند الحدود الأمريكية ، ولكنها تجاوزتها إلى الدول الأوروبية والدول الآسيوية والدول العربية، وأثرت سلبا على اقتصاداتها . وبغض النظر عن الأزمة الاقتصادية العالمية التى تعبر عن تعثر مسيرة العولمة، يمكن القول إن العولمة منذ أن ظهرت تباشيرها فى الثمانينيات من القرن الماضى ، تحمل فى طياتها تحديات سياسية واقتصادية واجتماعية

وثقافية لكافه المجتمعات المعاصرة.

وينبه الكاتب إلى أن وضع المجتمعات المتقدمة من زاوية استقبال موجات العولمة المتدفقة، أفضل بكثير من وضع المجتمعات النامية مثل المجتمع العربى الراهن .

أما عن العولمة السياسية وأبرز تجلياتها فهى تظهر فى الدفاع عن قيم ثلاث أساسية هى الديمقراطية واحترام التعددية وحقوق الإنسان . ويغنى عن البيان أن كل قيمة من هذه القيم تثير مشكلات نظرية وعملية متعددة ، ولعل أول مشكلة هى التساؤل : هل هناك نظرية غربية صورية محكمة تصلح للتطبيق فى كل المجتمعات بالرغم من التفاوتات الضخمة بين نظمها السياسية ورؤاها للعالم ؟

وسؤال آخر أثار جدلا شديدا فى العقود الأخيرة وهو : هل يمكن تصدير الديمقراطية بالقوة كما كانت نظرية المحافظين الجدد الذين سيطروا على إدارة الرئيس جورج بوش ، وفى ضوئها تم غزو العراق عسكريا لتحويله إلى مجتمع ديمقراطى يكون نموذجا للعالم العربى والإسلامى ؟

أما السؤال عن العولمة وهل تنتج استقراراً أو أنها تزيد من تخلخل الأنظمة. فيرد المؤلف باليقين أنها كانت أشبه بالانقلاب الشامل الذى أثر على تماسك المجتمعات . ذلك أن الفروق الضخمة بين المجتمعات المتقدمة التى تحتكر المعلومات وتنتج المعرفة وتحتكرها فى كثير من الأحيان ، والمجتمعات النامية، أدت فى الواقع إلى طبقية فاضحة على المستوى العالمى . وقد أدى مذهب الليبرالية الجديدة التى حاولت العولمة الرأسمالية فرضه على دول الجنوب، إلى استقطاب طبقى حاد داخل المجتمعات ، بحيث تمتعت شرائح طبقية ضيقة بثمار النمو الاقتصادى ، فى حين أن الغالبية من الطبقات الاجتماعية المتوسطة والفقيرة هبطت إلى مستوى متدن من الفقر.

ولا يقف الأستاذ السيد ياسين موقف المراقب المطلق للعولمة فمتحفظاته عليها لا تعنى أنه ليس للعولمة آثار إيجابية، فمما لاشك فيه أن فتح باب المنافسة العالمية دعا عديدا من دول الجنوب إلى رفع مستوى تدريب القوى البشرية مثل الحالة الماليزية والصينية .

ويشير الأستاذ ياسين إلى سؤال محورى وهو ما العمل ؟ بمعنى كيف يمكن للعرب أن يبحروا فى خضم المجتمع العالمى الزاخر بالتغيرات ؟ أصبح يطرح الآن فى كل ندوة علمية عربية يتم فيها تشخيص الظواهر السياسية والاقتصادية والثقافية الراهنة، وهو يعبر عن الرغبة العارمة فى مجال الانتقال من الكلام إلى الفعل .

وفى الإجابة عن هذا السؤال يعتبر أنه ليس أمام دول الجنوب عامة والوطن العربى بخاصة سوى تبنى رؤية استراتيجية عصرية ، تتضمن أولا إرادة سياسية حاسمة للتغيير ، وتتكامل فيها السياسات ، فتحتاج أولا إلى سياسة علمية وتكنولوجية تعبئ الطاقات العلمية والتكنولوجية لإبداع التكنولوجيا الملائمة ، وتحتاج ثانيا إلى سياسة اقتصادية

بصيرة لاتفتح الباب واسعا وعريضا لحرية السوق فقط ، بقدر ما تهدف إلى التوازن بين التخطيط – مع التركيز على دور الدولة – والقطاع الخاص ، وتحتاج ثالثا إلى سياسة ثقافية تتصدى لمحو الأمية السائدة بين أكثر من نصف الشعب العربى ، وتحتاج أخيرا – ومن المؤكد أولا – إلى تطوير للنظام السياسى ، والانتقال من الشمولية والسلطوية إلى الديمقراطية والتعددية واحترام حقوق الإنسان .

وخلاصة مايريد المؤلف التأكيد عليه أن النخب السياسية العربية الحاكمة أمامها – فى ظل سيادة ظاهرة العولمة – تحديات جسيمة فى مجال التحول الديمقراطى .

أما فيما يتعلق بتجليات العولمة السياسية وهى الديمقراطية وصداها فى البلدان العربية فهو يعتبر أن البلدان العربية – بدرجات متفاوتة – تمر بمرحلة إصلاحات سياسية سواء كان ذلك فى المشرق أو المغرب أو الخليج . وهذه الإصلاحات تتم بإيقاع مختلف من بلد لآخر ، تحت تأثير مطالب الداخل وضغوط الخارج .

ويؤكد الكاتب أن إحياء مؤسسات المجتمع المدنى فى بعض البلاد مثل مصر وتونس والمغرب، يعد من أبرز الظواهر السياسية، التى ظهرت فى العقود الأخيرة وأضفت حيوية غير مسبوقة على الممارسة السياسية فى هذه البلاد.

ويقول الأستاذ السيد ياسين : إنه لابد من أن ننظر نظرة مقارنة لحالات التحول الديمقراطى التى اجتازت أسوار الشمولية والسلطوية بنجاح ملحوظ ، وخصوصا فى دول أوروبا الشرقية.

حيث إن فى هذه الدول استطاعت قوى المعارضة السياسية – التى تم قهرها قهرا شديدا فى ظل شمولية الدولة السوفيتية ، وهيمنتها على النظم السياسية فى أوروبا الشرقية – أن تنهض وتمارس الثورة ضد الشمولية ، وتحول بلادها إلى النظام الديمقراطى ، بكل ما يتضمنه ذلك من سيادة القانون ، وتعددية سياسية حزبية ، وانتخابات دورية ، وتداول حقيقى للسلطة .

ويتساءل الكاتب إذا كان التحول الديمقراطى قد نجح فى هذه البلاد التى كانت أسيرة نظم شمولية شديدة البأس ، فهل هناك أمل فى تحول ديمقراطى عربى حقيقى من خلال تطور سياسى سلمى ؟

واتصالا بتحديات العولمة يركز الأستاذ ياسين على الإعلام العربى ويعتبر أنه قد أصبح من مهامه المتابعة النقدية للفكر العالمى فى مختلف تجلياته . ويمكن القول إنه خلال العقود الماضية شهدت بنية الإعلام العربى تغيرات كيفية متعددة تحت تأثير العولمة . حيث إن الإعلام العربى أصبح يواصل مهامه بعد أن تأسس – لأول مرة فى تاريخ الإنسانية – فضاء عام جديد تتم فيه التفاعلات بصور متعددة .

وجدير بالذكر هنا ما أوضحه الأستاذ السيد ياسين أننا مازلنا نعيش فى العالم العربى فى أجواء السلطوية السياسة التى لا ترحب بالتعددية ولا تشجع الحوار

المفتوح ولا تحترم الآراء المخالفة ويمكن القول إنه لايمكن فهم التحديات الراهنة أمام الإعلام العربى إلا لو حللنا بعمق التحولات الكبرى التى أصابت بنية المجتمع العالمى وأبرز هذه التحولات هو الانتقال من نموذج المجتمع الصناعى الذى كان محوره السوق إلى نموذج مجتمع المعلومات العالمى الذى محوره الفضاء المعلوماتى ذلك أن مجتمع المعلومات العالمى يتحول ببطء - وإن كان بثبات - لكى يصبح مجتمعا للمعرفة وفى تقدير المؤلف أن التحدى الأول الذى يواجه الإعلام العربى هو المحتوى ويقصد بذلك على وجه التحديد أى مستوى سيركز عليه الإعلام العربى ؟

فى الخلاصة هناك ملاحظتان على قضيتين رئيسيتين أثارهما الأستاذ السيد ياسين ، الأولى تتعلق بالرئيس الأمريكى الجديد وهل هو قادر على إحداث التغيير أم أن هناك عقبات كامنة فى صميم بنية النظام السياسى الأمريكى قد لا تسمح بالتغيير إلا قليلا ، وقد أجاب الأستاذ السيد ياسين على هذا التساؤل المحورى بأن هناك أجندة محددة للمصالح الأمريكية تضعها مراكز قوى أمريكية لايستطيع أى رئيس أمريكى أن يغيرها إلا قليلا ، وهو توصيف دقيق لطبيعة النظام السياسى الأمريكى غير أنه رغم هذه الطبيعة من المهم أن نشير إلى أن مراكز القوى هذه تتأثر بشكل كبير فيما يعرف باللوبيات Lobbies أو جماعات الضغط والتى تتعارض مصالحها فى كثير من الأحيان مع المصالح القومية الأمريكية الحقيقية ، وهو ما استخلصه عالما السياسة المرموقان: «جون مير» و«استيفن والت» ، فى دراسة لهما عن اللوبى اليهودى والسياسة الخارجية الأمريكية ولعل اللوبى اليهودى الأمريكى المعروف بالإيباك أبرز مثال على ذلك ، وهو مايفسر فى نهاية الأمر ، تراجع إدارة أوباما عن رؤيته ووعوده حول القضية الفلسطينية والصراع الفلسطينى الإسرائيلى.

أما القضية الثانية فهى تتعلق باعتبار الأستاذ ياسين أن الأزمة المالية العالمية الأخيرة هى فى جوهرها أزمة اقتصادية وأنها نتيجة خلل فى النموذج الرأسمالى ، غير أن باحثا عربيا هو الدكتور رضوان السيد قد نبهنا إلى بعد مهم فى هذا الخلل حيث اعتبر أن الخلل هو فى جوهره خلل أخلاقى لأن الذين يملكون ويحرصون على زيادة مقتنياتهم إلى مالا نهاية خاضوا فى صفقات ومضاربات وهمية للحصول على أرباح سريعة وهائلة ، وأن معظم هذه الصفقات والمال المتداول فى السوق ناجم عن غسل الأموال وتجارة المخدرات والأسعار الخيالية للعقارات هذا فضلا عن المرتبات والمكافآت الضخمة التى يتلقاها التنفيذيون فى المصارف والمؤسسات المالية .

على أية حال فإن قارئ هذا الكتاب سوف يستخلص أنه إزاء عمل يرقى إلى الأعمال العالمية فى حقل العلاقات الدولية ، ليس فقط لثراء مادته ورصده للتحولات العالمية وتحليله واستخلاصه لدلالاتها ، وإنما أيضا لما يطرحه من قضايا وتحديات ، ويثيره من أسئلة ،على المجتمعات العربية ونخبها الفكرية أن تتوصل إلى إجابات رشيدة حولها .

■ د. وليد محمود عبد الناصر

السينما والمجتمع في مصر

استضافت "مؤسسة ساساكاوا للسلام"، إحدى أهم المؤسسات غير الحكومية ومراكز الأبحاث فى العاصمة اليابانية طوكيو، ندوة فى الخامس من مارس الماضى حول العلاقة بين السينما والمجتمع فى مصر، كان المتحدث الرئيسى فيها هو المخرج المخضرم "يوسف حسن عبد الخالق"، والذى عمل لسنوات طويلة فى المركز القومى للسينما بمصر. وجاء تنظيم هذه الندوة فى سياق أنشطة مشروع جديد نسبياً أطلقته المؤسسة منذ فترة قصيرة تحت مسمى "صندوق العالم الإسلامى والشرق الأوسط". وقد سعدت بحضور هذه الندوة والمشاركة فيها والتحدث فى مقدمتها لعرض تاريخ النشاط الترويجى للسينما المصرية فى اليابان، وهو نشاط اكتسب قوة دفع ضخمة منذ مهرجان طوكيو السينمائى الدولى العشرين الذى انعقد فى أكتوبر ٢٠٠٧ عبر مشاركة فيلمين للمخرجة "هالة خليل" هما "أحلى الأوقات" و"قص ولصق" واستضافة المخرجة ذاتها فى عدة ندوات على هامش المهرجان وفى السفارة المصرية بطوكيو والمكتب الثقافى التابع لها والعلاقة بين السينما المصرية واليابانية.

"السينما ترصد الظواهر المختلفة فى المجتمع وتعرض لآراء ومواقف تجاهها فى سياق تقديم الظاهرة، بحيث إما تنتقد ظاهرة أو تدافع عن أخرى"

وقد أوضحت الندوة بما لا يدع مجالاً للشك أن السينما المصرية تؤثر فى المجتمع وتتأثر به فيما يسمى بالعلاقة الحيوية، فالسينما ترصد الظواهر المختلفة فى المجتمع وتعرض لآراء ومواقف تجاهها فى سياق تقديم الظاهرة، بحيث إما تنتقد ظاهرة

■ كاتب ودبلوماسى

مشهد من فيلم سلامة فى خير

أو تدافع عن أخرى وتدعو للالتفاف حولها، بما فى ذلك أحياناً السعى لتعبئة المواطنين بغرض العمل من أجل تحقيق هدف بعينه.

ولكن متى بدأت العلاقة بين السينما والمجتمع فى مصر؟

فى ٢٩ يناير ١٨٩٦ تم عرض أول فيلم سينمائى صامت بمصر وكان ذلك فى قاعة عرض بفندق كونتنتال بوسط العاصمة المصرية القاهرة، وفى السنوات التالية تدفق على مصر عدد من الفنانين والمعنيين بالسينما من مختلف أنحاء العالم، مثل التركى "بدر لاما" والمخرج المجرى "توجو مزراحى"، وغيرهما، حيث وفد هؤلاء على مصر للعمل فى السينما المصرية الصاعدة والواعدة فى آن واحد فى ذلك الوقت. وفى الوقت ذاته سافر مصريون إلى الخارج لدراسة الفن السابع، وكان منهم محمد كريم ونيازى مصطفى.

وفى عام ١٩٠٠ تأسست أول دار عرض سينمائى فى مصر، حيث أسسها الإيطالى "سانتى" وعرفت بـ "دار عرض سانتى" لعرض الأفلام الصامتة.

وفى العام ١٩١٢، أنشئت الجريدة السينمائية، وذلك حتى تصور وتعرض أهم الأحداث العالمية والمحلية وتنقلها للمصريين، كما تصور أهم أخبار رجال الحكم والدولة فى مصر.

وشهد عقد العشرينيات من القرن العشرين إنتاج فيلم "زينب"، وهو أول فيلم مصرى عن رواية للدكتور محمد

حسين هيكل، وهو الفيلم المصرى الوحيد الذى أنتج سينمائياً مرتين: الأولى كفيلم صامت فى عشرينيات القرن العشرين، والثانية كفيلم ناطق فى عام ١٩٣٢ بعد إدخال الصوت على السينما المصرية، وذلك بمجموعة ممثلين مختلفين. وقد تناول الفيلم أوضاع الفقر فى الريف المصرى وأنماط العلاقة بين الفلاحين وملاك الأراضى. وبالمقابل تم إنتاج أفلام أخرى تناولت المدن المصرية وما بها من مشكلات اجتماعية، مثل فيلم "أولاد الشوارع" الذى تناول هذه الظاهرة منذ زمن بعيد، وكان بطولة الفنان الراحل الكبير يوسف بك وهبى.

وفى عقد الثلاثينيات من القرن العشرين أيضاً تم إنتاج فيلم "العزيمة" بطولة الفنان حسين صدقى والفنانة فاطمة رشدى، حيث تناول ظاهرة اجتماعية هى تشبث المصريين فى ذلك الوقت بالوظيفة المضمونة المرتب آخر كل شهر والابتعاد عن تحمل أى مخاطرة أو مغامرة، ونادى الفيلم على المواطنين بالإقدام على الأعمال الخاصة والتخلى عن الوظيفة محدودة الدخل والطموح، ولكنها من وجهة النظر الشعبية كانت، وربما ما زالت، مضمونة الدخل الشهرى.

وفى نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين، وقبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بقليل، بدأت ظاهرة السوق السوداء فى الاتجار فى السلع تظهر وتنتشر فى المدن المصرية. وجاء فيلم "السوق السوداء" فى تلك الفترة، حيث تناول العلاقة الودية التى تربط بين الأهالى والتجار فى أحد الأحياء، ولكن عندما يتبع التجار سياسة "السوق السوداء" تبدأ التناقضات فى الظهور فيما بين الأهالى والتجار، بل وفيما بين التجار أنفسهم، وكذلك فيما بين الأهالى أنفسهم، فى ظل الصراع على السلع وعلى المكاسب.

وعقب ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، بدأت سلسلة من الأفلام التى سعت لتعبئة الشعب المصرى ليلتف حول الثورة وأهدافها وقيادتها وللوقوف فى وجه أعدائها والمشاركة فى معاركها، وأحد أمثلة هذه الأفلام هو فيلم "رد قلبى".

ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن دور السينما المصرية وعلاقتها بالمجتمع عبر الزمن لم يقتصر على المراقبة أو النقد أو التوجيه أو التعبئة فقط، بل امتد هذا الدور إلى أفلام خفيفة وكوميدية كان القصد منها الترفيه ولكنها لم تخل من الموعظة والترويج للقيم الإيجابية والتحذير من القيم السلبية. ومن هذه الأفلام فيلم "سلامة فى خير" بطولة الراحل نجيب

مكتبة مجلة الإنسانية
www.ibtesama.com
منتدى شوقي

الريحانى، الذى أبرز عيب أن تقوم الناس بتقييم الآخرين بحسب مظهرهم وأموالهم فقط.

المخرج نيازى مصطفى

ومن الأفلام التى تناولت مشكلات اجتماعية ما تعرض لقضايا المرأة المصرية على تنوع فئاتها العمرية وخلفياتها الاجتماعية. ومن هذه الأفلام فيلم "المراهقات" فى عقد الستينيات من القرن العشرين، والذى تناول الضغوط التى كانت تتعرض لها الفتاة المصرية خلال ذلك الوقت ما بين الأسرة والمدرسة والمحيط الاجتماعى. ومن جهة أخرى، جاء فيلم "أريد حلاً" فى عقد السبعينيات ليشكل استمراراً لنهج اهتمام السينما المصرية بقضايا المرأة، ولكن فى هذه الحالة كان التناول لقضايا المرأة المصرية المطلقة أو التى تسعى للحصول على الطلاق، فالمطلقات لا يجدن من يعولهن، واللاتى يرغبن فى الحصول على الطلاق ولا يقدرن على الخلاص من الزوج الذى يسىء المعاملة بسبب القوانين. وأدت هذه الأفلام إلى التأثير مما أدى لاحقاً إلى إدخال تعديلات ذات طبيعة تقدمية فى قانون الأحوال الشخصية. فمن جانب صار بنك ناصر الاجتماعى مخولاً بصرف النفقة المقررة للمطلقة فور وقوع الطلاق ودون الانتظار للإجراءات القانونية والإدارية الخاصة بصرف النفقة من قبل الزوج السابق. وفى نفس سياق الأفلام التى تناولت أوضاع المرأة المصرية كانت الأفلام التى عالجت ظاهرة تزويج الفتيات القاصرات، خاصة فى الريف المصرى، لبعض الأثرياء من كبار السن من الدول العربية الثرية بالنفط، وربطت هذه الأفلام بين هذه الظاهرة وبين انتشار الفقر، خاصة فى الريف المصرى. وقد قدمت السينما المصرية العديد من الأفلام التى سعت لمواجهة هذه الظاهرة، ومنها فيلم "لحم رخيص" للنجم كمال الشناوى والفنانة إلهام شاهين. وقد تحولت هذه الظاهرة لاحقاً إلى جزء هام لما يسمى بالاتجار فى البشر والذى أصبح محور العديد من الجهود والمؤتمرات والاتفاقيات الدولية والإقليمية. ومرة أخرى، ساهمت هذه الأفلام فى الدفع نحو تعديل القوانين لمحاربة هذه الظاهرة، بحيث تم رفع الحد الأدنى للزواج للفتيات إلى ١٨ سنة وتشديد العقوبة على المخالفين إلى السجن، كذلك تم تعديل قانون الجنسية ليسمح لأبناء وبنات السيدة المصرية المتزوجة من زوج غير مصرى بالحصول على الجنسية المصرية.

ومن القضايا الاجتماعية التى

تناولتها السينما المصرية أيضاً، لوائح السجون المصرية حيث انتقدتها عدة أفلام، خاصة من حيث اتسامها بالقسوة الشديدة، فلم يكن مسموحاً للمساجين بترك السجن تحت أى ظرف، حتى ولو كان إنسانياً، ومن هذه الأفلام فيلم "كلمة شرف" وأدت هذه الأفلام بدورها إلى مراجعة هذه اللوائح لإدخال بعض المرونة عليها للتجاوب مع الاعتبارات الإنسانية والطارئة.

وفى الآونة الأخيرة، ظهرت العديد من الأفلام التى تناولت موضوع العشوائيات، وهى أحياء نشأت نتيجة حركة النزوح من الريف إلى المدن بحثاً عن أوهام فرص عمل أفضل وخدمات أفضل وغير ذلك، بما فاق القدرة الاستيعابية للمدن، وأدى بدوره إلى نشأة العشوائيات واتساعها. وعرضت العديد من الأفلام لما تشهده هذه العشوائيات من تساقط المنظومة القيمية للمجتمع المصرى وسيادة الفوضى وقانون الغاب وانتشار المخدرات والدعارة وغيرها من صور الجريمة وغير ذلك من ظواهر سلبية مثل التطرف. ومن هذه الأفلام فيلم "حين ميسرة" للمخرج خالد يوسف.

ومن الموضوعات الاجتماعية الهامة أيضاً التى تعرضت لها السينما المصرية هو قيام من هم منوط بهم أن يقوموا بتطبيق القانون وحمايته بمخالفة القانون، وهو ما أظهرت العديد من الأفلام السينمائية المصرية أنه يكون أخطر من انتهاك المواطنين العاديين للقانون، ومن هذه الأفلام آخر أفلام المخرج الراحل يوسف شاهين، بالاشتراك مع تلميذه المخرج خالد يوسف، وهو فيلم "هى فوضى".

وعبر تاريخها، قدمت السينما المصرية العديد من أعمال الأدب العالمى والعربى والمصرى، وكان من أهم هذه الأعمال من الأدب العالمى رواية ديستوفسكى "الإخوة كرامازوف" الذى أنتج تحت اسم "الإخوة الأعداء".

كذلك شهدت السينما المصرية أيضاً عبر تاريخها العديد من الأفلام الدينية، والتى تجاوبت مع النزعة الدينية للشعب المصرى المعروف بها، حيث وصف شيخ المؤرخين "هيرودوت" المصريين عام ٥٠٠ قبل الميلاد بأنهم "قوم يخافون الإله". وفى هذا السياق، تضمنت السينما المصرية الكثير من الأفلام لتعريف الأجيال الجديدة بمعاناة الأجيال السابقة فى سبيل نشر رسالات السماء بمضامينها الحقيقية الداعية للحرية والعدالة والتنوير وتحرير العقل.

وقد عرض المخرج يوسف عبد

الخالق فى الندوة لفيلم من إخراجه شخصياً وهو فيلم "العرض مستمر"، الذى تناول حياة عامل عرض فى إحدى دور العرض من الدرجة الثالثة، والذى يعيش حياة فقيرة للغاية ولا يستطيع الزواج لأسباب مادية، وبالتالى يعيش فى عالمه الخاص حيث يتخيل زواجه مع فنانات الأفلام التى يعرضها فى دار العرض التى يعمل بها. وفى إحدى المرات يلتقى فى طريق عودته إلى منزله بعد انتهائه من عمله فى ساعة متأخرة من الليل بإحدى الممثلات اللاتى يعرض أفلامهن، ويصحبها إلى منزله وفى الصباح لا يجدها بجانبه، وعندما يصارح أصدقاءه من أهل الحى الذى يعيش فيه بهذه الواقعة يتهمونه جميعاً بالهذيان وبالاستغراق فى أحلام اليقظة.

وقد عكس النقاش الذى دار فى الندوة حجم الحرية التى تكاد تكون بلا سقف فيما يتعلق بالموضوعات التى يتم تناولها فى السينما المصرية اليوم، سواء سياسية أو اجتماعية أو غير ذلك، وعدم وجود ضغوط على الفنانين فى هذا السياق من جانب الدولة ومؤسساتها. وأكد المخرج يوسف عبد الخالق أنه خلال فترة عمله الطويلة بالمركز القومى للسينما لم يتم فرض أى قيود على مخرجى المركز فى اختيار موضوعاتهم، بل على العكس كان التوجيه العام لهم هو الاتصاف دائماً بالواقعية فى أفلامهم.

تناول النقاش أيضاً مفهوم "الشر" فى السينما المصرية، ومقارنة ذلك من حيث الطبيعة والمدى بأدوار الشر فى السينما الأمريكية.

كذلك تضمن النقاش ما أثاره صحفى يابانى عن مدى ما تعكسه الدراما السينمائية والتليفزيونية فى مصر من تغيير طرأ على أوضاع المرأة المصرية، خاصة انتشار ظاهرتى الحجاب والنقاب بشكل مطرد فى المجتمع المصرى عبر السنوات الماضية، حيث أكد المخرج يوسف حسن عبد الخالق على أن هذه الظواهر تنعكس فى السينما والتليفزيون، ولكن من دون إغفال وجود قطاعات من المرأة المصرية لم تتحول لا للحجاب ولا للنقاب، وبالتالى فالسينما والتليفزيون يعكسان وجود هؤلاء وأولئك معاً، حيث إن المجتمع المصرى، بحسب المخرج، مفتوح يمنح المرأة والفتاة الحق فى اتخاذ القرار بشأن وضع الحجاب أو النقاب أو عدم وضع أى منهما.

المخرج بدر لاما

فيلم قص ولصق

وهكذا، كانت الندوة فرصة مناسبة لتقديم صورة عن العلاقة بين السينما والمجتمع فى مصر للجمهور اليابانى الغفير الذى حضر الندوة، وساهم فيها بالأسئلة والتعليقات، مما عكس اهتماماً، من جانب المتخصصين وغير المتخصصين على حد سواء، بالسينما المصرية بدرجة متقدمة، وهو اهتمام ساهم فيه وبدرجة كبيرة تنظيم السفارة المصرية فى طوكيو بالتعاون مع إدارة مهرجان طوكيو السينمائى الدولى لبانوراما السينما المصرية لأول مرة لأى دولة عربية أو إفريقية، وذلك فى إطار الدورة الثانية والعشرين من مهرجان طوكيو فى أكتوبر ٢٠٠٩، عبر تسعة أفلام وضيوف شرف رفيعى المستوى من مصر تمثلوا فى الفنانتين ليلى علوى وإلهام شاهين والمخرج خالد يوسف والأستاذة آمال عثمان رئيس تحرير مجلة "أخبار النجوم" والسينمائية البارزة الدكتورة درية شرف الدين والمخرجة المتميزة للأفلام التسجيلية الأستاذة زينب عبد الرزاق. ومن قبل ذلك كانت النخبة الثقافية والفنية اليابانية على اطلاع واسع على أفلام كل من المخرج الكبير الراحل يوسف شاهين والفنان المصرى العالمى عمر الشريف. ولا شك أن الندوة التى نتناولها هنا تصب فى صالح هذا الجهد التعريفى والترويجى للسينما المصرية فى اليابان

■ د. حسين نصار

رئيسة أكبر مستشفى في الإسلام

أرّخ الشيخ محمد أمين بن فضل الله المحبى الحنفى فى كتابه الذى تناول فيه سير أعلام القرن الحادى عشر الهجرى، وسماه «خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر»، أرخ لشهاب الدين أحمد بن سراج الدين، فيمن توفى سنة ١٠٣٦هجرية، التى تقابل ١٦٢٧ الميلادية، وقال عنه : «الشيخ الرئيس الطبيب الفاضل .. مات عن مشيخة الطب بدار الشفاء المنصورى، ورياسة الأطباء .. ولم يعقب إلا بنتا، فتولت مكانه مشيخة الطب» (١/٢٣٤)

فمن هذا الشيخ الرئيس ؟

وما دار الشفاء المنصورى ؟

ومن هذه المرأة التى تولت مشيخة الطب فى هذه الدار ؟

وليأذن لى القارئ بأن أبدأ بالإجابة عن الثانى من هذه الأسئلة الثلاثة، لأن آثاره باقية إلى اليوم، والحديث عنه فى الكثير من كتب التراث، فالمعلومات عنه متوفرة .

أنشأ دار الشفاء المنصورى - التى عرفت أيضا باسم البيمارستان الكبير، أومارستان قلاوون والتى مازالت تعرف به عند أهل القاهرة، - الملك المنصور سيف الدين قلاوون أبو المعالى الألفى (٦٢٠ - ٦٨٩هـ/١٢٢٣ - ١٢٩٠م) ، كلف الأمير علم الدين سنجر بن عبدالله الشجاعى (المتوفى فى ٢٤ صفر ٦٩٣هـ/٢٤يناير ١٢٩٤م) بالإشراف على هذا الإنشاء ، فشرع فيه فى أول ربيع الآخر ٦٨٣هـ/١٧ يونيو ١٢٨٤م) وفرغ منه فى جمادى الآخر ٦٨٤هـ/أغسطس ١٢٨٥م).

اشترى من «الست الجليلة عصمة الدين مؤنسة خاتون القطبية

كان يعطى لكل مريض حين خروجه من المستشفى خمس قطع من الذهب حتى لا يضطر إلى الالتجاء إلى عمل شاق فى الحال

■ كاتب وأستاذ جامعى

بيمارستان
السلطان قلاون

بنت الملك العادل الأيوبى، الدار التى كانت قديما تملكها «ست الملك بنت العزيز بالله الفاطمى» بين القصرين، وقدرت مساحتها بعشرة آلاف وستمائة ذراع .

ولما فرغ من إعدادها جعلها منشأة تضم :

مستشفى ،

مدرسة،

قبة»

أما القبة فقد أعدها لتكون مدفنا له.

وأما المدرسة فقد جعلها لتدريس الفقه والطب. وكان رئيس الأطباء خاصة يجلس فيها لإلقاء دروس الطب على أطباء الحاضر والمستقبل. وفى سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م أنشأ الأمير أرغون العلائى ناظر البيمارستان، سبيل ماء وكتابا لتعليم أيتام المسلمين القراءة ، ووقف عليهما وقفا فى الضواحى .

وجعل قلاوون المستشفى لكل من يصل إليه، فى سائر الأوقات، من غنى وفقير، أو حسب قوله : على الملك والمملوك ، والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، ولم يقتصر العلاج على من يقيم به من المرضى ، بل رتب لمن يطلب – وهو فى منزله – ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية، حتى أن هؤلاء زادوا – فى وقت من الأوقات – على مائتين غير من هو مقيم فيه.

ووصف د. أحمد عيسى طرق رعاية المستشفى للمرضى الداخليين، فقال : رتب فيه الحكماء الطبائعية (الباطنيين) والكحالين (أطباء العيون) والجرائحية والمجبرين، لمعالجة الرمد والمرضى المجروحين والمكسورين، من الرجال والنساء .

ورتب به الفراشين والفراشات والقومة ، لخدمة المرضى، وإصلاح أماكنهم وتنظيفها ، وغسل ثيابهم وخدمتهم فى الحمام، وقرر لهم على ذلك الجامكيات (الرواتب) الوافرة، واللحف والملاءات، لكل مريض فرش كامل.

وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة تختص بهم ، فجعلت الأواوين الأربعة المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها. وجعلت قاعة للرمد، وقاعة للجرحى، وقاعة لمن أفرط به الإسهال، وقاعة للنساء ، ومكان حسن للممرورين (مرضى المرارة بالصفراء) من الرجال، ومثله للنساء، والمياه تجرى فى أكثر هذه الأماكن.

وأفردت أماكن لطبخ الطعام والأشربة والأدوية والمعاجين، وتركيب الأكحال والفتائل والسفوفات (المساحيق) وعمل المراهم والأدهان، وتركيب التياقات، وأماكن لحواصل (خزائن) العقاقير وغيرها من هذه الأصناف المذكورة، ومكان (صيدلية) يفرق منه الشراب وغير ذلك مما يحتاج إليه .

وقال الفيومى فى كتابه «نثر الجمان فى تراجم الأعيان» إن الأمير جمال الدين أقوش الأشرفى (المتوفى سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م) كان – فى أثناء توليته النظارة – يحسن إلى المرضى، ويتفقد أحوالهم فى الليل، ويتنكر ويدخل إليهم

قبل الفجر، ويسأل الضعفاء عن سائر أحوالهم حتى عن الفراش والطبيب .

وذكر خالد البلوى الأندلسى فى رحلته المسماة «تاج المفرق فى تحلية أهل المشرق» : «أخبرنى الشيخ العالم المؤرخ شمس الدين الكركى : أنه يكحل فيه كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقهين الخارجين، أربعة آلاف نفس، وتارات يزيدون وينقصون ولا يخرج منه كل من يبرأ من مرض حتى يعطى إحسانا إليه وإنعاما : كسوة للباسه، ودراهم لنفقاته، وأما ما يعالج المرضى به من قناطير الأشربة المقطرة، والأكحال الرقيقة الطيبة التى تسحق فيها دنانير الذهب الإبريز، وفصوص الياقوت النفيس، وأنواع اللؤلؤ الثمين، فشىء يهول السماع، ويعم ذلك الجمع، إلى ما يضاف إلى ذلك كله من لحوم الطير والأغنام على اختلافها وتباين أصنافها، مع ما يحتاج إليه كل واحد ممن يوافيه ويحل فيه، لفرشه وعرشه من غطاء، ووطاء، ومشموم ومزرور ، وشبه ذلك مما هو معد على أكمله هنالك، وما ليس مثله إلا فى منزلة أمير أو خليفة ...»

ويؤكد بعض من شهد يوم الافتتاح هذا القول، إذ يعلن أن السلطان جعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة، ومن مات جهزه بما يقع بكفنه ودفنه .

وقال جومارا Gomara من علماء الحملة الفرنسية: يقال إن كل مريض كانت نفقاته فى كل يوم دينارا، وكان له شخصان يقومان بخدمته، وكان يعطى لكل مريض حين خروجه من المستشفى خمس قطع من الذهب حتى لا يضطر إلى الالتجاء إلى عمل شاق فى الحال.

ولما كانت المستشفى لجميع الأمراض فقد جلب إليها الأطباء من مختلف جهات المشرق، ومن نوى التخصصات المختلفة ، وأجزل لهم العطاء .

وقد أراد د. أحمد عيسى أن يترجم لهم فعجز وأعلن : الأطباء الذين عملوا بالبيمارستان المنصورى ، من عهد إنشائه إلى يومنا هذا كثيرون، فإن هذا البيمارستان لم ينقطع يوما عن تأدية الوظيفة التى أنشئ من أجلها، وهى علاج المرضى، غير أن استقصاء جميعهم غير ميسور لأن أسماء هم ضاعت مع الزمن، وإن القليل منهم من ترجم له فى كتاب، والتراجم الموجودة مشتتة فى بطون الكتب على اختلاف أنواعها من كتب أدب وتاريخ وتراجم عامة أو خاصة.

ومع ذلك نشر قائمة ضمت عشرين طبيبا.

ورتب قلاوون مع الأطباء الماهرين من الشهود المبرزين، والنظار العارفين، والخدام المتصرفين، كل من هو مبرز فى معالجته، موثوق بعدالته، مسلم له فى معرفته، غير مقصر فى تصرفه وخدمته.

أما مباشرو العمارة فينفردون بها من ابتياع الأصناف، واستعمال الأصباغ، ومرمة الأوقاف، وغير ذلك مما يدخل فى وظيفتهم.

وأما غيرهم فكانوا يقومون بوظائفهم، وابتياع ما يحتاجون إليه من الأصناف، وضبط ما يدخل إلى المنشأة وما يخرج

منها، دون أن يكون لهم اهتمام بالتكاليف .

وإنما ينفق على كل شيء مباشرو الإدارة المكلفون باستخراج أموال الأوقاف، ومحاسبات المستأجرين، وتعهد المسكون والمعطل، ويشرفون على (صندوق المستخرج) الذى يحتوى على كل الدخل، ويخرج منه كل المنصرف .

ويشرف على هذا الصندوق (الناظر) الذى يتلقى من «فئات المشرفين الثلاث حساباتهم مياومة ومشاهرة ومسانهة ، ولأهمية هذه الوظيفة جعلها قلاوون لنفسه طول حياته ثم لأولاده من بعده، ثم لحاكم المسلمين الشافعى المذهب.

وليضمن الإنفاق على المنشأة وقف عليها الرياع والحوانيت والحمامات والفنادق والأحكار وغيرها فى مصر، والضياع بالشام، لتدر ما يقارب مليون درهم فى كل سنة . ولم يقف الأمر عند هذا بل وقف عليها ابنه الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٨٤ - ٧٤١هـ/ ١٢٨٥ - ١٣٤١م) ثم ابنه أبو الفداء إسماعيل بن محمد (المتوفى ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م) وغيرهم من الأمراء .

ولما تم البناء، وأعد كل شيء، افتتح قلاوون المؤسسة، فجلس فى البيمارستان، ومعه الأمراء والقضاة والعلماء . واستدعى قدحا من الشراب، فشربه وقال : «قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى» ، وأنشده الشاعر الصوفى البوصيرى أبياتاً قال فيها :

أنشأت مدرسة ، ومارستانا
لتصحح الأديان والأبدانا

فأعجبه ذلك منه وأجزل عطاءه وذكر بريس دافن Prisse d,avennes من ألوان الرعاية بالمرضى أن قاعاتهم كانت تدفأ بإحراق البخور أو تبرد بالمراوح الكبيرة الممتدة من طرف القاعة إلى الطرف الثانى، وكانت أرض القاعات تغطى بأغصان شجر الحناء أو شجر الرمان أو شجر المصطكى أو بعساليج الشجيرات العطرية .

وزادت الرعاية أيام الحملة الفرنسية وتنوعت ، فكان يصرف من الوقف على بعض الفرق التى تأتى كل يوم إلى المارستان لتسلية المرضى بالغناء أو بالعزف على الآلات الموسيقية .

وذكر جومارا أن المؤرقين من المرضى كانوا يعزلون فى قاعة منفردة يشنفون فيها آذانهم بسماع ألحان الموسيقى الشجية، أو يتسلون باستماع القصص يلقيها عليهم القصاص. وكان المرضى الذين يستعيدون صحتهم، يعزلون عن باقى المرضى، ويمتعون بمشاهدة الرقص، وتمثل أمامهم الروايات المضحكة.

من أجل هذا، حظيت المستشفى بالإعجاب فى كل عصر، وأشاد بها كل من كتب عنها .

قال العالم السورى أبوالفضل أحمد بن يحيى العمرى (٧٠٠ - ٧٤٩هـ/١٣٠١ - ١٣٤٩م) : هو الجليل المقدار، الجليل الآثار، الجميل الإيثار، لعظم بنائه، وكثرة

أوقافه، وسعة إنفاقه، وتنوع الأطباء والكحالين والجرائحية فيه» .

وقال الرحالة الأندلسى خالد بن عيسى البلوى (المتوفى بعد ٧٦٧هـ/١٣٦٥م) : «لو استقصيت الكلام فى هذا المارستان وحده لكان مجلدا مستقلا بنفسه، أو فى مبانيه الرائقة، وصناعاته الفائقة، وتواريخه المذهبة، ونقوشه العجيبة المنتخبة، التى ترفل فى ملابس الإعجاب، وتسحر العقول والألباب : ما يفتن النفوس، ويكسف أنواع البدور والشموس، وتعجز عن وصف بعضها خطا الأقلام فى ساحة الطروس، فما وقعت عين على مثله، ولا سمعت أذن بشبهه وشكله :

تجاوز جد الوهم واللحظ والمنى
وأعشى الحجا لألاؤه المتضارى
فتنعكس الأفكار وهى خواسر
وتنقلب الأبصار وهى جواسر

وقال الرحالة محمد بن عبدالله المعروف بابن بطوطة الطنجى (٧٠٣ - ٧٧٩هـ/ ١٣٠٤ - ١٣٧٧م) «أما المارستان الذى بين القصرين .. فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية مالا يحصى، ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم».

وقال المصرى أحمد بن على القلقشندى (٧٥٦ - ٨٢١هـ) : «وهو من المعروف العظيم الذى ليس له نظير فى الدنيا».

وقال المؤرخ المهندس ماكس هرتزبك : «من أهم عمائر الفن العربى فى مصر» .

وآن الأوان لنتعرض للسؤال الأول «الذى وصل إلينا عنه بعض معلومات ، فنطل على الشيخ الرئيس، فنجد المحبى الذى انفرد بذكره وأتى بشىء عنه، يقول : «شهاب الدين أحمد بن سراج الدين، المعروف بابن الصائغ الحنفى المصرى (٩٤٥ - ربيع الأول ١٠٣٦هـ/ ١٥٣٨ - نوفمبر ١٦٢٦م) الشيخ الرئيس الطبيب الفاضل ، مات عن مشيخة الطب بدار الشفاء المنصورى، ولم يعقب إلا بنتا تولت مكانه مشيخة الطب » (١/٢٣٤) .

وقد فشلت كل محاولاتى أن أضيف معلومات أخرى إلى ما قال، بل إلى معرفة اسم أبيه .

فإذا انتقلنا إلى السؤال الأخير لنعرف شيئا عن تلك التى تولت مشيخة الطب فى أكبر مستشفى إسلامى فى العصور الوسطى، المستشفى الذى وصفت بعض جوانبه فقط، فشلنا تماما بل فشلنا فى معرفة اسم هذه المرأة التى تولت رئاسة ذلك الصرح العظيم، ورئاسة من كان فيه من الرجال.

المصادر

- المحبى : خلاصة الأثر - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - ١٩٧١م . (١/١٣٤) .

- د. أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الإسلام - مطبوعات جمعية التمدن الإسلامى بدمشق - ١٣٥٧/١٩٣٩ - (ص١٦٤).

- ناصر عبدالله عثمان : الحركة العلمية فى مصر فى القرن السابع عشر - القاهرة - دار الكتب المصرية ٢٠٠٦ - (ص١٢٥).

■ مصطفى نبيل

جلال أمين

بوح خجول .. وتوق للخلود

سبق وكتب د. جلال أمين سيرته .. «ماذا علمتنى الحياة» ، فما الذى جعله يكتب «رحيق العمر» الجزء الثانى من سيرته ؟!

ربما لأنه تناول فى الجزء الأول القضايا العامة ، ويغلب على ما تناوله فى الجزء الثانى من سيرته مشاعره وتجاربه وحياته الخاصة.

وتصورنا عند قراءة السيرة الأولى أنه قدم ما لديه ، ولكن سرعان ما تبين أن لديه المزيد من الذى يريد البوح به ..

ويعتبر «رحيق العمر» استكمالاً للسيرة الأولى ، وأنها تسير موازية لما نشر فى مايو ٢٠٠٧ ، ورغم حرصه على عدم التكرار ، إلا أنه يكرر أحيانا أو يحتاج القارئ إلى العودة إلى السيرة الأولى للإحاطة ببعض ما جاء «دهشت وأنا أحاول استعراض حياتى من كثرة ما لم أذكره ،أشياء تعمدت ألا أذكرها .. ولدى شعور عميق بأن الأخطاء يجب أن تكشف» ، ونعم تناول فى سيرته الثانية المرأة والحب والزواج .

رغم ما يبدو فى سيرته من جرأة فى تناول الكثير من الأحداث والشخصيات إلا أنه عندما تحدث عن زملاء البعثة وعن عدد من أصدقائه فيها أخفى ولم يبح بأسمائهم

وتدرك حينما تقرأ «رحيق العمر» كم يعشق جلال الكتابة ، ويجد فيها لذة لا تعادلها لذة أخرى ، ولعل هذا هو سر جاذبية ما يكتب ، فكأنك تجلس إلى صاحب يهمس لك بحكايات عن تجاربه ، وتكتشف أنه يكثف ويقطر تجربة جيل بأكمله ، وحكاية نصف قرن

■ كاتب ورئيس تحرير مجلة الهلال الأسبق

من التاريخ ، قلمه رشيق ، وأسلوبه ساخر ، وسيرته غنية بالمشاعر والأحداث ..

تقرأ عن الموسيقى وتشاهد معه المسرح . وتغوص فى الفلسفة والأعمال الأدبية ، وتقتفى أثره فى تحولاته الفكرية ، فله تجربة سياسية غنية .

كان صاحب ميشيل عفلق ، مؤسس حزب البعث ، وعضواً فى أول تنظيم بعثى فى القاهرة ، ثم هجر البعث إلى الماركسية ، وأخيرا تمرد عليها. يضع أمام القارىء ثقافته وتجاربه ومعارفه ، وكثيراً ما تجده يغرد خارج السرب .. ويرى .. «أن البساطة والصدق قد ينفذان إلى القلب بنفس السهولة التى ينفذ بها أى عمل فنى جميل ..» .

حقق الكثير من صور التميز الذى يرمى إليه ، .. «فسعيه للتميز دوافعه أنه الأخ الأصغر لأسرة كبيرة . سبعة أشقاء؛ خمسة من الذكور وأنثيان ، فكان عليه أن يثبت نفسه خارج البيت ، مما خلق لديه الميل إلى لفت الأنظار والسبق على كل المحيطين به ، «ميلى الدائم إلى المعارضة له علاقة بأنى أصغرإخوتى».

وها هو يؤكد أن السيرة الذاتية هى تلك التى عرفها الغرب . ويظهر ذلك عند استشهاده بإرسال والده مخطوطة «حياتى» إلى د. زكى نجيب محمود الأكثر اطلاعاً من أبى على أدب السيرة الذاتية فى الغرب ، ولكنه فى النهاية استلبهم ذوقه الخاص فيما يعتبر من اللائق البوح به ..

ولا يفوته أن يؤكد أن جده لأمه جاء ذكره فى الخطط التوفيقية لعلى باشا

مبارك . أما عائلة والده فقد جاءت من أواسط آسيا ، كما ذكر د. أحمد زكى ابن عم والده . وهنا رغم ما يظهر فى كتاباته من تواضع يؤكد عراقة منبته ..

وعندما يكتب سيرته خلال الدراسة فى لندن . تلحظ التشابه مع كتاب د. لويس عوض «يوميات طالب بعثة» ، وكثيرا ما تجد التناول على طريقة ماذا حدث للمصريين ؟ الذى بدأه فى «الهلال» ، فيقارن مثلا بين تعليم سنة ٤٧ والتعليم سنة ١٩٨٠ الذى التحقت به ابنته ، أو المقارنة بين أجيال ثلاثة فيما يتعلق بما نطلق عليه «عقدة الخواجه» !

ولنقرأ معاً جانباً مما تناوله فى سيرته ، ونلقى الضوء على مسائل ثلاث ، التعليم ، وتلك السنوات الثلاث المدهشة فى حياته ، وحكاية صديقه چورچ صعب .

«كان من الواضح ما طرأ من تغير فى التعليم المصرى الحكومى فيما بين سنة ١٩٤٧ عندما كنت فى الثانية عشرة من عمرى ، وسنة ١٩٨٠ عندما بلغت ابنتى هذه السن، ولكن سرعان ما لاحظت شيئاً آخر أشد خطراً .. عندما وبخها مدرس الدين على ملابسها الرياضية . وأصبح موضوع الدين يثار بمناسبة ومن غير مناسبة ، كما انتشر تركيب الميكروفونات على المآذن ، وزاد صوتها ارتفاعاً مع مرور الوقت» .

أما مدارس أحفاده .. «شيئا فشيئا أصبح إنشاء مدرسة خاصة من أكثر فرص الاستثمار ربحا .. وتدهورت اللغة العربية ، يقرأن العربية بصعوبة ولا يستطيعان الكتابة بها» .

أما عن تجربته كأستاذ جامعى .. فيذكر تلك الصعوبات التى تجعل تحقيق كل الإمكانيات صعباً وأحياناً مستحيلا

« .. فالحياة اليومية تستنفد بشكل أو بآخر الكثير من طاقة المرء ووقته ، فلا تترك له الوقت ما يسمح بالقراءة وزيادة المعارف بالدرجة التى يطمح إليها .. ولا يبدو أن فى مصر وقتاً يسمح بعمل أى شىء على الإطلاق .. وحتى لو عثر المرء على الوقت ، فكانت واجبات التدريس كافية لملء وقته كله ، .. السفر المفاجئ لأحد الأساتذة ، كان سبباً كافياً لتبرير قيامنا بتدريس مواد لا نعرف عنها إلا القليل ، وتحتاج منا إلى بذل جهود مضنية للاستعداد لتدريسها ..

وأصبح الشغل الشاغل للنظام إثر هزيمة ١٩٦٧ ، محاولة كسب رضا الناس بأى وسيلة ، والقضاء على أى سبب للتذمر ولو كان ذلك على حساب الإصلاح ، فقبول الأعداد الغفيرة من الطلاب بصرف النظر عن نوع التعليم الذى يتلقونه ، وعما إذا كانوا سيجدون وظائف عند تخرجهم .

واستمر عزوف أساتذة الجامعات عن القيام بأى بحث جدى، حتى إذا دعى أحد لكتابة بحث لمؤتمر فى الخارج ، وضع النظام عقبات عديدة فى وجهه !»

ثلاث سنوات مدهشة

وها هو يستعرض ثلاث سنوات جميلة عاشها وعاشتها البلاد بين سنة ١٩٥٥ وسنة ١٩٥٨ : والتى بدأت بتأميم قناة السويس .. «فما أجمل أن يشعر المرء بالوئام التام إزاء حكومته ، هذا الشعور

الذى ساد فى تلك السنوات الثلاث ، والذى بدأ يضعف شيئا فشيئا بانتهائها ، كان كل شىء يدل على إخلاص الحكام الجدد..

هذه السنوات الرائعة ، لم أشهد نهايتها ، إذ أنى سافرت إلى لندن وسمعت على الباخرة إعلان اتحاد مصر وسوريا ، وسمعت فى لندن بثورة العراق يوليو ١٩٥٨ ، وطرد الجنرال جلوب من الأردن ..

وبدأ العالم مرحلة جديدة مع بداية عام ٥٩ ، وكانت هذه السنوات فترة نادرة من التاريخ المصرى ، تمتعت فيها مصر بقدر عال من الحرية ، وممارسة الكثير من التصرفات التى يرحب بها المصريون ولا تتعارض فى نفس الوقت مع مصالح الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتى !»

جورج صعب

ورغم ما يبدو فى سيرته من جرأة فى تناول الكثير من الأحداث والشخصيات إلا أنه عندما تحدث عن زملاء البعثة وعن عدد من أصدقائه فيها أخفى ولم يبح بأسمائهم ، وكان من الممكن أن تتبين بعضهم مثل صاحب رواية «الوسية»

د. خليل حسن خليل . ومنهم القانونى الكبير جورج صعب صاحب الأيادى البيضاء على بلاده فى مشاركته فى جهود التحكيم بشأن النزاع حول «طابا» .

ويروى..

«..تجددت فى لندن علاقتى بزميل

قديم كنت تعرفت إليه فى كلية الحقوق ، وسافر للدراسة أولاً فى إنجلترا ثم تركها قبل ذهابى إليها لاستكمال دراسته فى الولايات المتحدة ، وكان يزور لندن من حين لآخر ، فتقابلنا من جديد ، كنت أعتبره صديقاً عزيزاً وهو نوع من الناس لا تجود الدنيا بمثله إلا نادراً..

كان طالباً فى كلية الحقوق ، جامعة القاهرة . وكانت أخبار نبوغه من نوع مختلف عن المعتاد ، فلم يكن الخبر يدور حول حصوله على هذه الدرجة العليا أو ذلك التقدير الممتاز ، بل يدور إما حول بحث كتبه فأثنى عليه أستاذ كبير ، وإما حول مناقشة دارت بينه وبين أستاذ آخر حول مقال كتبه أستاذ فرنسى ذكره الأستاذ فى المحاضرة .. فإذا بها تبين أن صاحبنا قد قرأ المقال وأخذ يناقش الأستاذ فيه حتى اعترف له الأستاذ بخطئه !

ولكن القصة المفضلة عندنا - مازال الحديث لجلال - كانت حول خلاف شديد دار بينه وبين أستاذ من أساتذة الكلية أثناء الامتحان الشفوى فى السنة النهائية ، إذ اعترض الأستاذ على إجابة صاحبنا ولكنه أصر عليها ، وبدأ الأستاذ يفقد أعصابه ويعلى صوته ، دون أن يهتز الطالب أو يحيد عن رأيه ، حتى اضطر الأستاذ الآخر المشترك فى الامتحان إلى أن يؤيد الطالب ضد الأستاذ ، وكانت النتيجة المحزنة أن حصل صاحبنا على

تقدير أقل بكثير مما يستحق بسبب إصرار الأستاذ المجروح على تخفيض درجته . وربما كان من أسباب ذلك أن اسمه چورچ» !

أليست هذه الواقعة المؤسفة تكراراً لقصة شديدة الشبه ،قصة الجراح الكبير مجدى يعقوب ؟!

«وكانت نتيجة ذلك أن فقد صديقى المكانة اللائقة به فى ترتيب التخرج ، وترتب على ذلك أيضا عدم تعيينه معيداً فى الكلية ، وهى الوظيفة التى كان يطمح إليها ، فإذا به يقرر أن يبحث لنفسه عن مكان آخر غير مصر ، قابلته أثناء تجواله فى العالم عدة مرات ، فى كامبردج ولندن وچينيف ، وكان فى كل مرة إما قد أتم لتوه دراسته للحصول على شهادة عالية ، وإما على وشك البدء فى دراسة جديدة للحصول على شهادة أخرى ، وكانت دراسته تدور إما حول القانون الدولى أو الاقتصاد .

واكتشفت فيه أول رجل أقابله يحب العلم من أجل العلم ، وتثير المشاكل العلمية حماسه مثلما تثير غيره القصة الجميلة أو العمل الفنى المتقن ..

ويبدو أن هذا الحب القوى لديه للبحث العلمى وغرامه بحل مشاكله هو الذى أزهده فى أى هدف آخر يتعلق بالمال أو الحصول على منصب كبير أو نفوذ واسع . وكان دائما هادئ الطبع نادر الثورة ، وراضياً عن نفسه ، وعن الحياة بوجه عام.

استراح بعد تجوال طويل فى وظيفة أستاذ بمعهد علمى راق ، هو معهد الدراسات الدولية فى چينيف ، وظل به حتى وصل إلى سن التقاعد» .

ويضيف جلال أمين .. «عندما كنت أراه فى القاهرة كل بضع سنوات ، كنا نتكلم عن مشاكل مصر ، .. ولفت نظرى كم ظل طوال هذه السنوات مهموماً بمشاكل مصر وكم ظلت مصر قريبة من قلبه .

وكان فى وزارة الخارجية من يعرفون قدر الرجل ونبوغه ، ويعرفون استعداده لوضع هذه القدرة فى خدمة بلده فى أى وقت فكانوا يلجأون إليه عندما تواجه مصر مشاكل دولية قانونية عويصة ، من نوع مشكلة طابا ، فكان چورچ يأتى إلى مصر ويقدم المشورة ، ولم يستطع الحادث القديم أن يحرم مصر من خدماته ، وكان يرى أن الموقف الصحيح هو الموقف البدهى».

وإذا لم تكن لكتابه من قيمة سوى تقديمه لهذه الشخصية العظيمة لكفاه ذلك.

١١ سبتمبر !

وللدكتور جلال أمين موقف متميز من أحداث ١١ سبتمبر يقوم على التحليل الدقيق والاستقراء العميق، ورفض خلاله الرواية الرسمية الأمريكية لتلك الأحداث .. وهو هنا مثل غيره من الكتاب الأوروبيين وحتى الأمريكيين أنفسهم..

يرفض السرعة التى تم بها تحديد المذنب وتوجيه الاتهام إليه ، مع أن المرء لابد أن يتوقع العكس فى جريمة كبيرة من هذا النوع وذات آثار بالغة الأهمية ، مما يظهر أن الإدارة يهمها إعلان الاتهام أكثر من معرفة المجرم ،

فالذين توجه إليهم الاتهامات ، لم تكف الولايات المتحدة عن توجيه الاتهامات إليهم وتحقيرهم بمناسبة أو غير مناسبة ، حتى عندما يثبت أن الفاعل ليس منهم - كما حدث فى انفجار أوكلاهوما مثلا ، والمتهم الآن وهو ابن لادن رجل بدوى قليل الحظ من التعليم ، لا ينسجم تاريخه مع ما يوجه إليه من اتهامات ، ففى بداية حياته كان يقضى وقته لاهيا فى النوادى الليلية فى بيروت . .. ثم عمل فى خدمة الولايات المتحدة مستخدما الإسلام فى مكافحة الشيوعية فى أفغانستان، وتاجر فى المخدرات ، ثم يقال بعد ذلك أنه فجأة ضد الولايات المتحدة بسبب شدة ورعه وتقواه ، ويعلق :« استغربت أن يكون جهاز المخابرات الأمريكى عاجزًا عن اختراع قصص أفضل من هذه !

إن بعض الأدلة تثير السخرية ، منها العثور على سيارة بالقرب من مكان الانفجار وفيها مصحف وكتاب بالعربية عن طريقة قيادة الطائرات .. فضلاً عن القول إن ابن لادن سجلت له مكالمة تليفونية قبل الحادث بأيام مع أمه فى دمشق يقول لها إنه يزمع القيام بعمل فى ٩/١١ .. !!

السرية والتكتم حول التحقيق ، ومنع أى شخص أو دولة من الاطلاع على نتائجه . والدولة الوحيدة التى سمح لها بالمساعدة فى التحقيق هى إسرائيل !!

التذبذب فى تصريحات الإدارة الأمريكية بشأن ما حدث ، وأرقام الضحايا تبدأ بخمسة آلاف وتنتهى بثلاثة أو أقل !

من المستفيد من الجريمة ؟ لا يمكن أن يكون المستفيد العرب أو الإسلام . ولا استفاد منها ابن لادن، بل الضرر محقق ، إذا نظر للعرب والمسلمين بعد ١١ سبتمبر ، سواء فى أفغانستان أو فلسطين أو العراق ..

وهؤلاء العرب نسوا حتى أن يتركوا ورقة صغيرة مثل التى يتركها المنتحرون عادة ، يشرحون فيها أسباب عمليتهم الانتحارية ..

انظر لمن استفاد من هذه الأحداث ، خسرت الولايات المتحدة أرواحاً بريئة ، وبضعة ملايين من الدولارات ، ولكنها كسبت وجوداً عسكريا واقتصادياً فى وسط آسيا حيث توجد احتياطات بترولية وحركة تنشيط كبيرة لمجمع إنتاج السلاح الأمريكى ، فضلاً عن وضع العالم فى حالة التزام الأدب ، فى انتظار إعادة ترتيب العالم .

ومن المستفيدين أيضا إسرائيل التى استمرت فى سياستها ، وأصبح العربى والمسلم هو الذى يتمتع بكراهية العالم بدلاً من اليهودى!

إن تطور وسائل الاتصال جعلنا نعيش عصراً يختلط فيه إلى حد كبير الواقع

بالخيال ، القصص تخترع ، وتخلط الصور ، والصوت يزيف ، والأحاديث المسجلة يخلط بعضها ببعض ، فى هذا العالم يمكن أن تجعل الناس يصدقون أى شىء بمجرد تكرار ذلك عدداً كافياً من المرات ..

والمدهش فى هذه المسألة .. اعتراف ابن لادن بها ، ولكن يزول العجب إذا كان صنيعة أمريكية ..»

ونعود إلى تحليل جلال أمين..

كان كل يوم يمر على حادث ١١ سبتمبر يؤكد صحة تفسيرى للدوافع الحقيقية وراء حدوثه من ذلك أن التحقيقات التى يعلن عنها كثيرة ، والقبض على المشتبه فيهم باعتبارهم «إرهابيين» لا يتوقف ، ولكن ما السبب فى هذه القدرة فيما يذاع علينا من نتائج التحقيقات ، ومضمون اعترافاتهم إن كانوا قد اعترفوا . رغم الأهمية القصوى لذلك. ويزداد الشك كلما سمعنا عن شريط مسجل يحتوى على كلام وصور لزعيم التنظيم أو مساعده ، يتوعد ويرهب بمزيد من الهجوم والمزيد من الخراب .. فهل أجهزة المخابرات عاجزة عن تتبع الشخص القادم بالشريط !

الاكتئاب !

لم أتصور أنه يمكن أن يصاب د. جلال أمين بالاكتئاب .. ربما لثقافته الواسعة ، وربما لقدر الحرارة التى تشعر بها فى حياته ، أو العقلانية التى يتميز بها .. ولالتفاف الأصدقاء والتلاميذ من حوله..

وربما يكون من أسباب هذا الاكتئاب تدهور صحته .. وعندما أصبحت فكرة الموت تسيطر عليه ، يقول أصبحت فكرة الموت تحزننى ولكن لا تخيفنى ..

ولكنه يروى كأحد أسباب الاكتئاب خلال السنتين ١٩٨٧ - ١٩٨٩ أنه ظهرت أول بوادر المرض عند معرفته مرض صديق له ولنا جميعاً . الدكتور على مختار ثم وصله خبر وفاته ، وهو أحد الشخصيات النادرة ، الذى لا يخلو مجلسه من الأصدقاء أو المناقشات التى يجمعها الاهتمام الكبير بمستقبل الوطن .. والذى يتفرد بمجموعة من الصفات الحيوية والذكاء وقوة الشخصية والجاذبية ، وحب الثقافة والاهتمام بالسياسة ، وكان من أوائل من بشر ودرس الكمبيوتر رغم كونه طبيباً ..

أصيب جلال بمرض لم يعرف الأطباء كنهه وقد يكون اسمه «بهجت» نسبة إلى طبيب تركى . وهو مرض قد يصيب العينين فيؤدى إلى العمى ، وقد يصيب الأوعية الدموية فيؤدى إلى الموت . وليس له علاج معروف .

«قضيت نحو ستة أشهر وأنا مهووس تماماً بمرضى ، وفى الجرى من طبيب لآخر ، والسفر إلى كل مكان على أمل الوصول إلى العلاج ، وكانت أهم سمات هذه الحالة ، فقدان الإرادة والضعف الشديد الذى يصيب القدرة على إتخاذ أى قرار . والتردد الشديد فى الإتيان بأى عمل ، وهذا الضعف الشديد الذى يصيب الإرادة ، ينطوى على فقد أى قوة تدفع المرء إلى الرغبة فى الاستمرار فى الحياة، وكنت أردد .. «إنى لا أرغب فى الاستمرار فى الحياة» . مع ذرف الدموع أو الانخراط فى نوبة بكاء .. فضلا عن

أحداث ١١سبتمبر

التشاؤم الشديد والشعور بأن أسوأ الاحتمالات هو الذى سيتحقق .. وفى غمار هذا تضعف أو تزول أى شهية للطعام ، ويزول عهد النوم الطويل ..

وتوقفت عن التدريس خلال النصف الثانى (فى العام الدراسى ١٩٨٧ - ١٩٨٨) . ويوماً بعد يوم من شتاء ٨٩ .. وجدت الشمس تشرق ، والحياة تعود إلى طبيعتها ، ولم يكن سبب انقضاء الاكتئاب أى حادث بعينه بل جاء انقضاؤه بالتدريج مع سير الحياة سيراً طبيعيا ..»

ويقتطع من مسرحية الملك لير لشكسبير القول «الحب يبرد والصداقة تتصدع ، والأشقاء ينقسم بعضهم على بعض .. وفى القصور خيانة والحبل الذى كان يربط الابن وأبيه قد انقطع ..» ، ويضيف «من منا لم يجد فى حياته مصداقاً لهذا القول أو لبعضه» .

«تجاوزت السن التى بلغها أبى وأمى» .. ، ويندم على تقصيره مع أبيه خلال السنوات الثلاث الأخيرة من حياته ، وهو شعورنا، فمهما قدمنا ما نقدمه لوالدينا لا يوازى مطلقا ما حصلنا عليه ، ويعترف .. «كل منا وغد كبير»

«وإنى لا أعتبر نفسى فاشلا ولا بائسا ولا قليل التعلق بالحياة ، بل أجد نفسى راضياً فى معظم الأوقات ، وقادراً على الاستمتاع ، كما أنى لا أعتبر نفسى سيىء الحظ، ولكن الجسم يضعف والأحباء يفترقون .. وأننا نبالغ فيما نريده ونطمح إلى تحقيقه ، وإذا بدأنا بالطموح الزائد . فما الذى نتوقعه سوى تعرضنا للكثير من خيبة الأمل .

فنحن نتطلع إلى هدف ، ونتلهف على تحقيقه . فإذا حققناه سرعان ما نفقد الحماس ، بل وربما فقدنا أيضا الرغبة فيه . فنتطلع ونتلهف إلى ما هو أبعد منه ، فإذا به عصى صعب المنال ، فنصاب بخيبة الأمل»..

■ محمد رضوان

على محمود طه

شاعر الأمجاد العربية

عاش شاعر الجندول ، على محمود طه (١٩٠١ - ١٩٤٩) شاعراً عربياً أصيلاً ، يؤمن بالحضارة العربية الإسلامية ، ويشدد على الأمجاد العربية المتمثلة فى المعالى وفى البطولات وفى الشخصيات العربية من بعض القادة والأبطال فى عصره .

وبقدر ما كان على محمود طه يتفاعل مع قضايا وطنه مصر ، كان شعره قيثارة تتفاعل مع قضايا بقية الأوطان العربية والإسلامية ، حيث كان شعره القومى موصول الأواصر بعروبته وإسلامه وماضيه العريق.

فهو حين يتمنى لأبناء وطنه مصر التكاتف والتآزر يدعوهم إلى نسيان خلافاتهم من أجل مستقبل مصر ومجدها:

هوى لك فيه كل ردى يحب
فديتك هل وراء الموت حب
فديتك مصر كل فتى مشوق
إليك ، وكل شيخ فيك صب
أراك أينما وليت وجهى
أرى مهجاً لوجهك تشرئب
فيالك مصر .. ما لجلال أمس
علته غبرة وطوته حجب

إلا أنه فى الوقت نفسه يتطلع إلى كل بقعة عربية يتمنى تكاتفها وتآزرها من أجل حريتها وعزتها واستعادة أمجادها العربية الشامخة:

يا قلوبا ضمها الشرق على

لم يكن على محمود طه مجرد ملاح تائه فى بحار الفكر والخيال، بل كان شاعراً عربياً إسلامياً شارك بشعره قضايا أمته ووطنه العربى فى كل الأحداث والقضايا

■ كاتب صحفى من أسرة الهلال

مورد للحق والحب التؤام
وشعوب جمعتها أمة
بين مصر وعراق وشآم
وبطوناً من بقايا طارق
فى البقاع الجرد والخضر النوامى
ما شدا شعرى بها إلا هفت
بالقباب البيض أو حمر الخيام
وترجى عودة المجد الذى
أعجز البانى وأعيا المتسامى
من بيوت هاشميات البنا
وعروش أمويات الدعام
ونتاج عن نهى جبارة
وتراث من حضارات ضخام
الأمجاد العربية

وكان على محمود طه بطبيعته محباً للبطولة والمجد والعزة ، فكان يراها فى شخصيات عربية رآها نموذجاً للبطولة والمجد العربى .

فعندما قامت جامعة الدول العربية بالقاهرة سنة ١٩٤٥ حيا الشاعر زعماء العرب بقصيدة «يوم الملتقى» قال فيها :

اليوم شيدوا كما شادت أبوتكم
شرقا دعائمه كالطود شماء
دستوره وحدة مثلى وشرعته
بالحق ناطقة بالحب سمحاء
لكم بحاضركم من دهركم نهز
فيها لغابركم بعث وإحياء
شدوا على العروبة الوثقى سواعدكم
لا يصدعنكم بالخلف مشاء
لم تنأ بغداد عن مصر ولا بعدت
لبنان والمسجد الأقصى وشهباء
أى التخوم تناءت بين أربعها
لها من الروح تقريب وإدناء
أرض عليها جرى تاريخنا وجرى
دم به كتب التاريخ آباء
مبارك غرسه منه بأندلس
والقادسية واليرموك إحناء

وفى يونيه ١٩٤٦ حيا الشاعر مفتى فلسطين الحاج أمين الحسينى حين استقبلته مصر كبطل للعروبة والإسلام والجهاد، فقال :

حيتك فى الشرق آمال وأحلام
وقبلتك جراحات وآلام
واستقبلتك على الوادى وضفته
عروبة وثبت فرحى وإسلام

ثم حيا البطل السورى فوزى القاوقجى الذى قضى أكثر من عشرين عاماً بين تخوم سوريا وفلسطين والعراق وبادية الحجاز مهدور الدم يصاول المستعمرين والصهاينة فى حرب طويلة وجهاد طويل ، وعندما هبط إلى مصر حيا الشاعر فيه معنى الجهاد والبطولة والشجاعة فقال :

هو السيف الأصم إذا تغنى
صفا متجبر ووعى كلامه
أعدوا حده لصراع دهر
صريع الوهم من يرجو سلامه
بطل الريف

وقد حيا على محمود طه بطل الريف عبد الكريم الخطابى أثناء نضاله من أجل استقلال وطنه المغرب ، فقال على محمود طه حين استقبلته مصر وحمته :

أنى نزلت بمصر أو جاراتها
جئت العروبة أمة وبلادا
مدت يديها ، واحتوتك بصدرها
أم يضم حنانها الأولادا
شيخ الفوارس حسب عينك أن ترى
هذى الفتوح وهذه الأمجادا
حن الحسام لقبضتيك ، وحمحمت
خيل تقرب من يديك قيادا
وعلى الصحارى من صداك ملاحم
تشجى النسور وتطرب الآسادا
بطل ميسلون

وفى احتفال دمشق باستقلالها سنة ١٩٤٦ واكب ذلك ذكرى استشهاد يوسف بك العظمة فى ساحة ميسلون مدافعاً عن دمشق ، فحيا على محمود طه ذكرى العظمة فى يوم تحرر سوريا من الاستعمار:

يا «يوسف» العظمات غرسك لم يضع
وجناه أخلد من نتاج قرائح
قم لحظة وانظر «دمشق» وقل لها
عاد الكمى مع النفير الصارح
ودعاك يا بنت العروبة فانهضى
واستقبلى الفجر الجديد وصافحى
الملك عبدالعزيز آل سعود

لم تكن المناسبة القومية هى التى تملى على الشاعر على محمود طه الموقف الالتزامى ، وإنما كانت المعايشة الوجدانية للأحداث التى تضطرب حوله هنا وهناك ، وتصنع مصيره كواحد من أبناء الأمة العربية المدركين بتجاربهم وثقافتهم مقومات هذا المصير .

كان على محمود طه يهفو لكل لقاء عربى يؤدى إلى التفاهم والتوحد ضد الأخطار المحدقة بدول المنطقة فى وقت مصيرى عصيب .

ولذلك عندما زار الملك عبدالعزيز آل سعود مصر فى ١٠ يناير ١٩٤٦ أنشد قصيدة يحيى فيها العاهل السعودى الكبير ، قال فيها .

أفى مصر؟ أم فى بطحاء مكة يومنا؟
هنا وطن أم هاهنا وطنان
وتلك قطوف النيل دانية الجنى
أم أن قطوفاً للرياض دوانى
وما هى إلا أمة عربية
موحدة فى فكرة ولسان

ثم يحيى لقاء العاهلين : الملك عبد العزيز والملك فاروق باعتبارهما يمثلان شعبين كبيرين عريقين فيقول:

هما عاهلا الشرق العريق وركنه
هما حصنه الواقى من الحدثان

هما الحب والإيمان والمجد والندى
تمثل فى آياتها ملكان

لم تكن مناسبة التقاء العاهلين على أرض أكثر من وعاء تاريخى يصب فيه الشاعر مشاعره وعواطفه العربية والإسلامية المختزنة التى جاء وقتها لتتدفق وتفيض ليؤكد من جديد على إيمانه:

وما هى إلا أمة عربية
موحدة فى فكرة ولسان

وبعد ، فلم يكن على محمود طه مجرد ملاح تائه فى بحار الفكر والخيال ، بل كان شاعراً عربياً إسلامياً شارك بشعره قضايا أمته ووطنه العربى فى كل أحداثها وقضاياها ، معتزاً بعروبته وأمجاده العربية والإسلامية ، وظل حتى وفاته قيثارة للعروبة والإسلام.

فبجانب تغنيه بعواطفه ومشاعره الذاتية ، فقد كان شاعراً إنسانياً مغرماً بالعلا والأمجاد ، مشاركاً أبناء العروبة مسراتهم وأحزانهم فيقول:

أنا من يغنى بالمصارع فى العلا
ويشيد بالآلام والأحزان
أصبحت ذا القلب الحديد وإن أكن
فى الناس ذاك الشاعر الإنسانى
ووهبت قلبى للخطار ، فاللهوى
شطر ، وللعلياء شطر ثانى
وعشقت موت الخالدين وعفت
من عمرى حقارة كل يوم فانى

وهكذا ، عاش على محمود طه ، شاعراً للأمجاد والعلا والشموخ !

أعماله الكاملة

ورغم عطاء على محمود طه الشعرى الكبير وإضافاته المتميزة لسجل شعرنا العربى المعاصر وريادته لعدة أجيال شعرية من المجددين إلا أن أعماله الشعرية الكاملة ظلت محجوبة عن القراء

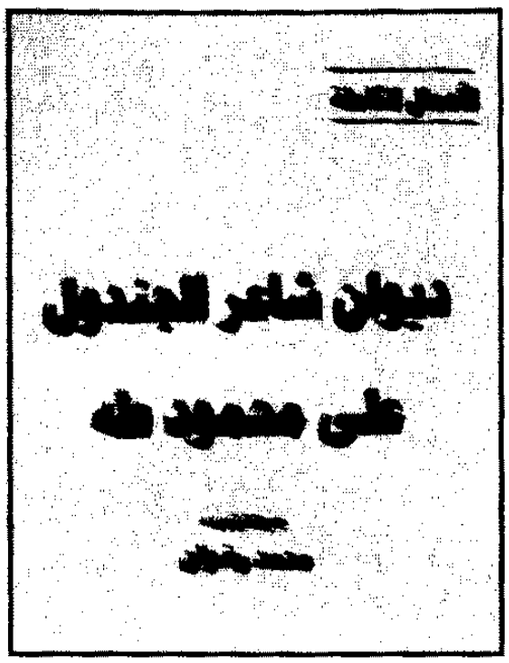

فلم تصدر فى مصر منذ رحيله قبل ستين عاما .

صحيح أنها صدرت فى بيروت لكنها طبعة ناقصة لم تضم كل أعماله .

وقد عكفت على جمع كل تراثه الشعرى والنثرى سواء الذى سبق نشره فى كتب أو تناثر هنا وهناك حتى وفقنى الله لذلك بعد عشرين عاما من البحث والتنقيب . بحثا عن تراثه الشعرى والنثرى المجهول فى الصحف والمجلات منذ أن بدأ ينشر فى الصحف عام ١٩١٨ وهو مازال ابن السابعة عشرة عن عمره حتى رحيله عام ١٩٤٩ .

ووفقنى الله لجمع تراثه الكامل ما بين تحقيق وتوثيق ومراجعة وتدقيق وبدأت رحلة البحث عن ناشر لأعماله وكانت قصة أليمة تستحق أن تروى لعرقلة بعض من يخافون منافسة على محمود طه وهو فى قبره . ممن يدعون ريادتهم الشعرية الحديثة ولكن الله وفقنى أخيراً بموافقة وزارة الثقافة المصرية على نشر أعماله الشعرية الكاملة حيث يكتسب هذا الإنجاز أهميته لكونه المرة الأولى التى تصدر أعماله الشعرية فى وطنه مصر بعد طول احتباس وانتظار وكأنه الإفراج عن ديوانه الحبيس !

■ حلمى النمنم

ثلاث موجات من التنوير

والرابعة متعثرة

عرفت مصر ثلاث موجات من التنوير، كانت الأولى مع محمد على وكانت الثانية مع إسماعيل باشا، وكانت الثالثة مع ثورة ١٩١٩، وسوف نكتشف أن كل موجة كانت مصاحبة لمشروع سياسى، وطنى، للتحديث وللتحرر بمعناه الواسع، أى السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى.

صدور قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ ضرب مشروع التنوير فى العالم العربى كله، فقد أعاد القرار إلى الواقع مفهوم الدولة الدينية

ونلاحظ كذلك أن كل مشروع قد ضرب من قوى وتيارات سياسية ودولية ، من الخارج غالباً، فضلاً عن ضعف الداخل واستعداد العناصر المعادية للتنوير للانقضاض باستمرار، لكن قبل هذه الموجات الثلاث الكبرى، عرفت مصر إرهاصات بالتنوير، يمكن أن نعتبر مشروع على بك الكبير فى العقد الثامن من القرن الثامن عشر، إرهاصة أولى، حيث سعى لاستقلال مصر عن الدولة العلية، وكانت هناك شريحة من التجار ومن الطبقة الوسطى تساند هذا المشروع وتستفيد منه، على النحو الذى أوضحته بجلاء د. نيللى حنا فى دراسة متميزة لها، لكن أمكن للسلطان العثمانى ضرب هذا المشروع بتأليب قائد جيوش على بك الكبير، كان على بك قد عقد صفقة بنادق مع روسيا، عدوة الدولة العلية فاستغلها السلطان والمحيطون به من الفقهاء كى يفتوا بكفر على بك الذى تعاون مع كفار موسكو!.

يمكن أيضا أن نرى فى حملة نابليون بونابرت إرهاصاً قوياً

■ كاتب وصحفى

للتنوير فقد أدت بالمصريين أن يعود إليهم الشعور والإحساس بالوطنية المصرية بعد قرون جرى فيها اعتبار مصر مجرد ولاية عثمانية تستقبل الوالى القادم من الأستانة كل عام أو عامين على الأكثر وترسل الجزية السنوية إلى عاصمة الخلافة، ويحتمل أهلها فساد واستبداد ومظالم الولاة والمماليك، فقد أثبتت مدافع نابليون أن المماليك عجزوا عن حماية أنفسهم، ناهيك عن حماية مصر والمصريين، وتحمل المصريون مسئولية المقاومة والدفاع عن وطنهم، كما أن نخبتهم من العلماء والمثقفين احتكوا بعلماء الحملة وزاروا معاملهم واطلعوا على بعض تجاربهم الكيميائية والعلمية، ورغم أنها كانت تجارب سطحية وساذجة بالمعنى العلمى فإنها لفتت انتباه المثقفين المصريين إلى أن ما فاتهم كثير، وأن هناك تطوراً وتقدماً علمياً يجب اللحاق به، لقد رصد لنا الجبرتى ذلك الفهم وأصداء ما رآه علماء مصر ومثقفوها فى المجمع العلمى المصرى، الذى كان نابليون قد قام بتأسيسه.

خرجت الحملة بعد ثلاث سنوات وكان لابد أن ترحل وخرجت بعلمائها ومطبعتها لكن الروح التى دبت فى المصريين ظلت فيهم وكانت تقوى يوماً بعد يوم، وفى خلال أربع سنوات من خروج الحملة تمكن المصريون بفضل تلك الروح من إسقاط اثنين من الولاة وإزاحتهما عن مصر، وفرضوا على السلطان العثمانى أن يعين

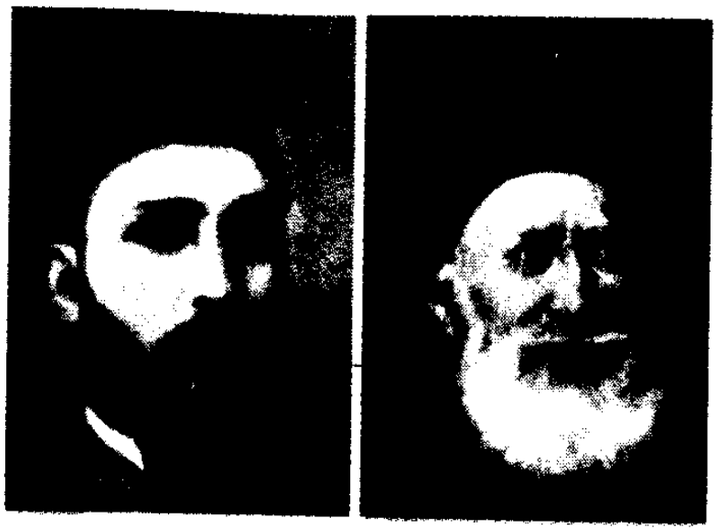

محمد على باشا　　إسماعيل باشا

والياً اختاروه هم وكان ذلك الوالى هو محمد على الذى سيبدأ بعد سنوات من استقراره فى حكم مصر عملية تحديث واسعة ومع تلك التجربة عرفت مصر أول موجة للتنوير.

لم يكن التنوير فى بدايته قضية خلافية كبرى فى مصر بل يمكن القول إنه كان موضع اتفاق عام بين النخبة ولنتأمل أسماء الرواد الأوائل، حيث كانوا على الأغلب من علماء الأزهر، مثل الشيخ حسن العطار والشيخ رفاعة الطهطاوى، كان التنوير آنذاك جزءاً من المسيرة العامة للدولة المصرية، كان ملاصقاً لتحديث الدولة، الذى بدأ مع محمد على ، وقراءة كتاب رفاعة الطهطاوى «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» يكشف حدود ذلك التنوير، تحدث فيه عن النهوض بالمرأة، ووجود المشروطية أو الدستور ومظاهر الفنون والثقافة الحديثة كالمسرح والموسيقى والرقص وغيرها.. ولنتذكر أن ذلك الكتاب قد طبع أول مرة بأمر محمد على نفسه.

ثلاث موجات من التنوير

ورغم أن محمد على بقى حاكماً مستبداً فقد شهد عصره عدداً من مظاهر الاستنارة حيث تأسست مدرسة القابلات أو مدرسة التوليد، وهى أول مدرسة للفتيات فى مصر، وخرجت السيدات للعمل الرسمى لأول مرة، ففى حروب الشام حيث تم تجنيد أعداد كبيرة من الشباب المصريين خرجت المرأة للعمل فى المشاغل والورش الرسمية.. وبعد محمد على تراجعت عمليات التحديث والاستنارة قليلاً ، لكن فى عهد الوالى محمد سعيد، صدرت اللائحة السنية التى تتيح للمصريين لأول مرة تملك الأراضى الزراعية وتكوين طبقة الملاك وفى عهده أيضا تم إسقاط الجزية عن الأقباط واليهود المصريين حيث صار التجنيد عاماً لكل المصريين؛ ومن ثم سقط المبرر الشرعى للجزية على غير المسلمين من المصريين، وقام سعيد بترقية الجنود المصريين إلى ضباط، لأول مرة وكان بين هؤلاء الذين تمت ترقيتهم من تحت السلاح حتى وصل إلى رتبة أميرالاى أحمد عرابى، ياور محمد سعيد نفسه .

●●●

الانطلاقة الثانية للتنوير كانت فى عصر إسماعيل الذى امتلك مشروعاً واسعاً للتحديث، وانفتح على أوروبا حتى أنه تمنى أن يجعل بلاده قطعة من أوروبا، ومعه اتسع نطاق التنوير، فقد انتشرت الصحف وظهر المسرح، ونضجت أفكار الطهطاوى واكتمل مشروع الاستنارة لديه بكتابيه «المرشد الأمين للبنات والبنين»، و«مناهج الألباب المصرية»، الأول يعتبر أقوى وأكمل تصوراً لتحرير المرأة العربية والمصرية، حتى يومنا هذا.

الثانى أى مناهج الألباب يعد أهم وأنضج كتاب فى الوطنية المصرية، فى زمنه وعلى دربه سوف تظهر فيما بعد كتابات صبحى وحيدة وحسين فوزى وأنور عبدالملك وجمال حمدان.

ويمكن القول إن موجة التنوير أو مشروع الاستنارة فى عصر إسماعيل اعتمد اعتماداً كبيراً على نظام التعليم، الذى قام عليه على باشا مبارك، حيث تم التوسع فى التعليم المدنى، الذى بدأ فى عصر محمد على، ولاننسى أنه فى تلك الفترة أنشأ على مبارك مدرسة (دارالعلوم)، لتخرج الأفندية، المطربشين، وتنافس المشايخ المعممين، الذين يدرسون ويتخرجون فى الأزهر، وكذلك الحال بالنسبة لمدرسة الهندسة أو المهندسخانة وغيرها من المدارس العليا التى ستصبح فيما بعد نواة الجامعة المصرية.. وكانت هذه المدارس تقدم تعليماً

بدأ محمد على تأسيس الدولة الحديثة وبدأت معها أول موجة للتنوير والتحديث

مدنياً وتعلم طلابها اللغات الأجنبية، خاصة الفرنسية والإنجليزية، وازداد معدل إرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا، وأدى افتتاح قناة السويس إلى انفتاح أكبر على الغرب، ومن جراء الافتتاح تأسست دار الأوبرا الخديوية، لتكون أول دار أوبرا فى الشرق، وفتح ذلك الباب للارتقاء بالفنون المصرية والشرقية.. وهكذا بدلاً من فئة (العوالم) التى عرفها المجتمع المصرى بكل دلالاتها وإسقاطاتها الأخلاقية والاجتماعية، صارت لدينا فئة الفنانين والفنانات، وفى هذا المناخ يصبح اسم عبده الحامولى مدعاة للفخر وللتقدير من أعيان ووجهاء المجتمع، فضلاً عن كبار المسئولين بالدولة، بمن فيهم الخديو إسماعيل نفسه، ولم يكن الحامولى وحده هو الذى نال واستحق ذلك، كان معه آخرون، مازال التاريخ يذكر لنا أسماؤهم.

خطا التنوير خطوة جديدة ومهمة، تتمثل فى مواجهة الاستبداد السياسى والتدخل الأوروبى فى شئون مصر، الذى أخذ يزداد أواخر عهد إسماعيل مع تفاقم أزمة الديون، وأظهر التنوير تململاً مصرياً من سيطرة العناصر التركية والمستتركة على المواقع الرئيسية فى الدولة.

شهدت مصر دعوات استنارة وتحديث على نطاق واسع وبدا أنها تحقق بعض النجاحات، فقد نال المصريون مجلساً تشريعياً أو برلمان للمرة الأولى، وعرفت مصر الدستور المدنى وبعد خلع إسماعيل

سعد زغلول　　نابليون بونابرت

وتولى ولى عهده محمد توفيق سادت حالة من التفاؤل، ذلك أن توفيق وهو ولى للعهد كان منضوياً فى جماعة التنويريين وحضر بعض جلسات الشيخ جمال الدين الأفغانى.

هذه الحالة أو موجة التنوير الثانية لم تدم طويلاً، إذ انتهت نهاية أقسى كثيراً من نهاية الحالة أو الموجة الأولى للتنوير فى عصر محمد على، انتهى المشروع هذه المرة باحتلال بريطانيا لمصر ومحاكمة العرابيين، ونفى أو سجن معظمهم - الشيخ محمد عبده نفى، خارج مصر- وانتكس مشروع الاستنارة طوال سنوات محمد توفيق، التى قدر لها أن تنتهى فى مطلع العام ١٨٩٢ بتولى عباس حلمى كرسى الخديوية.

لايمكن القول إن عباس حلمى كان لديه مشروع للاستنارة، ولا موجة جديدة للتنوير لكن كانت لديه فى سنواته الأولى ، رغبة فى مقاومة الاحتلال واسترداد سلطته من كرومر المتغطرس، وهنا تكونت

ثلاث موجات من التنوير

مدرستان: الأولى تتمثل فى مصطفى كامل وحزبه، الذى يرى المقاومة المباشرة للإنجليز وخضوع مصر للدولة العلية، ولم يجد هذا التيار غضاضة فى الاتجاه إلى فرنسا للاستقواء بها فى مواجهة الإنجليز.

المدرسة الثانية رأت أن تستقل مصر عن الإنجليز ولكن بنفس الدرجة عن الدولة العلية، وأنه يجب الاستعداد للاستقلال بالتعليم والتربية السياسية، القائمة على الحريات المدنية أو الديمقراطية، وهى المدرسة التى تشكلت حول جريدة الجريدة وحزب الأمة، هذه المدرسة تبنت مشروع تحرير المرأة، فقد كان قاسم أمين أحد رموزها، وهى أيضا التى دعت وسعت لتأسيس الجامعة المصرية، وتوسيع نطاق الحريات فى المجتمع المصرى، خاصة الحريات السياسية والفكرية، وضمت هذه المدرسة تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده مثل لطفى السيد وعلى عبدالرازق ومصطفى عبدالرازق وسعد زغلول نفسه، لعبت هذه المدرسة دوراً بارزاً فى نشر الاستنارة بالمجتمع، من خلالها عقدت المحاضرات النسائية بالجامعة المصرية فى سنواتها الأولى، وجرت مواجهة الاستبداد السياسى والاجتماعى، وكان قيام الحرب العالمية الأولى، وما جرى على المجتمع المصرى من آثارها مؤشراً على تراجع دور هذه المدرسة، ومن ثم تراجع الاستنارة فى المجتمع كله.

هذه المرحلة كلها، هى امتداد لموجة أو مشروع الاستنارة فى عصر إسماعيل، ولو شئنا الدقة لقلنا إنها بقايا ذلك المشروع، وأنفاسه الأخيرة، لكنها ليست موجة ولا مشروعاً مستقلاً بذاته.

●●●

مع ثورة ١٩١٩ كانت الانطلاقة أو الموجة الثالثة للتنوير فى مصر، وتمثل ذلك فى عدة أمور:

أولاً: شاركت السيدات المصريات فى أحداث الثورة، سواء القيام بالمظاهرات والتصدى للجنود الإنجليز، أو المشاركة الفعلية فى عمليات المقاومة مما أدى إلى سقوط عدد من الشهيدات فى الشوارع بنيران جنود الاحتلال، وكان ذلك الدور تأكيداً على أن للمرأة دوراً وطنيا وسياسيا مهما، وقد قامت به وتحملت أعباءه كاملة، وهو دور لايقل فى نوعيته وخطورته بأى حال من الأحوال عن دور الرجل، وإذا كانت المرأة تقوم بهذا الدور وتتحمل

خرجت حملة نابليون بعلمائها ومطبعتها، لكنها أحيت فى المصريين الشعور بوطنيتهم وبمصريتهم، لذا أسقطوا اثنين من الولاة العثمانيين واختاروا حاكمهم وفرضوه على السلطان العثمانى

تلك المسئولية، فلا يصبح هناك مبرر لحرمانها من حقوقها السياسية والاجتماعية، وكذلك حق التعليم والعمل، إن ذلك الحرمان فى هذه الحالة يصبح افتئاتاً وظلماً لايليق.

ثانيا: حققت الثورة اندماجاً، ربما للمرة الأولى، بين مشايخ الأزهر ورجال الكنيسة المصرية، فصعد القمص سيرجيوس منبر الأزهر ليخطب منددا بالاحتلال وداعياً إلى الثورة، ومن داخل الكنائس الكبرى فعل عدد من مشايخ وعلماء الأزهر الشيء نفسه، مما قطع الطريق على رجال الإنجليز بإثارة الطائفية فى الثورة والمجتمع المصرى.

ثالثا: شاركت فى الثورة مختلف طوائف الجماعة المصرية، ليس فقط بالمعنى الدينى ولكن بالمعنى الاجتماعى والثقافى.. رجال التعليم المدنى من صحافيين ومحامين وأطباء وكذلك رجال التعليم الدينى، المتعلمون وغير المتعلمين، الأفندية والتجار وعمال العنابر والورش والفلاحون فى القرى المصرية.

رابعا: تزعم هذه الثورة أناس ينتمون أصلاً إلى مجموعة الاستنارة التى خرجت من معطف الأستاذ محمد عبده، وفى مقدمتهم سعد زغلول نفسه.

وانتهت الثورة إلى إعلان استقلال مصر فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، وترتب عليه صدور دستور ١٩٢٣، الذى شارك فى وضعه رموز الأمة المصرية،

على مبارك عبده الحامولى

وبالاستقلال انتهت تماماً علاقة مصر بالدولة العلية، وتوقفت الجزية السنوية التى كانت الميزانية المصرية تتحملها سنوياً وترسل إلى اسطنبول، وبدا أن مصر تدخل مرحلة جديدة ملؤها التفاؤل، والشعور بالثقة وإمكانية تحقيق كل مايطمحون إليه، يكفى أنهم انتزعوا اعترافاً بالاستقلال من بريطانيا العظمى، التى لم تكن الشمس تغيب عنها، كان المصريون يطمحون إلى بناء الدولة المدنية، كان هناك وزير يهودى ووزير مسيحى وكان هناك برلمان منتخب، وتشكل الاتحاد النسائى المصرى الذى كان من بين مطالبه أن تحصل المرأة على حقوقها السياسية، هذا الحلم واجهته صعوبات حقيقية، تمثلت فى الملك فؤاد باستبداده التقليدى، لكن ذلك أمر متوقع، وكان مقدوراً عليه.

الأزمة الحقيقية التى واجهت مشروع التنوير، ظهرت سنة ١٩٢٤ حين قرر مصطفى كمال أتاتورك، إلغاء دولة الخلافة الإسلامية وإسقاط الخلافة ذاتها، واهتزت

المشاعر فى مصر وفى غيرها، فقد كانت تلك المرة الأولى فى التاريخ الإسلامى، منذ وفاة النبى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ (سنة ٦٣٢م) التى لاتكون فيها خلافة، وترتب على ذلك، أن سعى الملك فؤاد أن يكون هو خليفة المسلمين، وأن تكون مصر هى دولة الخلافة، وكان معنى هذا حرفياً الذهاب مباشرة إلى الدولة الدينية وإسقاط أى احتمال لقيام الدولة المدنية. تم إجهاض حلم الملك فؤاد ومشروعه بفعل كتاب الشيخ على عبدالرازق، الذى صدر سنة ١٩٢٥، بعنوان «الإسلام وأصول الحكم» وذهب فيه إلى أن الإسلام دين فقط، وأن محمداً كان نبياً هادياً ولم يكن حاكماً ولا أميراً للمؤمنين.. قامت حول الكتاب معركة كبرى، ترتب عليها أن تصدى الأزهر وهيئة كبار العلماء به للكتاب ولصاحبه القاضى الشرعى، وكان أن فصل من القضاء الشرعى، وأسقطت عنه شهادة العالمية التى كان قد نالها، وتدور إلى اليوم مناقشات نظرية حول عمق هذا الكتاب ومستوى كتابته وتأثير الشيخ محمد عبده فى الكتاب، وتأثر عبدالرازق برأى أحد المستشرقين، وينسى هؤلاء أن الكتاب صدر لهدف محدد، هو إجهاض مشروع الملك فؤاد للخلافة، وقد حقق الكتاب هدفه تماماً. ولم تتوقف تلك المعركة، صحيح أن حلم الملك فؤاد قد مات، وصار إلغاء الخلافة واقعاً يقر به الجميع، لكن لم ينته الأمر عند هذا الحد فقد تشكلت إثر سقوط الخلافة، جمعية الشبان المسلمين سنة ١٩٢٧ وجمعية الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨، كانت الأولى تدعو إلى العودة إلى أصول الإسلام، وأضافت الثانية إلى تلك الدعوة ضرورة قيام الدولة الإسلامية، ومن ثم فقد تصدى أنصارها لمظاهر الاستنارة باعتبارها وافداً من الغرب وتمثل تحدياً وتهديداً للإسلام ذاته.

ولأسباب عديدة اكتسبت الجماعة أرضية فى الشارع المصرى، خاصة مع تزايد وتفاقم الأزمات الاجتماعية والاقتصادية فى مصر، مع تعثر المشروع الوطنى والدولة المدنية بتعنت الإنجليز فى الانسحاب من مصر مما أعاق قيام الدولة المدنية الوطنية المستقلة، لكن كانت هناك مقاومة مدنية لمشروع الإخوان وكانت هناك جماعات ودعاة استنارة بحق، تمثلت فى مثقفى حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين، وكذلك جماعات اليسار التى أخذت فى الظهور والانتشار بين الشباب المتعلمين والمثقفين، فى تلك الفترة سمح للفتيات بدخول الجامعات، واتسعت الجامعة المصرية، التى صارت جامعة حكومية وأسس طه حسين جامعة جديدة فى سنة ١٩٤٢، حملت اسم جامعة فاروق، «جامعة الإسكندرية حالياً».

يمكن القول بأن مشروع الاستنارة

كان يقاوم وكان يحقق تقدماً فى بنية المجتمع وثقافته، وكانت مواجهة الإخوان والجماعات الأصولية ممكنة وسهلة، لكن الكارثة الكبرى لمشروع التنوير فى مصر وقعت فى سنة ١٩٤٧، وأظن أن ذلك العام كان كارثياً للتنوير فى مصر وفى المنطقة العربية كلها، إلى يومنا هذا.

فى سنة ١٩٤٧ أصدرت الأمم المتحدة قرارين، مازالت أصداؤهما تردد بيننا، حتى يومنا هذا، فقد صدر قرار بتقسيم فلسطين إلى دولتين، دولة للعرب، وأخرى لليهود، وقرار بتقسيم القارة الهندية إلى دولتين، الأولى الهند وتضم الهندوس فى المقام الأول، والثانية باكستان وتضم المسلمين بشكل أساسى.

فى فلسطين لم تقم دولة العرب، أى الدولة الفلسطينية، بل قامت دولة اليهود (إسرائيل) فى ١٥ مايو ١٩٤٨، واستطاعت الدولة الوليدة أن تهزم جيوش الدول العربية مجتمعة، وفى الهند أقيمت دولة الباكستان، ونالت اعتراف جميع الدول تقريباً، وكان معنى ذلك لدى فريق غير قليل من المثقفين، ولدى الشارع فى مصر أن الدين أو الفكرة الدينية هي التى يمكن أن تقيم وتؤسس الدولة من لاشىء، ومن ثم صارت فكرة الدولة الدينية، واقعاً متجسداً أمام الكثيرين، وترحب بها الأمم المتحدة وتساند قيامها الدول الغربية، بينما الدولة الوطنية المدنية المستقلة يتعذر قيامها وتقف ضدها الدول الغربية

جمال الدين الأفغانى — الشيخ محمد عبده

والاستعمارية.

قرار التقسيم أعطى فرصة كبرى لأفكار الإخوان وكل الجماعات الأصولية، فظهر مفهوم الجهاد الدينى والتنادى إلى نصرة القدس أولى القبلتين، على المستوى المسيحى ظهرت كذلك الدعوة إلى إنقاذ بيت لحم، مهد السيد المسيح، باختصار صرنا معمل تفريخ أفكار وجماعات دينية أو الدعوة إلى إحياء الدولة الدينية التى هجرناها مع الاستنارة والدولة المدنية، وقيل بوضوح إن ماحدث فى فلسطين ليس سوى عقاب إلهي وانتقام ربانى من فساد الأخلاق وانحطاط القيم والمثل، وأننا ابتعدنا عن طريق الله فابتعد الله عنا، ولم ينتبه أنصار هذا القول إلى أن ذلك يعنى أن الله راض عن اليهود واليهودية وأنه يكافئ اليهود بما يعنى ضمناً فساد المعتقد غير اليهودى، لم يكن فساد الأخلاق والبعد عن القيم عند هؤلاء يعنى غير سفور المرأة، والاختلاط فى الجامعات، وأفلام السينما التى تشجع

على ذلك، وغيـر هذا من المظاهر التى ناضلت أجيال سابقة لتحقيقها.

ربما لو أعلن قيام دولة فلسطين فور صدور قرار التقسيم لاختلف شكل الأزمة ، لكن القرار ترتب عليه فعليا إلغاء اسم فلسطين ، وتحول شعبها إلى مجموعة من اللاجئين والمهجرين .

يمكن القول إن عام ١٩٤٧ وكذلك عام ١٩٤٨ كانا فارقين فى الواقع والتاريخ المصرى بالنسبة لمشروع التنوير، وأستطيع القول إن ماجرى عام ١٩٤٧ والبشاير التى قبله كانت واضحة وتؤكد وقوعه، وهذا هو السبب المباشر فى تحول كاتب مثل سيد قطب من ناقد أدبى، يتميز بانفتاح إنسانى واسع وتتلمذ على العقاد وأعجب بطه حسين ليصبح الكاتب الأصولى الأشد تزمتاً والأكثر دعوة إلى قيام الدولة الدينية والأشد تكفيراً لغيره من المسلمين، فما بالنا بغير المسلمين؟!.

●●●

وفى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قامت فى مصر ثورة بدأت بحركة الجيش، ونجحت هذه الثورة فى إنجاز الاستقلال الوطنى بإجلاء الإنجليز عن مصر، وكان ذلك حلم ثلاثة أجيال سابقة، وتم تأميم شركة قناة السويس، لتعود القناة مصرية، وصمدت مصر للعدوان الثلاثى.. وتحققت مجانية التعليم الجامعى سنة ١٩٥٨، ونالت المرأة المصرية حقوقها السياسية، وصار لديها حق الترشيح والتصويت ونالت عضوية البرلمان، ثم صارت وزيرة، وتم التوسع فى إرسال البعثات التعليمية إلى خارج مصر، والاتجاه إلى التصنيع، وصاحب ذلك سعى نحو تحقيق العدالة الاجتماعية، وكل هذه الخطوات أو معظمها كانت مطالب وطموح الحركة الوطنية المصرية ومشروع التنوير، صحيح أن مشروع يوليو ١٩٥٢ افتقد ـ فعلياً ـ إلى الحريات السياسية، بل قام على التضييق عليها والتوسع فى الإجراءات الاستثنائية، لكن هذا الجانب كان من الممكن تداركه، هذا المشروع الضخم والطموح تم الإجهاز عليه فى ٥ يونيه ١٩٦٧، بفعل تآمر خارجى وضعف شديد فى الداخل، وأيا كانت الأسباب ففى يونيه ١٩٦٧ وبعدها ارتد العقل والتفكير المصرى بل العربى كافة عشرين عاماً إلى الوراء، أى لحظة صدور قرار التقسيم وبروز الدولة الدينية، أو المنطلقة من أساطير دينية وكهنوتية.

وأظن أننا اليوم، فيما يخص التنوير والاستنارة لم نبرح عقلياً ووجدانياً لحظة صدور قرار التقسيم وما أعقبه، ذلك أن معظم الأحداث التى جرت بعد التقسيم ومازالت تجرى إلى اليوم، هى تأكيد لمعنى وروح ماجرى عام ١٩٤٧، وحتى حينما حقق الجيش المصرى شيئاً عظيماً باهراً يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣، تم إهدار الجهد الذى بذل والتدريبات التى تمت

والتضحيات التى قدمت وعبقرية الإنسان المصرى مخططاً ومقاتلاً، لقد اختزل الأمر كله فى صيحة (الله أكبر) والرؤيا التى قصها شيخ الأزهر آنذاك د. عبدالحليم محمود، من أن الملائكة هى التي حاربت يوم ٦ أكتوبر وكأن المقاتل المصرى لم يكن له أى فضل أو دور، حتى لحظة الانتصار سارت فى سياق عقلية وقرار التقسيم سنة ١٩٤٧، وإلى اليوم نحن فى تلك اللحظة.

●●●

بينما كانت الدعوة فى مطلع القرن العشرين إلى سفور المرأة وحقها فى التعليم وفى العمل، الآن فى مطلع القرن الحادى والعشرين أصبحت الدعوة إلى أن الحجاب فريضة والنقاب فضيلة، وأن المرأة لبيتها وفقط.

فى مطلع القرن العشرين كان المصريون جميعاً أمراء وأعياناً، أغنياء وفقراء، مسلمين ومسيحيين ويهوداً يتنافسون فى التبرع لإنشاء الجامعة المصرية وتأسيس الهلال الأحمر المصرى، الآن نجدهم يتنافسون فى بناء زوايا ومساجد وكنائس للاستقطاب الدينى والطائفى وليس للتعبد المخلص والإيمان الصادق !.

فى مطلع القرن العشرين كان للبهائيين محافلهم ومعابدهم بمصر، لايمسها أحد ولا يمسهم أحد بسوء، ولا تنتقص حقوقهم كمواطنين، اليوم يتم

على عبد الرازق　　لطفى السيد

التنادى لإحراق بيوتهم وقتلهم، ويجدون العنت فى استخراج بطاقات الهوية!.

ولنتأمل المشهد اليوم حولنا الجمهورية الإسلامية فى إيران، وفى العراق إعلاء للمذهبية الدينية والطائفية، وفى لبنان حزب دينى يسيطر ويحمل السلاح على خصومه من المواطنين المدنيين، وفى غزة على حدودنا مباشرة جماعة دينية متشددة هى حماس، وفى إسرائيل يجرى العمل لتكون الدولة، دولة اليهود فقط، وفى الداخل المصرى ترعى الأصولية وتتشدد وليس أمام دعاة التنوير والاستنارة سوى مواجهة كل ذلك كأفراد ومجموعات صغيرة، لكن ليس هناك مشروع استنارة كبير على غرار المشروعات الثلاثة التى عرفتها مصر الحديثة.

أخشى القول إنه لاتوجد فى الأفق القريب مؤشرات لإمكانية ظهور مشروع للتنوير، وأسباب ذلك كثيرة وعديدة، تستحق أن نتناولها فى مقال آخر.

■ حوار أجراه فى دمشق: محمد الشافعى

د. رياض غنام أغا وزير الثقافة السورى:

الثقافة تصلح ما تفسده السياسة

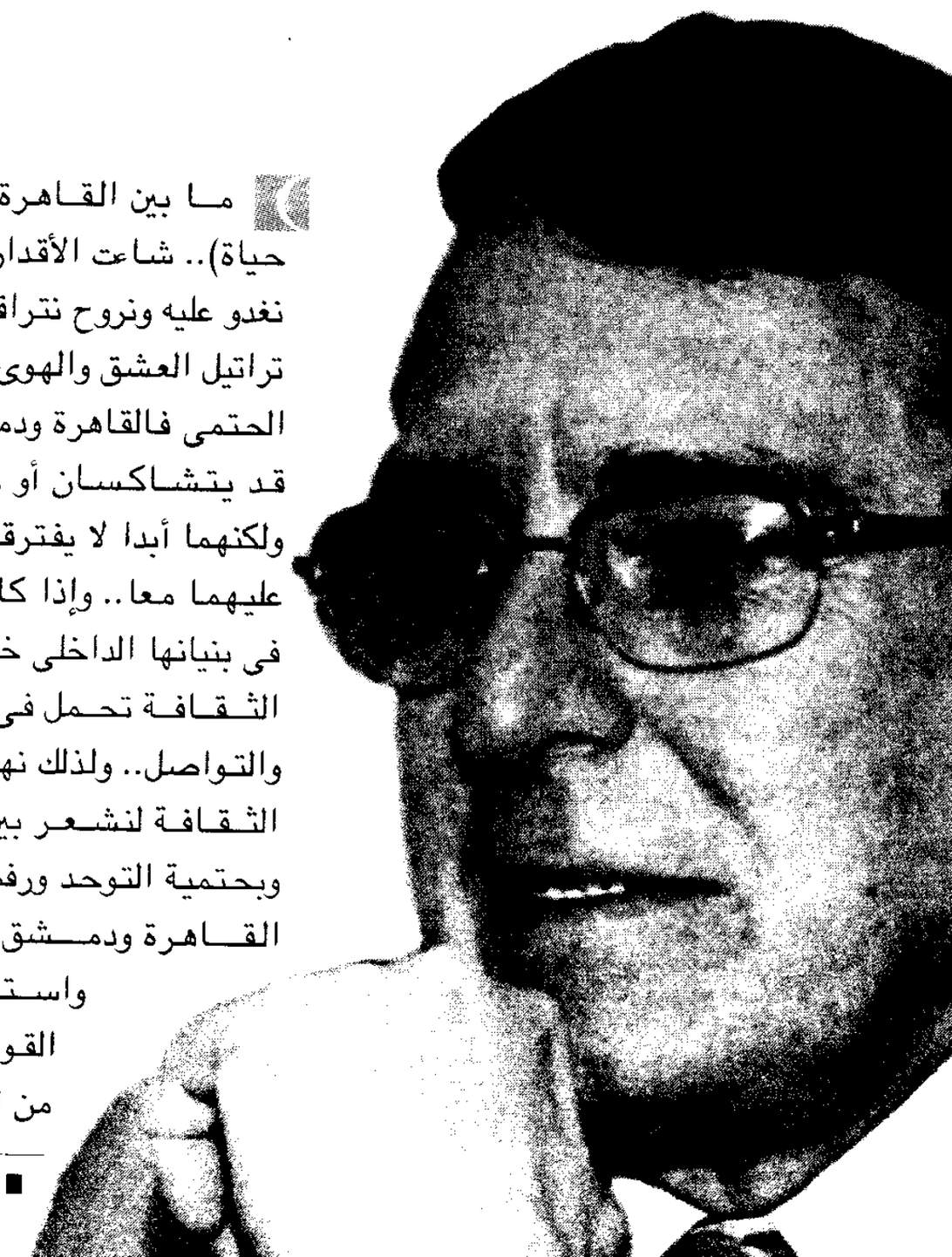

ما بين القاهرة ودمشق (جسر حياة).. شاءت الأقدار أن يظل موصولاً.. نغدو عليه ونروح نتراقص طربا على أنغام تراتيل العشق والهوى.. إنه جسر الوجود الحتمى فالقاهرة ودمشق (توأم ملتصق) قد يتشاكسان أو حتى يتخاصمان ولكنهما أبدا لا يفترقان.. ففراقهما خطر عليهما معا.. وإذا كانت السياسة تحمل فى بنيانها الداخلى خلايا التشاكس.. فإن الثقافة تحمل فى بنيتها التوافق والتواصل.. ولذلك نهرع دوما إلى مرفأ الثقافة لنشعر بين جنباته بالأمان.. وبحتمية التوحد ورفض الفرقة.. فما بين القاهرة ودمشق تواصل حتمى واستراتيجى.. فالأمن القومى لكل منهما يبدأ من الآخر.. والثقافة هى

■ كاتب صحفى

▫ الثقافة السورية تعمل وفق رؤية عربية خالصة تخدم المشروع العربى

▫ حسنا مطراب كبير فى المسرح والموسيقى والكتاب والمهرجانات الفنية

▫ ننطلق من هدف أساسى هو أن الثقافة لابد أن تؤدى إلى التنوير

▫ التحول الاقتصادى فى المجتمع السورى راعى تماما البعد الاجتماعى

التى تدعم جسر الحياة ما بينهما.. وتعمل فى كل لحظة على إزالة (عكارة السياسة) والعمل فى الوقت نفسه على تضفير وشائج جديدة من الرؤى والأفكار والإبداع.. ولكل ما سبق فقد سارعت بعد وصولى إلى دمشق مباشرة بالاتصال بالدكتور رياض غسان أغا وزير الثقافة السورى والذى رحب كثيرا باللقاء وبالحوار لنؤكد معا على ضرورة وحتمية تقوية (جسر الحياة) الذى يربط بيننا ولنسأل أيضا عن كيفية إقالة الثقافة العربية من عثرتها لتصبح أكثر قدرة على المقاومة والتحدى.. وذلك من خلال تلاقح الأفكار فيما بينها لترفع رايات الصمود فى وجه تيارات التذويب والتقريب.

* رغم أن التكنولوجيا قد جعلت العالم عند أطراف أصابع كل إنسان إلا أننا كعرب لم نحقق التواصل الأمثل فيما بيننا ربما لانشغالنا بمحاولات التواصل مع الآخر الغربى.. ولذلك نود أن نتعرف على تفاصيل الخريطة الثقافية السورية فى الوقت الراهن؟

- نحن فى سوريا نعمل وفق رؤية عربية خالصة.. تؤكد على المشروع العربى التحريرى بشكل خاص.. وتوظف الثقافة لخدمة قضايا الأمة وتحرير الأرض المحتلة فكثير من أعمالنا تحمل رسالة قومية تحررية.. وقد انعكس ذلك فى احتفالاتنا بالقدس كعاصمة للثقافة العربية.. ثم احتفالاتنا بدمشق كعاصمة للثقافة العربية.. ونهتم كثيرا بالمسرح وقد نجحنا فى تطوير المسرح الاستعراضى الشامل.. ولدينا فرق ذات مستوى دولى وحضور عالمى.. قدمت أعمالا غير مسبوقة مثل صقر قريش - صلاح الدين الأيوبى .. إلخ.. وهذه الأعمال تقدم قضايا تجمع ما بين رسالة الثقافة والمتعة الفنية الخالصة.. وفى عالم الكتاب طورنا هيئة الكتاب وأطلقنا مشروع الكتاب الالكترونى ورفعنا عدد المطبوع من الكتب.. واهتممنا بالصحافة الثقافية فأضفنا إلى منشورات الوزارة مجلة (الخيال العلمى) لنسد فراغا كبيرا وأصدرنا مجلة (الحياة الفكرية) ومجلة (جسور) ومجلة (الحكواتى) التى تعنى بالتراث الشعبى.. وأصدرنا مجلة (شرفات) وهى دورية مهمة.. وكل هذا إضافة إلى مجلاتنا الشهيرة المعروفة - الحياة التشكيلية - الحياة المسرحية -

حوليات الآثار.. وفى مجال السينما طورنا مهرجان دمشق السينمائى الدولى ليصبح سنويا والحضور فيه بات على مستوى عال.. كما اهتممنا بثقافة الشباب من خلال العديد من المهرجانات مثل مهرجان الفنون الشعبية.. مهرجان مسرح الشباب والذى يعقد سنويا فى محافظة جديدة.. ولم ننس ثقافة الطفل من خلال تنشيط مسرح الطفل واكتشاف المواهب الجديدة.. كما اهتممنا بالمبدعين من أصحاب الحالات الخاصة بعد أن كانوا مهمشين..

وفى مجال الموسيقى أنشأنا العديد من الفرق الكبيرة سواء فى الموسيقى العربية أو السيمفونية إضافة إلى إنشاء ستة معاهد جديدة فى المحافظات لاكتشاف وتنمية المواهب.

وفى الفن التشكيلى وسعنا دائرة التواصل مع فنانى العالم وأقمنا العديد من الملتقيات وآخرها (القدس فى عيونهم) كما شاركنا فى العديد من المعارض الدولية ونشطنا مراكز الفنون التطبيقية.. ومراكز النحت ولدينا ستة ملتقيات نحتية منها ملتقى النحت الذى تقيمه دمشق فى إسبانيا سنويا تعبيرا عن التواصل الثقافى والحضارى.

كما عملنا على تطوير العديد من المؤسسات الثقافية مثل معهد المسرح - معهد الموسيقى - معهد الآثار وتواصلنا مع المعاهد المشابهة فى الوطن العربى والعالم أجمع.. كما شاركنا وبقوة فى العديد من الحوارات الثقافية مع الصين والهند وأسبانيا والاتحاد الأوروبى - وتطوف معارضنا الأثرية عواصم العالم.

* من المؤكد أن الاختلافات كثيرة جدا بين الانشاءات الثقافية وبين دورها التنويرى فقد تظل هذه المنشآت مجرد حوائط وجدران والسؤال هل استطاعت هذه النهضة الإنشائية فى الثقافة السورية أن تدفع الانسان إلى إضاءات التنوير؟

- نحن ننطلق من هدف أساسى وهو أن الثقافة لابد وأن تؤدى إلى التنوير وذلك من خلال تعزيز قيم الفكر الوسطى ونبذ العنف والتطرف.. وتعظيم ثقافة الاعتدال.. وأعتقد أن لدينا فى سوريا تجربة عظيمة فى التسامح والعيش المشترك بين مختلف الأديان والأعراق والجنسيات.. فالمجتمع السورى لم يعان أبدا من أى حالة من حالات التفرقة الطائفية.. مما دفع بريطانيا لإرسال وفد متخصص لدراسة التعايش السلمى فى المجتمع السورى بين الطوائف المختلفة وخاصة الإسلام والمسيحية.. ويعود هذا إلى الدور الرائد الذى تقوم به الثقافة وحرصها على بث أشعة التنوير فى مختلف أرجاء المجتمع.

* يعيش المجتمع السورى منذ سنوات عملية (مخاض اقتصادى) وفترة تحولات من القطاع العام إلى القطاع الخاص والقطاع المشترك وخلال هذه الفترات تصاب الثقافة عادة بحالة من الرخاوة والضعف قد تؤثر وبعنف على البنية الإنسانية والسلوكية للمجتمع؟

- لم نلحظ أى تأثيرات سلبية على

المجتمع السورى ويرجع ذلك إلى أن تحولاتنا بطيئة وتدريجية .. فلم يشعر المجتمع بأى ردود أفعال عنيفة تسئ إلى استقراره.. فعندما تنازلت الحكومة عن بعض شركات القطاع العام الخاسرة استوعبت كل العاملين فى شركات أخرى.. ولم يشعر أحد بذلك لأن أحدا لم يفقد وظيفته.. وفى مجال التحول إلى اقتصاديات السوق حرصنا على البعد الاجتماعى من خلال تجارب جديدة بالمشاركة مع القطاع الخاص.. وحرصنا على النمو الاجتماعى فأصبح لدينا أكثر من ٤٠٠ فرع للبنوك بعد أن كان لدينا بنك واحد (المركزى) ومثلها لشركات التأمين والاستثمارات.. فلم تحدث انعكاسات على الثقافة.. أى أننا لم نأت بقيم جديدة للمجتمع بل وضعنا هذه القيم فى إطار أفضل.. كما حرصنا على توصيل رسالتنا الثقافية بكل السبل فلدينا الآن ٤٠٠ مجلة لم يكن أغلبها موجودا ولدينا عدد ضخم من الإذاعات الخاصة.. ولدينا من ٤٠ - ٥٠ قناة تليفزيونية منها الكثير من القنوات الخاصة التى تصدر من خارج سوريا.

* إذا كانت الثقافة قد تنجو من التحولات الاقتصادية فإن غياب الديمقراطية بمفهومها الغربى إضافة إلى وجود الضغوطات الأمنية لابد أن تصيب الثقافة فى مقتل ويجعل منها كائنا هشا وضعيفا؟

- الديمقراطية مسألة إشكالية.. وأنا شخصيا غير معجب بالديمقراطية الغربية لأنها تخضع للمال والنفوذ.. ونرى الانتخابات النيابية فى أوروبا وأمريكا تخضع لتأثير اللوبيات.. ونعتقد أن التجارب العربية التى قلدت الغرب قد جاءت بالسلب ففى لبنان مثلا الطائفية أقوى من الديمقراطية وفى العراق الشئ

نفسه.. والحقيقة أن الذى نحن فيه ليس أحسن حالا ولا الديمقراطية الغربية هى الهدف .. ولابد من البحث عن طريق جديد لا يخضع لسطوة المال والنفوذ حتى لا تباع الأصوات وتشترى مما يضع المثقفين على الهامش لأن أغلبهم فقراء.. وخارج هذا الإطار فإننى معجب بالتجربة التركية لأنها نموذج محترم للتفاعل بين الشعب والسلطة.. وأتمنى أن نحتذى حذوها حيث لا يتحكم المال ولكن يتحكم الفكر.

* لا يخفى على أحد أن العلاقات المصرية السورية تعيش منذ فترة حالة من حالات (البرودة السياسية) فكيف تعمل الثقافة على عودة الدفء والحيوية إلى هذه (العلاقة الأبدية) بين الشقيقتين؟

- أؤكد بداية على أنه لا مستقبل ولا أمن لسوريا إلا بجناحها الآخر مصر والعكس صحيح تماما.. فهذان البلدان هما جناحا العرب اللذان يحلقان بالأمة كلها إلى الآفاق الرحبة.. وإذا كان أحدهما مهيض الجناح شعر الآخر بالأسى.. وقد تحدث بين سوريا ومصر بعض الخلافات (الإجرائية) حول قضايا محدودة ولكنها لا تؤثر على العلاقات بين الشعبين والحكومتين فالوفود السورية لم تنقطع عن القاهرة.. والوفود المصرية لم تنقطع عن دمشق.. والمؤكد أن الثقافة تصلح ما تفسده السياسة.. وأحيانا تكون القضايا السياسية معقدة مثل الوضع الراهن والأسئلة الصعبة المطروحة على الأمة مثل الموقف من المقاومة والتهديدات الصهيونية لسوريا ولبنان وغزة.. ومثل هذه الأسئلة قد تأخذ البعض بعيدا.. ولكننا نحرص على التواصل الثقافى مع الوطن العربى بشكل عام ومع مصر بشكل خاص.. فقد شاركنا أخيرا فى معرض الكتاب بالقاهرة.. وبشكل عام فإن الثقافة على صعيد النخب تستطيع التعبير عن وجدان عام أكبر من الحكومات.. ففى أنشطتنا إحتفالا بالقدس.. كان المصريون فى مقدمة من شاركوا فيها.. وفى كل فعالياتنا الثقافية لا نعبر عن الحكومات ولكن نعبر عن ضمير ووجدان الأمة الصافى والصادق والذى لا يختلف عليه اثنان مخلصان.

* تحدثتم عن دعمكم الثقافى لما يسمى بـ.. (المشروع العربى) رغم أن الوقت الراهن يشهد تراجعا شديدا لهذا المشروع الذى أصيب بكل الأمراض وانتقلت أدواته من التلاقح إلى التناطح والصراع فكيف نستعيد هذا المشروع لنستعيد معه هويتنا؟

- أؤكد مرة أخرى أننا عندما نصل إلى وجدان الأمة الصافى الخالص فلن يختلف اثنان مخلصان.. وأؤكد على أن المشروع

الديمقراطية الغربية لا تعجبنى وعلينا أن نبحث عن طريق آخر يناسبنا

لا مستقبل ولا أمن لسوريا إلا بجناحها الآخر مصر

العربى قائم ومازال ينبض.. سواء اعترفت الحكومات بذلك أم لا.. أما أنا وأنت وغيرنا من المثقفين العرب فيستطيع كل منا أن يجيب عن مائة سؤال مشترك عن العربية وعن الهوية.. ونحن لا نخلع جلودنا ولا نبدل صفحة وجوهنا.. فالدماء العربية ستظل عربية.. وسوف نظل مستندين إلى مرجعيات عربية وإسلامية.. ولن يستطيع أحد أن يسلبنا قوة أمتنا فالإسلام هو الوقود الذى يحرك الأمة.. والمشروع العربى يستفيد من طاقات الأمة ويستثمر كل الآليات بما فيها الثقافة المسيحية – فنحن فى سوريا مثل مصر جاء الإسلام ليتوافق مع الثقافة المسيحية.. والتجربة المصرية رائدة فى ذلك ، ومن الممكن أن نرى كيف استوعبت مدرسة الإسكندرية فى القرن الأول الميلادى الثقافة اليونانية بعد أن ترجمت كل علومها.

* تتعرض الهوية العربية لحالة استهداف دائم.. تصاعد فى الفترة الأخيرة بعد إعلان (الأجندة الأمريكية) التى تطالب بتغيير الخطاب الدينى والثقافى والإعلامى ومناهج التعليم.. فهل مازالت لدينا فرص للمقاومة والمواجهة وبأى آليات؟

– إن أكبر مؤامرة تعرض لها العرب هى إشاعة موقف متهكم من (نظرية المؤامرة).. حيث تمكن أعداء الأمة من تحييد البعض تجاه هذه النظرية.. ولم يجيبونا هل ما يحدث لنا مجرد صدفة..؟ فالتاريخ ليس صدفة ولكنه خطة.. وإذا ما اتفق اثنان على شئ فهما يتآمران عليه.. ولهذا نجد المؤتمرات التى يعقدها زعماء العالم تتحول فى غالبيتها إلى (مؤامرات).. فهل كانت حرب الغرب ضد العراق مصادفة أم مؤامرة..؟ ونحن ندرك وجود خطط لإضعاف الأمة.. فهناك مؤامرة دائمة من الغرب لتفكيك وإضعاف الأمة العربية لصالح المشروع الصهيونى.. ذلك المشروع الذى يحتل ويقتل ويريد الهروب من مسئولية ذلك.. والاختراق الثقافى لنا متعدد الأشكال.. ولكنى أعتقد أن أمتنا (محصنة) فعندما يزداد حجم الاختراق يظهر (الحجاب) وبقوة وهذا دفاع تلقائى من الناس خشية (التعرى) فيضعون الحجاب رمزا لإعلان وإعلاء الهوية وليس مجرد طقس دينى.. وقد ظهر الحجاب بقوة فى مصر وسوريا بعد عام ١٩٦٧.. لإحساس الناس بخطورة الإنهيار.. فكان الاعتصام بالحجاب للإعلان عن قوة الأمة.. كما عادت ظاهرة الحجاب وبقوة بعد اقتحام شارون للمسجد الأقصى عام ٢٠٠٠ فزاد النشاط الدينى فى غزة .. وهذا ليس موقفا دينيا أو فكريا أو شخصيا من الحجاب وذلك

لأننى أحلل ولا أفتى.. فالحجاب بدأ يهوديا ثم مسيحيا (راجع صور السيدة العذراء).. أما الحجاب لدينا الآن فهو نوع من المقاومة السياسية والصمود القوى فى وجه محاولات استهداف هوية الأمة.

* هذا التحليل يعنى أن الدين هو أهم آليات المقاومة والصمود فى وجه محاولات الاستهداف الدائمة لهويتنا.. ولكن المقاومة بالدين سوف تصب بالتأكيد فى صالح جماعات (الإسلام السياسى) مما يدفع الأنظمة العربية إلى القلق والتوتر وربما الاندفاع نحو المشروع الأمريكى؟

- إننى أرفض ما يسمى بـ..(الإسلام السياسى) وغير مؤمن به وأعجب ممن يعملون على تقسيم الإسلام وكأنه نوع من المطاعم.. فالإسلام هو الإسلام وهو هوية وانتماء.. واستغلال الإسلام فى السياسة قد جرّ على الأمة ويلات كثيرة عبر تاريخها الطويل.. وأتمنى أن نعزز الفصل بين الدين والسياسة.. فالدولة العربية الأولى التى قامت فى دمشق (الدولة الأموية) كانت مدنية ولم تكن دينية.. ونحن الآن فى سوريا (دولة علمانية) تعيش فيها الأديان بحرية تامة.. وأتمنى على الثقافة العربية ألا تستخدم مصطلح الإسلام السياسى .. لأن الإسلام حضارة تشتمل كل شئ.

* بعد أن تراجع كثيرا حلم الوحدة السياسية للعرب لم يبق لهذه الأمة إلا فكرة (الوحدة الثقافية) كآخر معاقل الحفاظ على الهوية ومواجهة موجات الاستهداف التى لا تنتهى؟

- أعتقد أن العرب يعيشون الآن حالة أقرب إلى حالة (الوحدة الثقافية) فمازالت لغتنا واحدة.. ومرتكزاتنا واحدة.. ومعتقداتنا واحدة.. والوحدة لا تعنى أن نكون على رأى واحد لأنها تستوعب اختلاف الرؤى والآراء.. وأؤكد على أنه لا خوف على الثقافة العربية لأنه لا خوف على اللغة العربية التى يحفظها القرآن الكريم.

وعليك أن تراجع خريجى الجامعة الأمريكية فى مصر ولبنان فقد خرج منها مناضلون كبار يدافعون عن الهوية العربية.. وحتى العرب الذين يعيشون في الغرب تملؤهم الروح العربية.. ثم إن الغرب يحاول اختراق كل الثقافات الأخرى.. ومثل هذه المحاولات تتحول غالبا إلى (استفزاز إيجابى) لصالح الثقافة الأم.. كما أن هذه الاختراقات تدعونا إلى مراجعة إبداعاتنا لكى تدفع حقائقنا الأساسية إلى وضع الثبات والمقاومة.. أما (المستغربون) أو دعاة التغريب فقد خسروا كثيرا لأنهم تركوا أماكنهم فى الثقافة العربية ولم يجدوا أنفسهم فى الثقافة الغربية

المشروع العربى مازال ينبض شاءت الحكومات أم رفضت

فضاعوا.. فأولئك العرب الذين يكتبون بلغات غير عربية لن يكونوا أبدا أدباء ألمان أو فرنسيين أو انجليز أو أمريكان وللأسف لن يكونوا أدباء عرب.. فهل يستطيع أى فرنسى أن يزعم بأن (أدونيس) شاعر فرنسى.. وكل هذا يؤكد ضرورة العمل على حفظ الهوية العربية وتقويتها ضد كل حالات الاستهداف.

* د. رياض غسان أغا وزير الثقافة السورى تتوزع اهتماماتك ما بين الأدب والدراما والسياسة فكيف جمعت بين ما قد يبدو متناقضات؟

- درست اللغة العربية فى كلية الآداب جامعة دمشق.. ثم حصلت على الماجستير فى علوم الحضارة الاسلامية.. وحصلت على الدكتوراه.. فى الفلسفة من أكاديمية العلوم فى جامعة أذربيجان حول (فلسفة الإعلام العربى فى عصر العولمة) وعملت مدرسا للأدب العربى.. ومديرا لبرامج التليفزيون ومديرا للانتاج الدرامى ونائبا للمدير العام لهيئة الاذاعة والتليفزيون..

وانتخبت عضوا فى مجلس الشعب عام ١٩٩٠.. ثم عملت مديرا لمكتب الشئون السياسة برئاسة الجمهورية.. ثم عملت سفيرا لسوريا فى سلطنة عمان ثم فى دولة الإمارات العربية المتحدة.

وقدمت للدراما التليفزيونية العديد من المسلسلات والبرامج أهمها (الشك - الطبيبة - أعلام من التاريخ - مائة عام - الابداع - عناوين - حروف مضيئة .. إلخ).

ولى العديد من المؤلفات منها (سارح فى الزمان - سارح فى المكان - من طيوب الذاكرة - بين السياسة والأدب - أحلام منتصف الليل - العرب وتحديات القرن الواحد والعشرين - بين السياسة والفنون..إلخ) وكل هذه الخبرات روافد لنبع واحد وليست أبدا متناقضات.

■ هالة زكى

محطات في بلاد الحبشة

«عندما بدأت الطائرة تغادر مطار القاهرة وتنطلق في منتصف ليلة باردة من ليالي الشتاء بدأت أستجمع ما أعلمه عن بلاد الحبشة فاكتشفت أن علاقتي بتلك المنطقة لا تتعدي مجموعة من المعلومات والصور التاريخية القليلة والتي اكتنزتها ذاكرتي حيث أبرهة الحبشي الذي أراد أن يهدم الكعبة ، وفي المقابل صورة زاهية في وجداننا كمسلمين تمثلت في شخصية الصحابي الجليل «بلال» مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام وقصة صموده الأسطورية التي أبكتنا صغارا» .

أثيوبيا بلد الحضارات والأسرار.. بلد التاريخ والمتاحف التى تحكى تراث حضارات عديدة تراها ماثلة أمام ناظريك

ولا ننسي أيضا قصة الملك العادل الصالح النجاشي ملك الحبشة ، الذي استقبل أول المهاجرين من المسلمين رافضا تسليمهم للكفار في القصة المشهورة والحوار العظيم الذي دار بينه وبين كل من عمرو بن العاص والصحابي جعفر الطيار وبين اليقظة والنوم استعرضت كتيباً لبعض المعلومات البسيطة ، والتي جعلتنى أخمن بأنى إزاء دولة إفريقية متأخرة يعيش أهلها في القرون الوسطي .

ألجمتنى المفاجأة عندما وطئت قدماى مطار أديس أبابا الدولى كان هذا فى الساعة الخامسة والنصف فجراً ، اكتشفت أن المطار يماثل أحدث المطارات الدولية ؛ فإجراءات الجوازات والوصول تمت بمنتهى السرعة . وبمجرد خروجى من المطار شعرت بنسمات

حفل زفاف .. ويبدو العروسان والمدعوون بالملابس الوطنية

الصباح الباردة تنعش وجهى ، واستبشرت بشروق الشمس ليوم جديد .

على الرغم من إرهاق الرحلة إلا أن ما شاهدته أثناء انتقالى من المطار إلى الفندق أثار لدى الفضول للتعرف على هذا البلد فقررت البدء فورا فى جولتى .. كانت أولى محطاتى داخل الفندق فى مكتب خدمة السائحين حيث استقبلتنى الموظفة بابتسامة مشرقة وبدأت من خلال حوارى معها التعرف أكثر على «أديس أبابا» - الزهرة الجديدة - كما يطلقون عليها فى اللغة الأمهرية، وهى مدينة حديثة تم إنشاؤها عام ١٨٨٦ وترتفع ٢٥٠٠ متر عن سطح البحر ، كما تمتاز باعتدال مناخها طوال العام حيث لا تتجاوز درجة الحرارة فيها ١٦ درجة مئوية ، ويبدأ موسم الأمطار فيها من منتصف شهر مايو ويستمر حتى شهر سبتمبر ، وتكسو أرضها وجبالها أعشاب الساڤانا الإفريقية المشهورة ، وأديس أبابا يقطنها حوالى أربعة ملايين نسمة ، يتنوع سكانها من ٨٠ طائفة يتحدثون حوالى ٨٠ لغة أشهرها الأمهرية .

كنائس ومساجد

من يدخل هذه المدينة لأول مرة يظن أنها دولة ذات ديانة واحدة ، هى المسيحية وذلك لكثرة الكنائس ووجودها على نواصى أكثر الشوارع وتقارب مواقع الكنائس من بعضها فى أحياء عامة وعامرة مثل منطقة «بياسا pissa . فهناك إلى جانب كاتدرائية القديس جرجس، ضريح الإمبراطور منليك الثانى ،

وكاتدرائية الثالوث ، والكنيسة القبطية وكذلك الكاثوليكية وحسب كتابات مؤرخين وكتاب غربيين فإن مسيحيى هذا البلد من أكثر المسيحيين تمسكا بالمسيحية ، هذا بالنسبة إلى الأرثوذكس أما البروتستانت فعلى الرغم من أنها مذهب حديث على أثيوبيا فإنها استقطبت الكثيرين من أتباع الأرثوذكسية .

مساجد أديس أبابا تتجاوز ١٥٠ مسجدا لكن أكبرها هو مسجد «الأنوار» الذى يقع فى حى باسم «مسجد» وهذا الحى قريب من ماركاتو «السوق الشعبية» وعلى الرغم من كثرة عدد هذه المساجد فإنك لا تجد إلا القليل منها على شارع عام . وقد لا تجد مساجد واضحة للعيان أصلاً إذا كنت ضيفاً جديداً على البلاد .

ماركاتو

ماركاتو هوأكبر سوق فى أثيوبيا ويعتبر الثانى على مستوى إفريقيا بعد مركاتو كينيا وهو السوق الرئيسى والشعبى ويحتوى على مختلف البضائع والسلع من جميع أنحاء العالم ويتميز هذا السوق بشخصية خاصة ففيه نرى المحلات الصغيرة جداً (الأكشاك المصنوعة من الصفيح) وأيضا المحلات المجمعة فى مبان متقدمة .

المتحف الوطنى

أثيوبيا بلد الحضارات والأسرار، وهى بلد التاريخ والمتاحف التى تحكى تراث حضارات عديدة تراها ماثلة أمام ناظريك، فى متحف أديس أبابا تتملكك الدهشة وأنت تطلع على عدد المواقع الأثرية فى البلاد والشواهد على عهود أباطرتها المتعاقبين وخاصة الإمبراطور هيلاسيلاسى الذى حكم البلاد بين ١٩٣٠ و١٩٧٤. كما يدل المتحف على التنوع الحضارى الذى مر على هذا البلد .

الطابق الأول من المتحف يحوى المنحوتات والتحف والثياب من جميع أنحاء هذا البلد العريق ويرجع تاريخ البعض منها للأيام الأولى للحضارة الإنسانية . أما الطابق الثانى فيحوى مجموعة كبيرة من اللوحات الفنية الأثيوبية منها الحديث ومنها التقليدى وتتنوع مواضيعها بين الحياة العادية كالأسواق والطبيعة والديانات . وفى الطابق الأسفل تجد الأحفوريات التى تعود إلى ملايين السنين وبينها أقدم أحفورة فى العالم (لوسى) وهى فى وادى العفر ، اكتشفت عام ١٩٧٤ على مراحل متفرقة اكتشفت خلالها ٤٠٪ من قطع هيكلها العظمى ، وأثبتت الدراسات فى المختبر الأنثربولوجى أنها توفيت بين سن الـ ٢٠ والـ ٢٥ سنة . وهناك طلبات من أغلب متاحف العالم لاستضافتها وعرضها فيها.

الزواج الأثيوبى

خلال فترة إقامتى فى الفندق أقيم حفل زفاف ، لفت نظرى أن الحاضرين من الرجال والسيدات يرتدون الزى

مسجد الانوار وسوق ماركاتو أهم معالم العاصمة

كاتدرائية القديس جرجس بمنطقة بياسا

الوطنى الذى يتسم بالبياض ، فالرجال يرتدون القمصان الفضفاضة والسراويل الطويلة الشبيهة بسراويل الهنود ، ويلبسون فوق ذلك شاما وهى رابطة بيضاء من القطن ترمى على الأكتاف بحيث لا تعوق اليدين ، أما ملابس النساء فتشبه ملابس الرجال مع فارق صغير هو أن قمصانهن وسراويلهن أوسع وأطول وتنتهى أكمامهن وياقتهن بزركشة من الحرير الملون وفى موسم المطر يلبسون برانس سوداء من الصوف لتقيهم المطر ومن ثم حرصت على حضور الحفل وبدأت فى التعرف على المدعوين الذين رحبوا بوجودى بصورة لم أكن أتوقعها ثم سرعان ما تباروا فى شرح عادات وتقاليد الزواج عندهم فأوضحوا لى أن فى مناطق هروبالى وجيمه - وهى مناطق المسلمين فى أثيوبيا - يغلب على عادات الزواج الكرم ، فبعد الإعلان عن الخطبة يرسل الخاطب بقرة حلوبا إلى بيت مخطوبته فتجمع والدتها لبن تلك البقرة وتصنع منه كميات من السمن تقدم للعريس كهدية ليلة زفافه ، وعند الموافقة على الخطبة تقدم أم العروس إناء من اللبن ليشربه العريس وهذا دليل على الرضا والقبول .

أما فى مناطق الجانب المسيحى، وبصورة رئيسية فى مناطق أمهرا وتيغرى ، فتقوم الأسرتان بإعداد الطعام والشراب للعرس ودعوة الضيوف . يذهب العريس إلى منزل العروس ويبدأ الاحتفال بالزواج بالرقصات والموسيقى ويقوم والد العريس بإعطاء المهر للعروس ، وهو فى معظم الحالات المال والماشية ، وفى نهاية الحفل يأخذ العريس عروسه إلى بلدته ومنزل والديه .

الأطعمة

إبان عودتى من إحدى جولاتى السياحية ، وقد حان موعد الغذاء ذهبت إلى مطعم الفندق ، وبدأت فى تفقد أنواع الأطعمة التى بدت أشكالها غير مألوفة لدى ، فاستدعيت المسئول وبدأت فى سؤاله عن هذه الأنواع فبدأ يشرح : هذا هو الزيتى وهو لحم يقلى بالسمن والفلفل الأحمر وهنا لفت نظرى وجود لحم غير مطهو فسألته: ما هذا ؟ فقال لى هو لحم نيىء مع الفلفل الأحمر ونطلق عليه اسم برندو وهو من المأكولات القديمة والمعروفة عند الأحباش ، وأضاف شارحاً إن هناك السيرو وهو عبارة عن عجين يطبخ بالماء والفلفل الأحمر والدقيق والعدس ويعتبر أكلة شعبية للأحباش جميعاً ، وأضاف أما بالنسبة للخبز ، هناك أنواع أخرى منه مثل : أمباشا ويصنع من دقيق القمح ويطبخ فى الفرن ، وغوتنغو وهو عبارة عن عجين يحشى باللحم ويقلى بالسمن وهناك نوع من العصيدة يعمل من دقيق الذرة والفاصوليا والشعير والفلفل .

لاحظت من شرح المسئول عن المطعم أن الفلفل عند الأحباش يحل محل الملح حيث يدخل فى جميع أنواع الأطعمة .

■ سوسن رحمى

تشيكوف.. يشفق على أبطاله

احتفلت روسيا، هذا العام بمرور مائة وخمسين عاما على ميلاد أنطونى تشيكوف، بعد أن رفعت روسيا الحظر عن الكتاب الروس أمثال تولستوي ودوستويفسكي وتشيكوف... هؤلاء الكتاب الذين كان النظام البلشفي يحظر نشر أعمالهم.

ولد تشيكوف عام ١٨٦٠ فى تاجا فروج - روسيا- من أسرة بسيطة فوالده الذى يندرج من سلالة عبيد، أول من حصل علي حريته وامتلك متجرا.

التحق تشيكوف بمدرسة الطب ولكن سرعان ما اضطر إلى العمل، حتي يتمكن من تحمل المسئولية المادية لعائلته، بعد إفلاس الأب وهروب الشقيقين الكبيرين ليتفرغا لحياتهما الخاصة.

اتجه إلي كتابة القصة القصيرة الخفيفة. بحثا عن الرزق إلي جانب دراسته للطب.

يقول تشيكوف: إذا كانت مهنة الطب «زوجتى»، فالأدب هو معشوقتى، ولكن ما لبثت الحبيبة أن استولت على وجدانه فتفانى فى خدمتها وأتحف العالم بروائعه .

عندما تذكر عبارة «قصة قصيرة» يتبادر إلى الذهن ثلاثة أسماء: جى دى موباسان ، كاترين منسفيلرد وأنطونى تشيكوف، رغم تباين كل واحد منهم عن الآخر فى فى إبداعه الفنى.

ساعدت مهنة الطب، وما يتبعها من الانغماس فى الحياة بين

لم يحاول تشيكوف أن يقدم للعالم فلسفة أو أن يكون ثائرا فى كتاباته، فهو يعتمد على عناصر بسيطة ثم ينسج خيوطها، فى أشكال ونماذج بشرية تعانى وهو يشفق عليها

■ كاتبة وناقدة أدبية

المرضى والفقراء والأشقياء، وكذلك إصابته بمرض الدرن. ساعدت كل هذه الظروف مجتمعة تشيكوف على التميز بشخصية حساسة ذات رؤية ثاقبة تغوص فى أعماق الآخرين وتصور معاناتهم بصدق وبساطة .. يقول الناقد الروسى ڤلاديمير ڤوكوڤ :«ليس المهم ما يصوره تشيكوف ولكن الأهم الطريقة التى يصور بها»

إن تشيكوف يقدم لنا، من خلال أعماله، بانوراما شديدة الاتساع والتنوع للمجتمع الروسى، وخاصة الطبقة التى ينتمى إليها. لم يحاول تشيكوف أن يقدم للعالم فلسفة أو أن يكون ثائرا فى كتاباته، فهو يعتمد على عناصر بسيطة ثم ينسج خيوطها، فى أشكال ونماذج بشرية تعانى وهو يشفق عليها .

فى القصة القصيرة «هى وهو» قدم حياة زوجين يتعجب المحيطون بهما من استمرارهما معا، نظرا لعدم التكافؤ فهى مغنية أوبرا مشهورة، تبهر الجماهير بموهبتها الفذة وهو رجل لا قيمة له ، صامت ومقزز. فكما يقول الجميع فهو يأكل بشراهة ويحتسى الخمر ويعيش من مالها وفى ظلها ولكن الكاتب لجأ إلى أسلوب التخاطب فى شكل رسالتين لكل من الزوجين، يكشف من خلالهما عن هذه الاستمرارية فكلاهما يحب الآخر بطريقته الخاصة، رغم يقينه للعيوب الظاهرة

والخافية. تنتهى كل رسالة بتأكيد هذا الحب...

يقول الزوج: «هذه المرأة زوجتى عندما تملأ الفراغ بتغريدها، عندما أشعر بتأثيرها الذى يدخل الهدوء على نفسى ، حينئذ تعرفون سر حبى لها » .

وتقول الزوجة: «هو رجل صامت فى أغلب الأحيان ولكن إذا هم أحد الجالسين بالكذب (...) يرفع رأسه ويقول: كذب ، إنها كلمته المفضلة ولا أحد مثله يمتلك الشجاعة فى إطلاق هذه الكلمة... والله وحده يعرف مدى جماله».

لم يعلق الكاتب على هذه العلاقة ولكنه اكتفى بتسليط الأضواء على الجوانب المهمة.

إن هذه الواقعية التأثيرية لتبدو أكثر وضوحا وهو يقدم الحياة المزدوجة التى يعيشها الثنائى بطلا «السيدة ومعها كلبها الصغير» وكذلك فى قصة الأسقف.

يستعرض الكاتب فى القصة الأولى حكاية امرأة تمر بحالة فراغ وملل وتلتقى مع رجل لا يعرف من الحياة. -إلى جانب عمله - سوى البحث عن مغامرة عاطفية عابرة وتتم بأيسر الطرق. فهو أيضاً يشعر بالملل، ولكنه إذا كان الكاتب قد قدم بعض التفاصيل عن حياة الرجل: زوجة مستبدة متسلطة، رتيبة ، جافة، تميل إلى العنف فهو لم يقدم أى مبرر لخيانة المرأة. إن ما يعنى الكاتب هو تحليل الصدق والكذب: فما هو صادق فى النفس يحدث فى الخفاء وما هو كذب ومفتعل يعيش فى النور.

لم يظهر تشيكوف صراحة استياءه من الخيانة ولكنه اكتفى بختم القصة بجملة تنذر بمستقبل لا يبشر بخير فهو يقول : «كلاهما كان يعرف أن النهاية أمامها الكثير، الكثير من الزمن، وإن ما هو أعقد وأمر لم يلبث أن يبدأ».

فى قصة الأسقف يتعرض الكاتب لنوع آخر من الازدواجية: فالأسقف يلمح امرأة تشبه والدته، التى لم يرها منذ ثمانية أعوام، فيشعر بضعف عنيف بداخله ويبكى ويستعرض شريط طفولته بين أسرته، وينتابه حنين جارف لهذا الماضى البعيد، يخبره أحد القساوسة أن والدته حضرت لرؤيته وطلبت الإذن لزيارته... وعندما تأتى الأم تقف أمامه مضطربة مثلها مثل الغرباء وقد بهرها منصبه

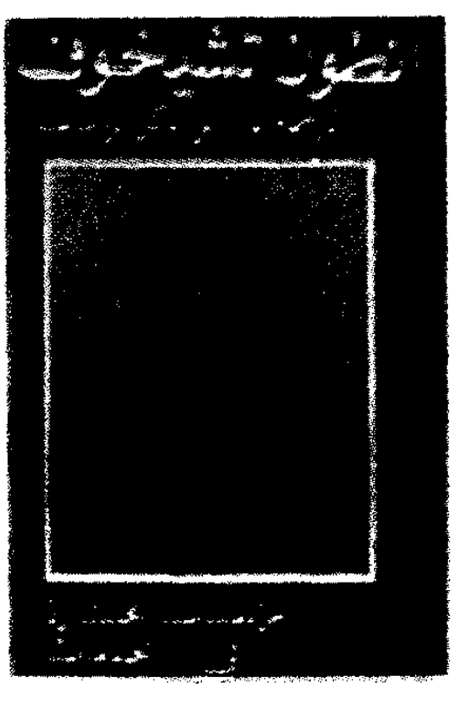

الجليل يشعر الرجل بألم شديد، فهو يريد أن تنسى أمه أنها أمام أسقف عظيم وأن تحتضنه، فهو طفلها، إنه يشفق على نفسه من معاملة البشر له على أنه يختلف عنهم.

يتجلى هذا الحوار الداخلى والصراع الذى يعانيه الأسقف فيصور الكاتب ضعفه البشرى واشتياقه لمعاملته كرجل بسيط، يعانى ويتألم بمرض الأسقف بعد رحيل والدته بأيام قليلة، وعندما تعود الأم لمعاونته فى مرضه وتشهد لحظات احتضاره، تنسى أن ابنها أسقف ولا تتذكر سوى صغيرها، الذى تبكيه بحرقة، أما هو فيحلم بأنه يجرى طليقا بين المزارع وهو يشعر بسعادة فائقة وقد تخلص من قيود منصبه فى السهول الجرداء، تتسع دائرة تأملاته عبر المساحات الشاسعة من الأراضى التى تمتد أمام المسافرين، الأحداث تكاد تكون منعدمة فإن تشيكوف، كما يقول عنه النقاد، يهتم خاصة بطريقة التعبير.

ما هو الموضوع ؟ وماذا يحدث فى هذه القصة القصيرة المطولة ؟ لا شىء تقريباً، غير أن هذا العمل يعتبر من أروع ما كتب تشيكوف.. الحدوتة أقل من بسيطة : رجل أعمال يقوم برحلة عبر سهول سيبريا، معه فى صحبته ابن

شقيقته، طفل يتيم فى التاسعة من عمره، أحد أصدقائه رجل فى متوسط العمر، وسائق العربة .

غير أن «السهل» هو البطل الحقيقى للقصة، بما يحمل من مظاهر طبيعية وكذلك الألوان التى تخلق له ملامح خاصة. هذا إلى جانب طبيعة سكانه من البشر وهم قلة، العربة تسير فى طريقها ويحدث لقاء مع بعض الشخصيات يقوم الطفل بدور المراقب والملاحظ لكل ما يحدث حوله، ينام الرجلان وقد حمل وجه كل واحد منهما التعبير الذى ينبع من أسلوب حياته: فرجل الأعمال يحمل تعبير الرجل الذى يبحث عن المال : «فهو يفعل ذلك وهو نائم وحتى وهو يصلى فى الكنيسة» أما الصديق، فهو لا يعبأ إلا بالصحبة وقد قام بهذه الرحلة من أجلها ومن أجل التأمل:ولعله يفكر الآن فى الأشعار وفى المناقشات، فالراحة التى ينعم بها تنبع من خط سيره فى الحياة وبعده عن حياة الصراع المادى.

يسترسل الكاتب فى وصف السهول وطبيعتها، غير أننا بعيدون عن موقف الرومانسيين، أمثال لامارتين فى التجلى فى الوصف وهم يجدون فيه سلوى وتعبيراً عن أشجانهم فتشيكوف، ككاتب تأثيرى يلتقط الصور من زاوية استقلالية

للطبيعة ذاتها ويتميز فقط بالاختيار: اختيار اللحظة والأضواء والأصوات. مثل أصوات الحشرات التى تتميز بها هذه السهول فالطبيعة هنا هى البطل الحقيقى فهى ليست تابعة لانفعالات وتأملات الكاتب .

تستمر الرحلة وتنضم العربة إلى إحدى القوافل والطفل يتذكر مواقف من حياته، فعملية التداعى مستمرة من موقف لآخر. الصبى يستلقى على ظهره وينظر إلى السماء، ويفكر فى جدته، التى ترقد تحت الثرى، والمؤلف يلتقط الخيط ويتكلم عن الموت والحياة والوحدة.

فكثيرا، كما يقول النقاد، ما يجعل تشيكوف أهم أفكاره تنبع من كلمة يقولها أو يفكر فيها طفل، فيطرح رأيه الفلسفى عن البشر يتحلل المشوار الطويل، أيضا عندما استراح المسافرون -عرضا ووصفا- لحياة الفلاح الروسى بما تحمل من شقاء وشجن وفقر، وقد ملأ الفضاء العريض غناء إحدى الفلاحات تأتى لحظة النهاية، لحظة الفراق، يخرج رجل الأعمال من جموده وينخرط فى البكاء، وكذلك الصبى الذى ينتابه شعور بأنه لن يرى خاله مرة أخرى، ثم يبكى وهو يستقبل حياته الجديدة، الحياة الجديدة التى يجهلها ويتساءل كيف ستكون هذه الحياة ؟

لجأ تشيكوف إلى اختيار عناصر بسيطة فى كتابة أعماله، وقد برع فى استعمال أسلوب تميز بالالتزام والاقتصاد، فالجمل الخالية من التزويق، تصل فى بعض الأحيان إلى درجة المبالغة، وهو يذكرنا بفان جوخ وروائعه التى اعتمد فى إبداعها على بعض زهور الخشخاش، أو مقعد قديم فى أحد أركان حجرته، فتشيكوف المحلل النفسى، المتأمل والمصور لعادات المجتمع، الذى يحيط به لم يكن يعنيه غزارة التفاصيل وأهمية العناصر ولذا قيل عنه : إنه صنع أدبا من لا شىء.

إذن فتشيكوف لا يفكر فى القيام بدور المعلم أو الفيلسوف، أو يحاول أن يقدم علاجا لأمراض المجتمع فهو يقف موقف المتأمل، الذى يغوص فى أعماق البشر وينتزع أقنعتهم، فهو كما يقول النقاد كاتب تأثيرى واقعى، تسلح بأسلوب بالغ الدقة والبساطة وصل إلى درجة التجريد، وقد انتقى شخصياته من الزاوية التى يختارها حتى يتمكن من تقديم أفكاره وملاحظاته وأيضاً تأملاته.

إن تشيكوف يشفق على أبطاله وعلى البشرية عامة ولذا فهو يكتفى بالتغلغل بداخلهم وتصوير معاناتهم ما ظهر منها وما بطن، ولا يثقل عليهم بنصح أو إرشاد.

إنه من أعظم كتاب النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومن أمهر من تناول فن القصة القصيرة.

لا تيأسي

■ شعر: سعد عبدالرحمن

إليك يا حبيبتي..
أخط هذه الحروف
عمر جديد ابتدأ
وفي دمي هواك..
زورق الظمأ
شراعه بالنار والشذا والشوك..
لم يزل يطوف
يا قلبك العطوف
مم ترى في صمته اختبأ؟
من قلبي الذي بشوقه امتلأ
ودمعه المذروف
أم من جهامة الظروف
لا تيأسي..
ففي غد تدوخ في أفراحنا
الدفوف والكفوف
ويسترد وجهه المخطوف
زماننا الذي انكفأ

لوحات عاشرية من السيرة الذاتية (٨)

■ د. أحمد درويش

..وليس على الشمس أن تبصرا

فى المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر الكبير محمود سامى البارودى (١٨٣٩ -١٩٠٤) أصيب هذا الفارس المغوار، بفقدان البصر، بعد معاناة رحلة المنفى فى سرنديب وتتابع الهزائم على الجسد والروح، وحين عفا عنه الخديو من «جريمته!» التى عوقب عليها بعد فشل الثورة الوطنية العرابية، التى كان أحد قادتها البارزين، سمح له بالعودة إلى داره فى باب الخلق، حيث اجتمع حوله بقية من صفوة أصدقائه الشعراء القدامى، كان من بينهم حافظ إبراهيم وخليل مطران الذى ألقى أمام البارودى ذات مساء قصيدة يواسيه فيها عن فقد بصره، وجاء فيها هذا البيت الجميل الذى اقتبست منه عنوان المقال:

كانت الكتب المطروحة على طلاب الأزهر قد تجاوزها العصر ولم تكن تفيد فى تنشيط حركة التفكير

على الشمس أن تهدى المبصرينا
وليس على الشمس أن تبصرا

ومع أن مطران كان يهدف إلى مواساة الشاعر الكبير والفارس المصاب، فإنه جسد حقيقة كونية ناصعة، فى ثوب شعرى جميل، جعل البيت يقفز إلى ذهنى دائماً كلما مرت صورة أحد عباقرة مكفوفى البصر من الذين نلتقى بسيرهم على صفحات الكتب أو بشخوصهم فى مسيرة الحياة.

وقد كانت ظاهرة المكفوفين مألوفة وشائعة فى فصول الدراسة بالمعاهد الأزهرية حيث عبرت المرحلتين الإعدادية والثانوية، وكان من الطبيعى أن يتجه غالبية الراغبين فى التعليم من هذه الطائفة إلى الأزهر ومعاهده، وأن يكون نصيب المدارس منها أقل بكثير، ولهذا كثر المكفوفون فى طرقات المعهد وساحاته، وفى شوارع

■ كاتب وأستاذ جامعى

الثورة العرابية

محمود سامى البارودى

خليل مطران

حافظ إبراهيم

الأحياء المحيطة بالأزهر، وفى صحن الجامع الأزهر ومداخل أروقته وحمى أعمدته وفوق أو تحت دفء بساطه أو مربعات رخامه وبلاطه، مع تغير فصول العام .

ولأن المكفوفين، كانوا «أمة» من الطلاب، فقد كان لهم نظام امتحاناتهم ومعاشهم ومأكلهم ومسكنهم وعاداتهم الحسنة أو القبيحة على السواء، كانت تعقد لهم الامتحانات الشفوية على حدة - ويكون لهم ترتيبهم الخاص الموازى لترتيب المبصرين، قل العدد أو كثر، ومن أجل هذا فقد كان بعض المبصرين يفضل أن يلتحق بهم، ويبحث عن علة فى إحدى عينيه، لكى يقيد «شبه مكفوف» فيقرأ الكتب كالمبصرين، ويجتاز الامتحان الشفوى كالمكفوفين، وكان لنا زميل يستفيد من هذه الحيلة، فيجيء ترتيبه «الأول» ولكن على قائمة المكفوفين، وكان غالبا ما يكتفى بإعلان نصف الحقيقة، فهو «الأول» فقط.

ولم يكن المكفوفون يتساوون فى الذكاء أو سرعة البديهة أو خفة الدم أو حتى فى استجلاب الشفقة، فقد كان من

بينهم، كشأن إخوانهم المبصرين، من تحس بأن درجات من الظلمة، تنبعث منه أو تحيط به، وأنه يكاد يتخبط أو يتعثر على المستوى الحسى أو المعنوى، وكان فيهم من تحس بأن درجات من الضوء، تنبعث منه، وتلغى الفواصل بينه وبين سامعيه أو محدثيه

وأذكر أننا سكنا ذات عام فى شقة متعددة الحجرات، لا يجمع بين سكان الحجرات المختلفة فيها إلا صالة ومطبخ صغير ودورة مياه متواضعة، ويظل باب الشقة على مصراعيه طوال اليوم، وكان سكان إحدى الحجرات من زملائنا المكفوفين، وكان يدهشنا منهم حسن سمتهم ونظافتهم وهدوئهم وذكائهم فهم يتبينون طريقهم متجولين صاعدين هابطين منحدرين من شارع السيد الدواخلى المتعرج بوحدات بلاطه القديمة الناتئة إلى شارع الأزهر، عابرين الطريق إذا لزم الأمر إلى ساحة المعهد والكليات المجاورة، أو منعطفين يمينا إلى الجامع الأزهر أو جامع الحسين، دون مشقة أو عناء، أو استخدام العصى الموجهة التى لم تكن قد اخترعت بعد. لكن الذى كنا نعجب له، قبل أن نألفه، كان يحدث إذا حل الظلام بالشقة حين يأتى الليل، فقد كانت كل الحجرات، توقد أضواؤها، ماعدا حجرة المكفوفين، الذين يستمرون فى نشاطهم العادى، وقد كنا نتصور أننا لانستطيع الاستغناء عن الضوء ليلا إذا أردنا القيام بأى نشاط، حتى بالكلام، وقد لفت نظرنا أن نشاطهم لايتوقف على الكلام والحركة، ولكنه يمتد إلى إيقاع منتظم لأجسام صلبة صغيرة على سطح خشبى، وقد اكتشفنا فيما بعد أنها لعبة «الدومينو» أو «الضمنة» كما تنطق بالعامية، وأن جيراننا المكفوفين مهرة جدا فى لعبها وإدارة قطعها، وأنهم يتحسسون أطراف القطع، بسرعة فائقة، ويضع كل لاعب خطته على أساس ما معه، وأنهم يفضلون اللعب فى الظلام، بعيدا عن أعيننا نحن الفضوليين، وعندما أظهرنا إعجابنا ودعوناهم للعب معنا نهارا، وافقوا بشرط ألا نغش ولا نتلصص على رصيدهم أو الرصيد العام لقطع اللعبة المرصوصة على اللوحة، ووعدونا بالهزيمة إذا ما حافظنا على قواعد اللعبة، وغالبا ما كان يتحقق الأمران، المحافظة على القواعد من ناحيتنا والهزيمة التى تحل بمن يلاعب مكفوفا محترفا فى لعبة الدومينو .

وكنا فى أثناء حصص الدراسة، نسمع ممازحات خاصة، يوجهها الشيوخ إلى الطلاب المكفوفين، ومنها هذه المزحة التى كان يحلو للشيخ على التركى أن يرددها، كلما وجد جماعة من المكفوفين الذين، كان يتهمهم بالعناد وصلابة الرأس، فيقول لهم : إن رجلا أعمى غرق فى النيل عند كوبرى بنها، وبحثوا عن جثته فى كل مكان يتجه إليه النيل فى مصبه شمالا نحو رشيد أو دمياط فلم يجدوها، وأخيرا وجدوها عند كوبرى أبو العلا، فعلموا أنه عاند التيار وسار ضد الاتجاه .

طلاب العلم داخل الأزهر الشريف

أما صيتهم فى استذكار الدروس، فكان يبدو جليا فى صحن الجامع الأزهر الكبير حين يقترب موعد الامتحانات ويتحول الصحن إلى ساحة تدوى فيها أصوات المذاكرين كدوى النحل، وهم يتحركون مثنى وفرادى، وغالبا ما يمسك المكفوف بذراع صاحبه المبصر، وهو يرفع صوته بالقراءة وهو يصغى فى جولة الذهاب، ثم تكون جولة الإياب على المكفوف الذى يعيد على القارئ ما أسمعه إياه وكانوا أحيانا يقولون رب سامع أوعى من مبلغ .

تعرفنا إذن على عالم المكفوفين فى طرقات المعهد وردهات الأزهر، ومنعطفات الحى العتيق حول الجمالية والدراسة والعطوف والباطنية والغورية والمغربلين وباب الوزير وسوق السلاح والقلعة، وعندما قرأت تاريخ الجبرتى فيما بعد تخيلت أن يكون هؤلاء من سلالة جيش المكفوفين الذى كونه سليمان الجوسقى شيخ العميان، على عهد الحملة الفرنسية ، ودوخ به الفرنسيين والأتراك والمماليك وحلم اعتمادا على شدة نفوذهم وتنظيمهم - أن ينادى به سلطانا على مصر وحلمت زوجته أن تورث الحكم من بعده لابنها الأبله داود بن سليمان فإن لم يكن فلحفيده المرتقب، سليمان بن داود بن سليمان .. ولله فى خلقه شئون .

* * *

فى وسط هذا التهيؤ والتأهب للتعامل مع عالم المكفوفين، دخل علينا الفصل الدراسى فى فترات متلاحقة، شابان من المكفوفين لافتان للنظر، فى أناقة الملبس الافرنجى، وحسن المظهر، ولون الثقافة التى تشع منهما، ولم يكونا بالتأكيد من «أهل الكتاب» فى طريقة تدريسهم والتزامهم بكتاب مقرر، وكانا من أهل

«الثقافة» واتساع الأفق، وإن تفاوتا فى هذا الملمح الأخير، كما تفاوتا فى درجة القرب والحميمية ومن ثم درجة التأثير فى حياتى تفاوتاً كثيرا

كانا معا، عائدين من فرنسا، ولهذا كانا يحملان لقب «الدكتور» وإن لم يكونا قد حصلا عليه بالفعل، كما علمنا فيما بعد، فقد أعادهما ، قطع العلاقات الثقافية بين مصر وفرنسا فى أعقاب حرب سنة ١٩٥٦ وظل أحدهما يحلم بالعودة ويحدثنا عما رأى، واكتفى الآخر بأن طوى نفسه على ما فى نفسه وأرسل إشارات دعوة إلى توسيع مداركنا الثقافية ، وتشجيع المنافسة بيننا، وكان يخرج لنا بين الحين والآخر، قروشا من جيب جاكتته الشركستين اللامعة ليعطيها جوائز لمن يجيب عن سؤال دقيق فى العلم ولاينسى أن يوصيه بألا يشترى بالمكافأة فجلا ولا جرجيرا، وإنما أن يحتفظ بها للذكرى، أو يصنع منها ميدالية على طريقة الغربيين، وكان اسم هذا الأستاذ الدكتور عبدالفتاح سالم رحمه الله .

أما زميله الآخر، المتألق المتفتح المتوهج فكان هو الدكتور محمد فتحى عبدالمنعم، كان فارع الطول واثقا من نفسه، يرتدى البدلة الأنيقة «بصفين» ويضع على عينيه نظارة سوداء، ولا يرتدى الطربوش الأفرنجى، كما كان يصنع صاحبه وإنما ينوح رأسه شعر متموج يعتنى بتصفيفه، وكنا نراه فى طرقات المعهد، يسير مع الصبى الذى يرافقه فى السير، ولاحظنا أنه هو الذى يتأبط ذراع الصبى ، ولا يسمح للصبى بأن «يسحبه» كما تجرى العادة، ودخل علينا الفصل ونحن فى بداية المرحلة الثانوية، فشد إليه الطلاب بطلاقة لسانه، وخروجه على وسائل «أهل الكتاب» فى الشرح والمحاضرة، كان يدخل إلى موضوع الدرس، بطريقة ، تجعل بعض الطلاب يعتقدون أنه أعفانا من الدرس المقرر وقرر أن يدور الحديث فى الشئون العامة – فإذا بهم يفرحون، ولكنهم يفاجأون قبل انتهاء «الحصة» بأن كل ما مضى، كان فى صلب الدرس المقرر، دخل علينا ذات يوم، فقال إنه يريد أن يؤجل الدرس قليلا ، لكى يحدثنا عن كتاب صغير شديد الفائدة، حصل على نسخة وحيدة منه، وهو يعتقد أن أى طالب يقرؤه سوف تفتح أمامه من آفاق المعرفة ما لايحد، وسوف تشده سهولة عبارته، وغزارة مضمونه، وطرافة وسائل تناوله، ولكنه يحار فقط، فى كيفية تمرير النسخة الوحيدة علينا جميعا مع تحقيق العدل والمساواة بيننا جميعا – وحرصه على ألا يحس أحد منا بأنه قد ظلم أو فضل غيره عليه، وتوالت الاقتراحات، بدءا من مراعاة ترتيب الحروف الأبجدية لأسمائنا حيث يتقدم «أحمد» ويتأخر «يونس» أو مراعاة ترتيب أرقام الطلاب فى كشوف الحضور والغياب، أو ترتيبهم فى صفوف المقاعد، وكان كل اقتراح، يلقى موافقة البعض دون الآخرين، إلى أن برز اقتراح «القرعة»

فى ترتيب قراء الكتاب ، فرضى به الجميع وبدأنا فى الترتيب لإجرائها، وإذا بالأستاذ يدخل بنا فى هدوء إلى دلالة «القرعة» على الأهمية الكبيرة لما يقترع عليه ، وحرص الجميع على تساوى حظوظهم فى الحصول عليه، ويدلف من هذا إلى النص الذى يود الحديث عنه، وهو الحديث الشريف : «لو يعلم الناس ما فى الصف الأول والأذان، ثم لم يجدوا إلا أن يقترعوا عليه، لاقترعوا» ويمضى فى الحديث الهوينى وسط دهشتنا، وإعجابنا، مع أن بعض الطلاب سأله بعد المحاضرة عن اسم الكتاب الذى أشار إليه؟!

كنت قد اقتربت من فتحى عبدالمنعم وكنت أصطحبه إلى حجرة استراحة الأساتذة، وكان يسألنى دائما عن قراءاتى، ويدلنى على أسماء الكتب التى يقترح أن أبحث عنها، وكنا نتبعه إلى الندوات التى يشترك فيها فى أمسيات القاهرة الثقافية فتثير فينا محاضراته أسئلة أخرى. تدفعنا إلى الذهاب من جديد إلى دار الكتب وسور الأزبكية أو مكتبات الأحياء الشعبية التى بدأنا نصادق موظفيها وقد حدثته يوما عن كتاب قرأته عن «صقر قريش» عبدالرحمن الداخل فدلنى على كتابات أخرى حوله، وأوصانى بأن لا أكتفى بالقراءة وأن أحاول الكتابة فى شكل مقال أو بحث، وعندما سألته : لمن سيقدم هذا المقال أو البحث قال : لنفسك، وأنا سأسمعه منك، وظللت على مدى أسابيع متوالية أجهد نفسى فى القراءة والتنسيق والكتابة، حتى كتبت كراسة صغيرة عن صقر قريش، كان يتابعها باهتمام ويسمع منى فى استراحته بين الحصص ويظهر الاهتمام والتشجيع، ويبذل التوجيه والتصويب، ويدعى تواضعا أنه قد تمتع واستفاد، وعندما انتهيت من كتابة البحث، ولم يكن حتى يتصل بالمنهج الدراسى الذى يطرحه علينا، كانت أكبر مكافأة لى، أنه استمع إليه، وأخذ يذكرنى بما جاء فيه بين الحين والآخر، وطويت كراستى بين أوراقى زمنا، أعتز بأنها حازت الرضا من أستاذ جليل .

وظللت أتابع فتحى عبدالمنعم، مدة من الزمن، اختفى بعدها، وعلمت أنه نجح فى مسعاه فى العودة إلى فرنسا بواسطة الشيخ الباقورى الذى كان صديقا له ، وقد شغل منصبا فى جامعة الأزهر وكان إعجاب فتحى عبدالمنعم بالثقافة الفرنسية يشع من كلماته فى المحاضرات، ابتداء من إعجابه الشديد بطه حسين وحديثه عن مراسلاته القليلة التى يتبادلها معه، والتى كان يحفظها عن ظهر قلب ويعيد إلى أسماعنا فى المحاضرات، ووصولا إلى نمط الحياة الثقافية والاجتماعية فى باريس أيام وجوده بها، والتى كان يلذ له الحديث عنها، فيمط معظم الشيوخ شفاههم.

وظهرت لنا بعض أخباره فى الصحف بعد سفره، فقد قرأنا ونحن طلاب فى الجامعة أو بعيد التخرج منها مقالا كبيرا للأستاذ أنيس منصور حول جهود الدكتور فتحى عبدالمنعم فى التقارب بين الأديان من خلال موقعه فى باريس، وذكر فيه أن مؤتمرا كبيرا لعلماء

الديانات الثلاث، أقيم فى سويسرا، وأن الدكتور فتحى عبدالمنعم حضره ممثلا للأزهر، وأن حديثه عن تسامح الإسلام أسر كل علماء الديانتين المسيحية واليهودية، وأن المؤتمر انتهى بصلاة جماعية لعلماء الديانات الثلاث، أمهم فيها فتحى عبدالمنعم، وسعدت كثيرا عندما قرأت هذه الأخبار، وعلمت أن أستاذى بخير، ومازال يواصل العطاء فى فرنسا وبعد سنوات عدة، رشحت إلى بعثة فى فرنسا، سافرت إليها فى خريف سنة ١٩٧٤ وخلال استعدادى للسفر، عقدت العزم، على أن يكون أول ما أبحث عنه فى فرنسا، هو فتحى عبدالمنعم، لا أعرف كيف؟ وفور وصولى، وقد مررت بأمور مثيرة فى الأيام الأولى، سأعود إليها لاحقا - طرقت باب السفارة المصرية، لأثبت وصولى، ولأسأل عن أستاذى، فأعطونى عنوانه فى الحى الخامس عشر فى باريس، قريبا من محطة مترو «باستير» ومارست مغامرتى الأولى، فى النزول إلى أنفاق المترو، وتغيير القطارات فى محطات التقاطعات حتى وصلت إلى العنوان، ودخلت إلى منزل كبير، كان أو منزل باريسى أدخله، ووصلت إلى الشقة الصغيرة التى تسمى استديو، وضغطت على زر الجرس، وانتظرت قليلا لينفتح الباب عن فتحى عبدالمنعم نفسه فى ملابس البيت يعلوها «الروب دى شامبر» وهو يمد أذنه وعنقه، ويقول فى فرنسية رائعة Exceilent وحييته بالعربية وقدمت له نفسى وقلت إننى كنت تلميذا من تلاميذه الكثيرين منذ نحو خمسة عشر عاما، وذكرت اسمى، وقلت إنى أعرف أننى واحد من مئات مروا عليه وقد جئت باريس مبعوثا، وأردت أن ألقاه ، ولم يكن لدى وسيلة أخرى للحصول على موعد للقاء، أذكر فيه الأستاذ بنفسى، وأتلقى توجيهاته، وأشرق وجهه بالنور وهو يقول، مرحبا بابنى صاحب «صقر قريش» ولقد وجدت ضالتى ولن نفترق بعد اليوم .

وخلال السنوات القليلة التى أتيح لى أن أقضيها مع فتحى عبدالمنعم فى باريس، قاد خطانا فى مدينة النور، هذا الضرير الذى تشع بصيرته وهجا، ولقد قادها حتى بالمعنى الحسى، فكثيرا ما كان يذهب معنا - أنا وزملائى الجدد - لتسهيل إجراءات استقرارنا ، أمام الجهات الرسمية، ولتسهيل لقاءاتنا مع المشرفين وتزكيتنا ، ووعده لهم بأن عقدة اللسان سوف تنفرج قريبا وسوف يكتشفون وراء الكلمات المتعثرة عزائم راغبة فى العمل، ومازلت أتذكر أنه هو الذى قادنى إلى لقاء أندريه ميكيل شيخ المستشرقين وأقنعه بأننى باحث يستحق الاهتمام والعناية .

وكان يصحبنا كذلك إلى منتديات الثقافة والفنون الجميلة فى باريس، ويحاول عقد جسر بين ثقافتنا التقليدية والثقافة الجديدة علينا، وكنا نتابع بعض الندوات التى يشترك فيها بفرنسية رائعة، ويجمع حوله قلوب الباريسيين

مع الحمام فى أحد ميادين باريس

والباريسيات، كما كان يجمع قلوبنا قديما، وأذكر أنه فى واحدة من تلك الندوات وكانت فى جمعية نسائية، انتزع كثيرا من التصفيق والإعجاب، عندما علق على الآية القرآنية الكريمة : «وأنكحوا الأيامى منكم» قائلاً للنساء : هل رأيتن دستورا أو قانونا أو تشريعا فى الحضارات القديمة أو الحديثة، يحفظ للمرأة حقها فى «الحب» والزواج ، ويأمر «ولى الأمر» بأن يرتب للأيامى اللاتى فقدن أزواجهن، حقهن فى حياة كريمة عن طريق الزواج ؟

كان فتحى عبدالمنعم، قد تجاوز سن الدكتوراه، وكان العلماء الفرنسيون يعرفون قيمته جيدا، فحصل على منحة من المركز القومى الفرنسى للبحوث العلمية Cnr3 ووفروا له قارئا وسكرتيرا وراتبا ملائما، لكن هذه المنحة تنتهى عند سن معينة، سرعان ما وصلها فتحى عبدالمنعم رغم أنه كان يتفتق صحة ورغبة فى العطاء وتأهب لكى يغادر باريس، عائدا إلى جامعة الأزهر، متخوفا من أن لا يجد المناخ الملائم للحوار والبحث وقد كان .. فقد أعطوه جدولا لتدريس مادة «قاعة البحث» وتردد مرات كثيرة، فلم يجد طلابا .. وعلم فيما بعد .. أنها مادة اختيارية ولا يرصد لها درجات كثيرة. وبحث كثيرا عمن يحاوره ويحدثه، ويبدو أنه لم يجد .. فخفت حماسه ولاحظ اعتلالا فى صحته على غير عادته، فطلب بأن نرتب له زيارة إلى البيت الحرام، والكعبة المشرفة، فأداها ، وعاد إلى مصر لكى يلقى ربه فى نفس العام الذى عاد فيه إلى مصر .. رحمه الله رحمة واسعة .

نغم فى حياتنا

■ د. ياسمين فراج

مُضناك.. جفاه مرقده

فى السطور التالية سنكون أمام عمل غنائى مر على تلحينه أكثر من ستين عاما ، ومازال يتغنى به المطربون والمطربات حتى الآن ، وهذا يدل على نجاحه غيرالمسبوق بالرغم من صعوبة كلماته وتناوله اللحنى.

لحنها محمد عبد الوهاب عام ١٩٤٩م، وتغنى بها من بعده كل من فيروز، ثم أنغام، وأخيرا المطرب خالد سليم

إنها رائعة محمد عبد الوهاب قصيدة "مضناك جفاه مرقده" التى وضع لحنها عام ١٩٤٩م ، وتغنى بها من بعده كل من المطربتين: فيروز، ثم أنغام ، وأخيرا المطرب خالد سليم .

نظم نصها الشعرى أمير الشعراء "أحمد شوقى" مستعرضا فيها جمال الكلمة من خلال التشبيهات والكنايات ، فى بحر من بحور الشعر المعروف بالمتدارك. ولو تأملنا كلمات هذه الأغنية نجد أن "شوقى" حاول من خلالها تقريب حالة الحب بين الرجل والمرأة من القدسية . وظهر ذلك فى إشارات عدة مثل الاستعانة بتشبيهات مقتبسة من بعض الآيات القرآنية «الحُسنُ حَلفتُ بيوُسفهِ/ والسورةُ أنك مُفردَهُ» ، واستخدامه لبعض ألفاظ العبادة والتورع مثل "يناجى" ، "يقيم الليل" ، "ناقوس القلب يدق له / وحنايا الأضلعِ مَعبَدُهُ". ومما لاشك فيه أن جزءاً كبيراً من نجاح هذا العمل يرجع إلى جرأة وعمق وحساسية كلماته.

إن هذا العمل الغنائى الرائع يندرج تحت قالب "القصيدة" ، والقصيدة هى أقدم قوالب الغناء العربى على الإطلاق ، فقد تغنى

■ كاتبة وناقدة موسيقية

عبد الوهاب وفيروز وحوار جانبى

بها العرب فى كل زمان ومكان من العصر الجاهلى وحتى الآن ، ويُذكر أن "سيرين" تغنت بها فى عصر صدر الإسلام والخلفاء الراشدين ، وغناها "ثائب خاثر" فى العصر الأموى ، و"إبراهيم الموصلى" فى العصر العباسى.

تعتمد القصيدة على الشعر العربى الفصيح ، وكانت تُغنى فى بادئ الأمر مرتجَلة -أى دون وضع لحن مسبق لها- دون مصاحبة آلية، وغالبا ما يكون ميزانها رباعيا. وأول من وضع للقصيدة بناء لحنيا كان "عبده الحامولى" فى نهاية القرن التاسع عشر، ثم جاء الشيخ أبو العلا محمد ليطور فى البناء اللحنى لها كما فى قصيدة "وحقك أنت المنى والطلب" التى غنتها أم كلثوم ، ثم جاء فرسان التلحين فى القرن العشرين ليجعلوا قالب القصيدة أكثر تطورا وهم "محمد القصبجى"، و"محمد عبد الوهاب" ، و"رياض السنباطى" ، لنجد أن القصيدة الغنائية أصبحت لها مقدمة موسيقية ، ولازمات ، واهتمام بتصويرالكلمة تارة والحالة الانفعالية لمضمون النص الشعرى تارة أخرى . وها نحن أمام واحدة من القصائد التى كان لها دور فى تطوير البناء اللحنى للقصيدة الغنائية "مضناك جفاه مرقده" والتى حاول محمد عبد الوهاب من خلالها رد جزء من جمي أمير

الشـــعـــراء عليـــه فى بداية مشواره الفنى.

تبـدأ قـصـيـدة "مـضـنـاك جفاه مرقده" بمقدمة موسيقية فى مـقـام "حـجـاز" وهو المقام الأســـاسى للعـــمل، ويرجع تســمـيـتـه لمدينة الحـجـاز بالجـزيرة العـربيـة حيث كان ظهوره ، وتسلسل نغماته كالتالى: "رى لا مى بيـمـول، أى المخـفـضـة بمقدار نصف تون لا فا دييز، أى المرفوعة بمقدار نصف تون لا صـــول لا سى بيـمـول دو رى". وقد اعتمدت المقدمة الموسيقية على جزءين الأول هو الذى تصـــدر وأنهى المقـــدمـــة وعـزفـتـه مـجـمـوعـة آلات الكمـان، وهو تكرارللنغمتين الخامسة والأولى فى مقام الحـــجـــاز(لا- رى) فى المنطقـــة الغليظة والمتوسطة للمقام أربع مرات ، والمسافة بين هاتين النغمتين تحمل دلالة بالتساؤل ، وقد تكرر هذا الجزء الموسيقى التساؤلى عـدة مـرات فى القـصـيـدة ، وكـأن عـبـد الوهاب قد تعمد تصويرمايدور فى ضمير الحبيب من تساؤلات حول علاقته بالمحبوب . والجـزء الثـانى عـزفـتـه آلة "الأبوا" مع استمرار الجزء اللحنى الأول كخلفية له ، ثم كررته جميع آلات الفرقة الموسيقية. والمقدمة الموسيقية بأكملها على إيقاع "الوحدة السائرة" ذى الميزان الثنائى، وهو إيقاع يعتمد على نقرتين فقط ، النقرة الأولى أقوى من الثانية ومتساويتان فى الزمن ، وهوإيقاع يشبه خطوات العسكر أثناء السير. وتُعد المقدمة الموسيقية هى التيمة الأساسية لهذه القصيدة لتكرارها كلازمة موسيقية بين كوبليهات القصيدة.

بعد سكتة موسيقية استغرقت عدتين ، يدخل محمد عبد الوهاب فى غناء مذهب القصيدة من المقام الأساسى بالمقطع (مُضناك جَفاه مَرقده/ وَبكاه وَرحمَ عُوده / حيران القلب مُعذبه / مقروح الجفن مُسهده) على إيقاع "الملفوف" ذى الميزان الثنائى أيضا ، أى كل عدتين يبدأ مقطع غنائى جديد مثل : مض (ناك ج) ، (فاه) ، (مرقد)، (لا+ سكتة + وب) ـــــ وهكذا، مع الأخذ فى الاعتبار أن المقطع الخارج عن الأقواس خارج زمن البدء فى الإيقاع. يتبع غناء المذهب تكرار المقدمة الموسيقية من الفرقة بأكملها.

الكوبليه الأول من القصيدة مازال فى المقام الأساسى ، وعلى إيقاع "الملفوف" ، ويبـدأ بالمقطع "يَستـهـوى الوَرقَ تأوهَهُ/ وُيذيب الصـــخـــرَ تنهُـدَهُ/ وُيناجى النَجمَ ويُتعبَهُ/ وُيقيمُ الليلَ ويَقعُدَهُ" .

ويمكننا ملاحظة التصوير الموسيقى فى كلمة "يتعبه" حيث مد حرف الكلمة على نغمات موسيقية بها صعود وهبوط لإبراز معنى المعاناة فى التعب ، بينما جاءت نغمات كلمة "يقعده" متشابهة معها ولكنها أبسط وأقل تصاعدا. فى المقطع "الحسن

حلفت بيوسفه/ والسورة أنك مفرده/ وتمنت كل مقطعه/ يدها لو تُبعث تشهده" لحنه عبد الوهاب فى حيزالخمس نغمات فقط من المنطقة الوسطى لمقام الحجاز، فاقترب كثيرا من فكرة الإلقاء المنغم باستثناء كلمة " مقطعه" الذى استعرض فيها قدرته على الزخرفة الغنائية ، وهنا نجد أنه اعتمد على إبرازاللحن الداخلى للكلمة. وكررت مجموعة الكورس المختلط (نساء + رجال) نفس المقطع ، وهو أحد التجديدات التى أضافها عبد الوهاب لقالب القصيدة، فالمعهود أن يغنى القصيدة المطرب منفردا.

أنغام

خالد سليم

لحق بالكوبليه الأول لازمتان موسيقيتان: الأولى هى نفسها الجزء الثانى من المقدمة الموسيقية للقصيدة ، والثانية جاءت بعد سكتة زمنية استغرقت عدة واحدة فى مقام الراست،أحد المقامات الشرقية التى تحتوى على ثلاثة أرباع التون ، وتسلسل نغماته كالتالى "دو- رى لا مى نصف بيمول،أى المخفضة بمقدار ثلاثة أرباع التون لا فا لا صول لا لا لا سى نصف بيمول -دو" .

الكوبليه الثانى يبدأ بالمقطع "جَحَدَتْ عيناكَ زكى لا دمى/ أكذَلكَ خَدُكَ يَجحَدَهُ؟/ قد عَزلا شُهودى إذ رَمَتا/ فأشَرْتُ لخَدكَ أُشهده" وجاء فى نغمات مقام الراست ، وقد ثبت عبد الوهاب القفلات الموسيقية للأربع شطرات والتى جاءت مُعلقة وليست تامة ؛ لكونها ليست على درجة أساس مقام الراست ، كما ثبت لحن الوصلة الموسيقية القصيرة التى تكونت من ثلاث نغمات فقط فى جنس راست الجهاركاه (أى راست على درجة فا) ، للوصل بين غناء كل شطرة والأخرى ، والتى انتهت بنفس نغمة نهاية الشطرات فجاءت هى الأخرى مُعلقة القفلة. وبهذا نجد أن عبد الوهاب لم يعطِ الانطباع السمعى بالتساؤل فى شطرة "أكذلك خدك يجحده؟" فقط ، وإنما أعطى الانطباع السمعى بالتساؤل فى البيتين الشعريين بأكملهما.

بدخول الغناء فى المقطع "بينى فى الحب وبينَكَ ما/ لا يَقدِرُ واشٍ يُفسدُه/ مابالُ العازلِ يفتحُ لىّ يتحول إلى مقام "الكرد" التى تحمل نغماته الشجن وتخترق المشاعر، وتسلسلها كالتالى:"رى لا مى بيمول، أى المخفضة بمقدار نصف تون لا فا لا صول لا لا لا سى نصف بيمول لا رىّ . واختيار عبدالوهاب لتلحين

هذه الثلاث شطرات تحديدا من هذا المقام الذى يمس المشاعر الإنسانية ، كان بمثابة الإجابة النغمية على االانطباع السمعى بالتساؤل الذى ساد فى المقطع السابق.

وكأنه يؤكد أنه مهما حدث من المحبوب كما صور النص الشعرى فى المقطع السابق من جحود، واستحلال دم الحبيب الذى يجرى فى جسد المحبوب بالإشارة إلى الشطرة "فأشرتُ لخَدكَ أُشهدَهُ" ، فإن قوة الحب الواقعة بينهما لا يقدر الوشاة على إفسادها.

فى نهاية الشطرة الثالثة من المقطع السابق وتحديدا كلمة "لى" يتحول اللحن إلى مقام "كلعزار" وهو مقام نادر الاستخدام من عائلة "البياتى" ويؤكده عبد الوهاب فى المقطع "باب السلوان وأصدَهُ / ويقول تكادُ تُجنُ به / فأقولُ وأوشِكُ أعبدَهُ". وتسلسل نغمات مقام "الكلعزار" كالتالى "رى ــ مى نصف بيمول، أى المخفضة بمقدار ثلاثة أرباع التون لا فا لا صول لا لا لا سى نصف بيمول لا دو لا رى"، وكما هو ملاحظ فمقام "كلعزار" نصفه الأول يكون فى البياتى ، والثانى فى الراست. وهذا المقطع يتكون من ثلاث شطرات كسابقه ، وظهر فيه التصاعد النغمى الذى وصل ذروته فى كلمتى "به" و"فأقول" ، ويستقر على نغمة أساس مقام "كلعزار" والتى تشترك مع نغمة أساس مقام "الحجاز" المقام الأساسى للقصيدة ، وهى نغمة "رى" للتمهيد للعودة له.

يلحق بنهاية المقطع السابق لازمة موسيقية جديدة تماما فى مقام "الحجاز" لإعادة الغناء بدءاً من مقطع "جحدت عيناك زكى دمى". فى نهاية الإعادة تعزف مجموعة الكمان نغمة "صول" مرتين متساويتين كوصلة موسيقية قصيرة جدا للدخول فى المقطع الختامى للقصيدة والذى ينقسم لجزءين فى مقام "الحجاز" ، الجزء الأول "مولاى وروحى فى يده/ قد ضيعها سلمت يده/ ناقوس القلب يدق له/ وحنايا الأضلع معبده" ، ثم يدخل الكورس المشترك فى ترديد هذا المقطع مرة ثانية ، ويتسلم منهم عبد الوهاب الغناء من الشطرة الأخيرة فى المقطع "وحنايا الأضلع معبده" بلحن جديد يبدأ فى المنطقة الحادة لمقام "الحجاز" وينتهى فى المنطقة المتوسطة للمقام على نغمة أساس المقام. ومنه يوصل الغناء مباشرة بالجزء الثانى من المقطع الأخير"قسما بثنايا لؤلؤها/ قسم الياقوت منضده/ ماخنت هواك ولا خطرت/ سلوى للقلب تبرده" بنفس لحن الجزء الأول ، وتنتهى القصيدة بانتهاء غناء عبد الوهاب دون أى تذييل موسيقى.

* * *

وبالنظر إلى قصيدة "مضناك" نجد أنها توافرت لها جميع عناصر النجاح من الكلمة ، واللحن ، والأداء الغنائى البديع المتمكن ، ومن أبرز الملحوظات على هذا اللحن:

أحمد شوقى

- أن محمد عبد الوهاب استخدم الفرقة الموسيقية الشرقية وأدخل عليها آلة "الأبوا" وهى من الآلات الغربية التى أعطت مذاقا خاصا للّحن بصوتها الأنفى النافذ ، خاصة أن الفرقة الموسيقية عزفت خلفية لحنية لعزفها والمعروف موسيقيا باسم "باص الأرضية" ، وهو نوع من أنواع التوزيع الموسيقى البدائى.

- اقتصر دور الفرقة الموسيقية على مصاحبة غناء المطرب ، وعزف اللازمات والوصلات الموسيقية القصيرة ، وهذا الدور يطلق عليه التنفيذ الموسيقى .

- محمد عبد الوهاب لحن مضمون النص الشعرى ولذلك نجده تعامل مع المقطع الغنائى الذى قد يكون بيتين شعريين ، أوثلاث شطرات ، ولم يلحن الكلمة أوالشطرة الشعرية .

- استخدم عبد الوهاب إيقاعين فقط فى هذا العمل هما الوحدة السائرة فى بداية المقدمة الموسيقية ، والملفوف وهو إيقاع سريع ، وهذا يعنى أنه أراد أن يكون إيقاع القصيدة حيويا ، خاصة أن هذه القصيدة غناها غيره على إيقاع الوحدة الكبيرة وهو الأبطأ ويعطى مساحة أكبر للتطريب الغنائى.

- لم يكن اختيار محمد عبدالوهاب لمقام "الحجاز" عبثا وإنما كان جزءاً لاستكمال الحالة التى تتسم بالقدسية كما صورها النص الشعرى ، فمقام "الحجاز" ارتبط فى أذهان الجمهور العربى بمقام "الآذان" النداء للصلاة منذ أن كان بلال مؤذنا ، فالاختيار هنا كان واعيا، ولكن من الطبيعى أن لا يدركه العامة.

- الانتقالات المقامية كانت واضحة ، ويمكن لأى شخص إدراكها بالأذن حتى وإن لم يعِ أو يعرف أسماء المقامات، كما فى النقلة مابين مقام الحجاز والراست، والراست والكرد ، والكرد والكلعزار، حيث يستطيع أى منا إدراك أن هناك تغيرا طرأ على اللحن .

- تعمد محمد عبد الوهاب فى غنائه البساطة ، فقلت مساحات الزخرفة فى الغناء ، وهو بذلك تعمد إبراز المعنى الشعرى على حساب الاستعراض فى الآداء الغنائى ، وبالفعل فقد أكسب بهذه البساطة فى الآداء الغنائى عُمق المشاعر والأحاسيس التى أوردها النص الشعرى.

■ عائشة صالح

بمناسبة ذكرى رحيل أم كلثوم رقم «٣٥»

أم كلثوم بأقلام الكتاب

أين الحقيقة وأين الخيال؟ «٢»

مازلت أواصل حديثى معك عن أم كلثوم بمناسبة ذكرى رحيلها ٣فبراير ١٩٧٥.أما يوم مولدها وكثير من تفاصيل حياتها فقد اختلفت فيه الأقلام.فما أكثر الخيال الذى كتب عنها وما أكثر الحقائق حتى احترنا.أين الحقيقة وأين الخيال..؟مع أننا فى شوق لمعرفة الحقيقة .. قدر الإمكان .. وهو أمر فى غاية الصعوبة .. لكن لماذا لا نحاول .. وإليك بعض محاولاتى التى نجحت فى بعضها .. بعضها فقط .. حاول أنت أيضا أن تستشف الحقيقة بقدر الإمكان.

بوشاية من صديق لعبدالحليم حافظ رفض كمال الطويل أن يلحن لها وقاطعها..كما غضب منها فريد الأطرش

حكى لى كمال الطويل عن سبب غضبه ومقاطعته لأم كلثوم. فغضبت أنا منه. ومتأكدة أنك أنت أيضاً سوف تغضب. رغم انه إنسان وفنان جميل يرحمه الله.

هو نفسه غضب من نفسه بعد أن اكتشف الحقيقة. وقال أنا فعلاً ظلمت أم كلثوم حيث أعطتنى ثلاثة نصوص لألحنها لها.. منها نص دينى لبيرم التونسى وأغانى عاطفية واحدة منها «لسه فاكر قلبى يديلك أمان» ولا أذكر النص الثانى. أخذت منها النصوص وسافرت أنا وزوجتى إلى أوروبا. قلنا نقضى أسبوعين ثلاثة وعندما نعود ألحن لها لأفاجأ بالآتى:

زارنى صديق مقرب جداً من عبدالحليم حافظ ويعمل معه.. حاول أن تكشف اسم هذا الصديق بعد أن تقرأ تفاصيل الحكاية دون أن أقول منعاً للإحراج. قال: اسكت ياكمال حصل فصل بايخ قوى بس ماتزعلش.

■ كاتبة صحفية

قلت له خير: قال لا موش خير. فقد التقينا نفس المجموعة فى بيت مصطفى أمين يوم العشاء المعتاد. كانت هناك الست أم كلثوم وزوجها الدكتور حسن الحفناوى لقيتها بتقول أنا نفسى أعرف كمال الطويل سافر بره هو ومراته. طيب جاب إزاى موافقة على السفر فى حين فيه ناس فى أشد الحاجة للسفر للعلاج. فأنا قلت لها ماهو سافر مع مراته زى ما حضرتك ياستى بتسافرى أنت والدكتور حسن. فسقطت الملعقة من يدها فى الطبق وأحدثت صوتاً. أنا سمعت كده جن جنونى. الله. أم كلثوم اللى أنا كل أسبوع عندها.. وصداقتنا فوق الخيال.

كمال الطويل يحكى وأنا مندهشة. كيف يصدق مثل هذا الكلام الخائب. للحظة وزالت دهشتى عندما تذكرت أن ثقتنا الزائدة فى بعض البشر قد توقعنا فى أخطاء فادحة.

لكننى ادعيت الحكمة وقلت له: هل يعقل أن أم كلثوم بهذه الحماقة حتى تقول هذا الكلام خاصة ومعروف عنها أنها إنسانة غاية فى الذكاء كما أنها تعرفك تماماً.

- قال كمال الطويل بتأثر: كانت حماقتى أنا. تخيلى ماذا كان رد فعلى. قلت لكل من فى بيتى. لو أم كلثوم اتصلت بى مهما كانت الأسباب أنا موش موجود. أم كلثوم اتصلت مرة واتنين وخمسة وستة.. موش موجود طيب قولوا له.. حاضر.

مصطفى أمين اتصل بى فى بيتى. الله. ايه الحكاية ياكمال. أم كلثوم عايزاك.. وقالت لى أكلمك قلت له: مصطفى بك أنا لما الاقى لحن يليق بأم

كلثوم أنا هكلمها.. وابتعدت تماماً.

إلى أن رحلت أم كلثوم.. مصطفى أمين قال لى تعالى بقه ياكمال. أم كلثوم الآن فى رحاب الله.. وأنا عايز أعرف الحقيقة.. قلت له فلان جانى وقال لى كذا وكذا. مصطفى أمين قال لى: «مغفل» خدعوك.. تقول إن فلان قال لك أن هذا الكلام حصل فى بيتى. وأنا بقول لك لا ماحصلش.. هذا كذب. إنما أنت ياأستاذ ياذكى لم تفهم الفولة.. عبدالحليم ومعاه صديقه قالوا لو اتلم كمال على أم كلثوم وبدأ يلحن لها عبدالحليم سيتراجع إلى الدرجة الثانية وربما الثالثة أو الرابعة لأن كمال وقتها سوف يتفرغ لأم كلثوم فأرادوا إبعادك عنها واخترعوا هذه الحكاية. قلت له: معقول يامصطفى بك!! معقول الكلام ده. مصطفى أمين قال لى أنا اللى بقول لك: هذه الحكاية مختلقة.

والآن تصور معى لو أن كمال الطويل لم يصدق هذا الكلام المغرض لفزنا بمجموعة أغانٍ رائعة من ألحانه وصوت أم كلثوم. ومليون خسارة. فقد وقع الظلم عليه وعليها وعلينا.

وكما غضب منها كمال الطويل غضب منها فريد الأطرش فقد طلب فريد أن تغنى من ألحانه. وافقت أم كلثوم. لحن لها أغنية. وجاء ليسمعها لها.. ففوجئت بأغنية عن فلسطين. ما أكثر وأجمل أغانى أم كلثوم الوطنية. لكنها قالت له: موش معقول يافريد أبدأ معك بنشيد.. المفروض أن تلحن لى أغنية عاطفية أولاً.. فريد غضب.. قال له محمد دسوقى: مالكش حق تزعل ياأستاذ فريد لحن لها أغنية عاطفية أولاً.. لكن فريد استمر زعلان من أم كلثوم.

فما هو رأيك أنت؟

طبعاً هى حرة وهو حر. لكن ماذا لو إنها بدأت بأغنية عن فلسطين.. وماذا لو إنه لحن لها أغنية عاطفية أولاً ثم بعدها أغنية فلسطين. لكن كل منهما تشبث برأيه.

نسف فيلا أم كلثوم

وقبل أن أقول لك عن سبب عتابى للمهندس دسوقى أقول لك نبذة عن فيلا أم كلثوم التى تم نسفها لتتحول إلى برج سكنى هكذا نحرص على أن نعمل ضد أنفسنا.

أم كلثوم عاشت فى هذه الفيللا منذ عام ١٩٣٦ . أول ما جاءت إلى القاهرة سكنت فى شقة فى شارع قوله لمدة ثلاثة أعوام ثم انتقلت إلى عمارة فى الزمالك تطل على قصر عائشة فهمى، الشقة إيجارها ٢٥ جنيهاً. استمرت فيها عشر سنوات. فى هذه الفترة انتهى بناء الڤيلا بشارع «أبوالفدا» بالزمالك. انتقلت إليها وظلت بها حتى رحلت.

وقد عاتبت المهندس محمد دسوقى على بيع الڤيللا بصفته المسئول عن كل شئونها الخاصة والعامة. لتتحول إلى برج سكنى. فهل الفلوس أهم من الذكريات والتراث. ثم كيف هانت على وزارة الثقافة أيضاً مما سبب الاستياء.

قال لى دسوقى معاتباً: تسألينى أنا؟!. أنا كنت ضد البيع، ومع وجود أم كلثوم فى الرعاية المركزة وإحساسنا بقرب النهاية جاء يوسف السباعى إلى المستشفى فقلنا له أنا وأخى دسوقى إبراهيم:

هذه الڤـــيللا يجب أن تتحول إلى متحف. مع هذا لم يحدث لأن النواحى المالية لم تكن متاحة فى الوزارة وإلا لما تأخر يوسف السباعى!!!!

ولك أنت أيضاً أن تضيف المزيد من علامات التعجب على قدر تأثرك وغضبك؛ لأنه بذمتك هل هذا كلام معقول.

فما هو السبب ياترى فى نسف الڤيللا دون تدخل من وزارة الثقافة.. وعدم حرصها على أن تتحول إلى متحف.. قل أنت هذه المرة.. منك نستفيد وإلا فاسأل صديقاً قد يعرف وقد يقول..

نعود للأستاذ دسوقى يرحمه الله.. قال: بعد رحيل أم كلثوم فبراير عام ١٩٧٥ تركت الڤيللا مهجورة ثلاث سنوات حتى سكنتها الوطاويط.. وجاء المشترى فقلت له بحسم لن نبيع.. لكن المحامى الذى يتولى تصفية التركة قال لى ما قاله الورثة وأننى أقف فى طريقهم.. قلت له وأنا أتألم.. بيع.. فأنا مجرد وريث واحد ضمن عدد كبير من الورثة فآثرت أن أبتعد.. ولهذا وبشرفى والله العظيم لا أعرف الرجل الذى اشترى الڤيللا.. وقد بيعت بمبلغ أى كلام. ولا أذكر الرقم.. لكن ماذا تساوى الڤيللا أمام موت أم كلثوم فمازلت أتألم لرحيلها.

والآن تخيل معى ثلاث سنوات ووزارة الثقافة لم تستطع تدبير المبلغ الأى كلام إنقاذاً للڤيللا وتحويلها إلى متحف. لتتحول إلى برج سكنى سيظل شاهداً على الجريمة.. ويامليون خسارة!

لا أم كلثوم واحدة

ولأننى أعرف أن محمد دسوقى أب لشاب وفتاة فقد استعنت بذكائى الذى يخذلنى دائماً حيث كنت متأكدة أن ابنته اسمها أم كلثوم أعز الأسماء إلى قلبه.

* قلت له بثقة: ابنتك اسمها أم كلثوم. فما هو اسم ابنك؟

كمال الطويل

– قال: ابنتى ليست أم كلثوم بل فاطمة. لأن أم كلثوم هى التى أسمتها على اسم والدتها وابنى اسمه مدحت.

* فكم ابنة فى العائلة تحمل اسم أم كلثوم؟

– ولا واحدة!

*أشيع عنها أنها بخيلة؟

– قال: بل كانت تعطى المحتاج وترفض الاستغلال.

إلا هذا السؤال.. إلا هذا!

يعترض محمد دسوقى على كل أسئلتى.. ما أهمية هذا السؤال؟ لماذا تركزين على هذه المعلومة؟ لماذا يهتم الناس بمعرفة هذه التفاصيل؟

لا يكف عن الاعتراض.. حتى يقتنع فيجيب. إلى أن سألته هذا السؤال وقبل أن أقول لك عن سؤالى الذى أغضبه لابد أن أذكر زميلنا وأستاذنا حسين عثمان يرحمه الله. كان صاحب قلم جميل صادق ونزيه. وما أكثر ما استفدنا واستمتعنا بكتاباته.. لا يكتب معلومة إلا بعد أن يتأكد منها تماماً.. وبسبب حب أهل الفن واحترامهم له وثقتهم فيه كانوا يختصونه بكثير من الأخبار والمعلومات. وكثيراً ما نلجأ إليه فلا يبخل علينا. وقد لجأت إليه كثيراً فكان خير معين. وتعتبر كتاباته من

أهم مصادرنا الصادقة الدقيقة وما أكثر انفراداته الصحفية التى لا تنسى.

هكذا سألت أستاذنا حسين عثمان عن حقيقة زواج أم كلثوم بالملحن محمود الشريف والذى قيل إنه تم عام ١٩٤٤ . فلم يكتف بأن يؤكد لى المعلومة بل حكى لى بالتفصيل.

وإليك نص كلامه..

كنت أعمل فى مجلة دنيا الفن. حيث فجرت خبر زواج أم كلثوم. كان زواجاً سرياً.. لم يكتشفه أى صحفى ولا حتى الأصدقاء. لم يعرفه إلا أقرب المقربين إليها.

سمعت الخبر بالصدفة من الموسيقى محمد القصبجى. كان يحكى لأحد أصدقائه المقربين مؤكداً له أن يكتم الخبر.. قائلاً له إن أم كلثوم تزوجت الملحن محمود الشريف. لم يكتشف القصبجى أننى سمعت ما يقول..

كتبت الخبر وذهبت إلى المجلة لنشره. نظر إلى خليل عبدالقادر رئيس التحرير نظرة لها معنى. ثم مزق الخبر وألقى به فى سلة المهملات دون أن ينطق بكلمة.

بعد أكثر من أسبوع انفردت أخبار اليوم بنشر خبر الزواج على صفحة كاملة. وعرف خليل أننى كنت صادقاً فجمع المحررين فى اجتماع واعتذر لى ثم طلب منى متابعة تفاصيل الخبر.

كنت أعرف محمود الشريف. العلاقة بيننا فيها احترام متبادل ذهبت إلى نادى بيت الفن فى التوفيقية على أمل أن ألتقى به لأعرف مزيداً من التفاصيل.. ما إن رآنى أحد عمال البوفيه حتى هتف: الحق اخرج. محمود الشريف حلف لو شاف أى صحفى هنا لابد يضربه بالرصاص.

ولأننى أعرف محمود الشريف قلت: يعملها.

يؤيد كلام حسين عثمان ما سمعته من أن محمود الشريف عندما يغضب كان يتعامل مع أم كلثوم بمنتهى العنف أثناء زواجهما. ولدى حكاية تثبت هذا الكلام لكن للأمانة لا أدرى مدى صدقها - ما أنا قلت لك - ما أكثر ما اختلط الواقع بالخيال. لكن المشكلة أننى عرفت هذه الحكاية بعد رحيل حسين عثمان يرحمه الله لذلك فأنا لست متأكدة لكننى سوف أقول لك ما سمعته بعد قليل.

نعود لحكاية حسين عثمان مع محمود الشريف.. فبعد أن قال له عامل البوفيه: الحق أخرج.. خرج بسرعة.

«لمحنى محمود الشريف فنادى علىّ فلم أنتظر وانطلقت خارجاً من النادى. على الباب فوجئت برئيس التحرير خليل عبدالقادر ومعه عدد من الزملاء يدخلون النادى. كنت منزعجاً.

* ايه فيه ايه؟

- محمود الشريف معه مسدس ويهدد بإطلاق النار على أى صحفى.

طيب تعالى معايا.

أخذنى معه.. ودخل مع بقية الزملاء إلى النادى. ما إن رآه محمود الشريف حتى

احتفظ جمهور أم كلثوم بتذاكر حفلها الأخير الذي ألغى بسبب مرضها.. كانت أغنية الحفل الجديدة «أنا هويت وانتهيت» لسيد درويش

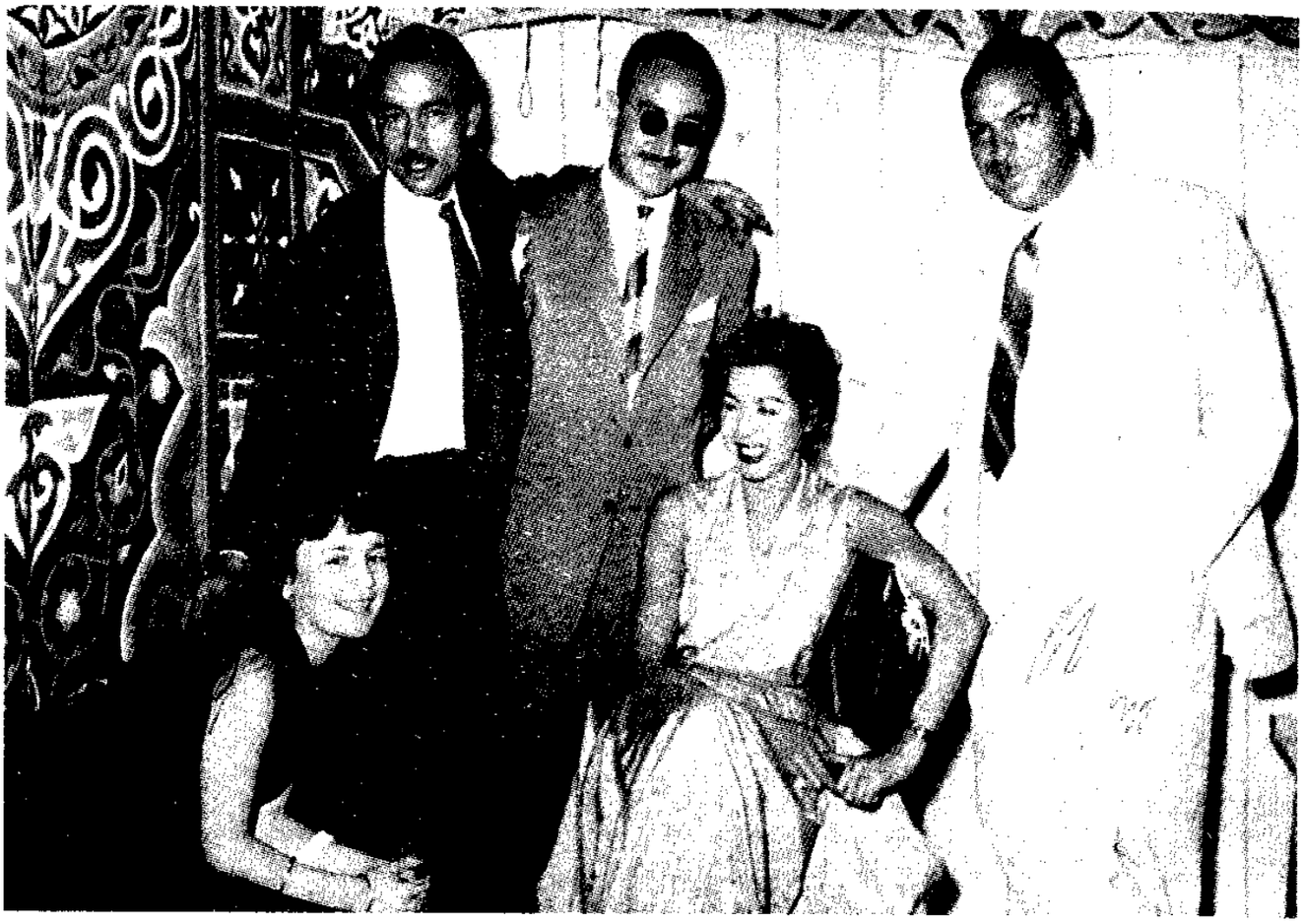

حسين عثمان مع سامية جمال والطفلة فيروز

زمجر ووضع يده فى جيبه.

أسرع إليه خليل واحتضنه ونجح فى أن يعيده إلى هدوئه خاصة أنهما بلديات من الإسكندرية. تصافيا. بل نجح خليل فى أن يستدرج محمود الشريف إلى الحديث عن زواجه بأم كلثوم. وأن يبوح بكثير من أسرار الزواج. أخذ خليل المعلومات ونشرها فى المجلة.

طيب بذمتك بعد كل هذا الذى قاله لى حسين عثمان. وحسين عثمان بالذات أليس من البديهى أن أسأل المهندس محمد دسوقى هذا السؤال وبمنتهى الثقة.

* ما هى حكاية زواج أم كلثوم من الملحن محمود الشريف؟

- كأننى فتحت طاقة من جهنم. قال لى مستنكراً من قال لك هذه المعلومة الكاذبة. هل يعقل أن تصدقى هذا الكلام.

* كلنا سمعنا هذا الخبر وقرأنا تفاصيل كثيرة عنه والأهم أننى سمعته من مصدر ثقة.

قال: أم كلثوم لم تتزوج محمود الشريف ولم تكن ترد على الشائعات. تتجاهلها حتى تموت.

* قلت: مع هذا أعلن هذا الزواج عام ١٩٤٤ وكتب فى مكان بارز فى إحدى الصحف وعلى صفحة كاملة ووصف بأنه زواج العصر بل قيل إنها أيضاً تزوجت من صحفى كبير.

- قال: كل هذا كلام فارغ. أما العمدة الذى ادعى انه تزوجها فقد كانت دعوى قضائية مفتعلة طلعت فاشوش. أم كلثوم وإلى أن تزوجت من الدكتور حسن الحفناوى كان يقال لها آنسة أم كلثوم فكيف يكون هذا لقبها لو أنها تزوجت قبله؟!!

وحتى يتم الحوار على خير قررت ألا أقول له إن هناك من أكد إنها تزوجت قبل

محمود الشريف من أحد أقاربها وهى لا تزال بالعقال. كما إننا سمعنا وقرأنا وكتبنا أن محمود الشريف كان يجرجرها من شعرها ويضربها لهذا أصرت على الطلاق.

لكننى سكت حتى أستكمل الحوار فى جو هادىء غير ملبد بالغيوم.

من يعرف أم كلثوم عن قرب يقول إنها صادقة لا تحب الكذب لذلك كانت تتجاهل ما لا تريد أن تعلنه. لا تؤيد أو تنفى حتى يتوه الخبر ويموت وطبعاً هى حرة تقول أو لا تقول.

وبكى القصبجى

محمد القصبجى الذى سمع منه حسين عثمان خبر الزواج. كان من أقرب المقربين إلى أم كلثوم. له معزة خاصة عندها. أما هو فيحبها لدرجة أنه رضى أن يجلس عواداً فى فرقتها مع أنه ملحن كبير.

كان القصبجى يفضل ركوب الترام فى تنقلاته. أثناء ركوبه الترام تعرض للنشل. نشلوا منه عشرين جنيهاً. لما وصل إلى بيت أم كلثوم بكى.

* ايه ياقصبجى؟

– نشلوا منى العشرين جنيه. كل ما معى.

* بعد البروقة تاخد العشرين جنيه.. بعد البروقة أعطته المبلغ.. فبكى من جديد.

* إيه تانى ياقصبجى؟

– افتكرت العشرين جنيه التى نشلت.. كان زمان معايا ٤٠ جنيه.

بعض المعلومات عنها عليها إجماع. منها إنها كانت تحرص على دقة المواعيد وكانت أول الملتزمين. وإليك هذه الحكاية.

حيث تأخر سيد مكاوى عن موعد التسجيل ساعة كاملة غضبت بشدة وعاتبته.

* ليه كده ياشيخ سيد؟

– أراد سيد مكاوى أن يخفف جو التوتر بخفة دمه المعروفة قال لها:

– معلش ياست أصلى أنا كنت سايق والطريق زحمه.

ضحكت أم كلثوم وصفت نفسها وقالت له: بلاش ياشيخ سيد تسوق بعد كده حتى تصل فى موعدك.

أم كلثوم.. الشاعرة

من بين صفاتها الجميلة أيضاً أنها كانت تتقبل النقد لو أنه جاء من إنسان مخلص غير مغرض. فى فترة من حياتها اعتقدت أنها شاعرة متميزة وما أكثر المنافقين فى حياة أصحاب المناصب والمشاهير.

لكن الشاعر أحمد رامى الذى كان يحبها كفنانة وإنسانة كان له رأى آخر. لم يقتنع بها كشاعرة. ولأنه حريص عليها نصحها بأن تتوقف فتوقفت. حيث كتبت بعض الأشعار وعرضتها عليه فقال لها بأسلوبه الهادىء الودود إن تذوق الشعر فى حد ذاته موهبة عظيمة. وصلتها الرسالة واكتفت بتذوق الشعر الذى تعشقه. يأتى إليها رامى بديوان شعر. بعد أن تقرأه يجلسان معاً ويدور الحديث حول ما قرأته.

مع هذا حدثت لها مواقف طريفة دفعتها للكتابة من باب المناغشة. فقد دعى الشاعر حسن الحطيم للذهاب مع أصدقائه إلى حفل أم كلثوم. الدنيا برد والتذكرة بمائة وخمسين قرشاً. قال الشاعر إنه ذاهب إلى بيته يستمع إلى

الحفل فى الراديو ولن يكلفه هذا إلا بضعة مليمات هى ثمن الكهرباء ولا يدفع المائة وخمسين قرشاً.

سمعت أم كلثوم بالحكاية فطلبت منه أن يقرضها ١٥٠ قرشاً لحاجة عاجلة. طبعاً فهم أنها ثمن التذكرة وأنها مداعبة منها فأعطاها المبلغ ثم كتب لها عشرة أبيات من الشعر فردت عليه بخمسة أبيات هى التى نظمتها.

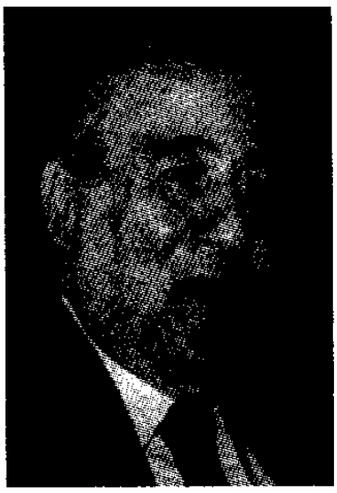

مصطفى أمين

كتب لها يقول:

قلت للتى بغنائها سلبت عقول السامعين
لا تسلبي مالى بوشاية المتآمرين
يكفيك أنك ملكت عقولهم لو تعلمين
بددت مالي عنوة ومضيت لا تتلفتين
سبحان من أعطاك سحراً نافذاً في كل حين
يدع العنيد مسلماً والصلب من عجب يلين
ردى نقودى والفوائد تربحي طوال السنين
إني أخاف عليك من دعوات موتور حزين
لا تسمعى قول الوشاة فلم يكونوا مخلصين
ثم ابعثي لي بالنقود تكسبي دنيا ودين

قرأت أم كلثوم وابتسمت ثم أمسكت بالقلم وكتبت خمسة أبيات ترد بها عليه:

عجباً تطالبنى وأيم الحق منا المدين
أنا التي اشقى لكسب العيش من عرق الجبين
أم أنت حين تعيش محظوظاً بمال الآخرين
وترى سماعي دون دفع بالشمال واليمين
فأخذت حقي بعد جهد ثم صرنا خالصين

روى هذه الحكاية والقصائد كتاب أم كلثوم معجزة القرن العشرين. الذى صدر فى المغرب جمع فيه «أبوبكر المرينى» كل ما كتب فى الصحف عن أم كلثوم والدراسات التى تتصل بها والأشعار التى قيلت فيها وأغانيها أيضاً.

ريان يافجل

ما أكثر الحكايات التى تدل على تقبلها للنقد وعشقها للحقيقة. فقد أراد أحد أبناء أخوتها أن يصبح مطرباً. تصرفت أم كلثوم بحكمة. جمعت الموسيقيين وتركته يغنى أمامهم. أخذت رأيهم: كان الرأى فى صالحه.. ربما كانت مجاملة منهم خجلاً منها. فقد بدأ يغنى للجمهور فلم يقابل بالترحاب. فطلبت منه ألا يستمر فإما النجاح بتفوق أو التوقف. حتى لو كان القرار قاسياً صادماً فهو فى صالحه.

لأن رأى الجمهور عندها فوق كل اعتبار.. تشعر بالتوتر قبل رفع الستار. لا تهدأ حتى تقرأ آيات من القرآن الكريم. تتوسل إلى الله أن يوفقها.

محمد دسوقى معها دائماً. قال لها.. لماذا كل هذا التوتر. أنت أم كلثوم حتى لو قلت ريان يافجل؟

غضبت أم كلثوم وقالت له بحسم:اوعى تقول كده مرة تانيه يامحمد. فلو أننى قلت ريان يافجل لما أصبحت أم كلثوم. الجمهور حساس يتذوق الفن الجميل ويستمتع به. يفرق بين الفن الراقى واللا فن. وريان يافجل لا تليق بى ولا بجمهورى الذى يحترمنى ويحبنى لاننى أحترمه واحبه.

أجمل اعتذار

وقد روى سعيد المصرى المونتير الوحيد لكل أغانيها ولمدة ١٥ سنة منذ عام ١٩٦٠ وحتى النهاية قال:

عندى مكتبة رائعة لأغانى أم كلثوم يرجع الفضل فيها إلى أخى الأكبر خليل المصرى. هو الذى اهتم بجمع تراث أم

كلثوم وتراث كبار الموسيقيين وكان ينفق على ذلك من ماله الخاص وله كتاب عن أعمال أم كلثوم أصدرته اللجنة الموسيقية العليا يضع فى بدايته الآيات القرآنية التى قرأتها أم كلثوم فى أحد أفلامها:

«ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق إن ربى لسميع الدعاء ربى اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب».

ثم كتب الاهداء فى الكتاب إلى أم كلثوم.. بالشعر:

ياست ثومة يامسهرانى
باهدى إليكى كل الأغانى
اللى شجعتنى أيام زمانى
وإن كنت أخالفك في حاجة منها
لأجل صوتك أعيدها تانى

هكذا كان اعتذار خليل المصرى لأم كلثوم بطريقة عملية جميلة.. فقد رشحت أم كلثوم نفسها نقيبة للموسيقيين وكان خليل المصرى عضواً فى النقابة فاعترض:

- هذا لا يمكن أبداً

سمعت اعتراضه وهو يقول هم الرجالة خلصوا علشان نختار واحدة ست. لم تغضب أم كلثوم ولا شنت عليه هجوماً نارياً وهى من هى.. بل نادت عليه. أجلسته بجوارها ودار بينهما حوار:

* ليه ما تكونش النقيبة واحدة ست؟

- لأن الرجاله موجودين والرجالة أولى.

* أنا برضه أقدر أخدم النقابة ولى أفكارى.. وأحل المشاكل؟

- إلا كده؛ لأن فيه رجاله تقدر وأنا مصر. الرجاله أولى.

* الست ممكن تكون نقيبة؟

- أنا إسكندرانى وتربيتى كده ولن أتراجع.

نجحت أم كلثوم وشغلت منصب النقيب وقدمت خدمات جليلة لأعضاء النقابة فاعترف خليل المصرى أنه كان مخطئاً وهكذا قدم لها أجمل اعتذار بطريقة عملية.

أنا هويت.. وانتهيت

قال لى سعيد المصرى أيضاً إن أم كلثوم قررت أن تغنى دور «أنا هويت وانتهيت» وهو الدور الخالد الذى اشتهر به الشيخ «سيد درويش».

* سألته: متى حدث هذا؟

- قبل أن تغنى «حكم علينا الهوى».. وهى آخر أغنياتها التى سجلتها. وإن كانت لم تغنها فى الحفلات. وتحدد موعد الحفل ثم تأجل.. ثم حدد موعد آخر.. ولم يتم بسبب مرض أم كلثوم.. حتى أن بعض الذين اشتروا التذاكر يحتفظون بها على سبيل الذكرى.

* قلت له يعنى قبل الوفاة بثلاث أو أربع سنوات؟

- تماماً.

* وما الذى أخَّر المشروع؟

- كل عمل فنى يأخذ وقته. لكن أم كلثوم كانت مقتنعة بالفكرة وأبدت رغبتها فى أن تغنى أغنية للشيخ سيد درويش،

وطلبت منى أن أختار معها.

رشحت ثلاث أغنيات. «أنا هويت وانتهيت»، و«أنا عشقت»، و«ضيعت مستقبل حياتى».

لكن كلمات الأغنية الثالثة لا تناسب أم كلثوم. لا تناسبها وهى بهذا التاريخ الطويل الحافل أن تقف على المسرح وتقول «ضيعت مستقبل حياتى وبقيت أنا عشقت، وأنا هويت.

رحبت أم كلثوم بدور «أنا هويت وانتهيت» سمعت الأغنية مرات ومرات بصوت الشيخ سيد. وكانت بالطبع قد سمعته من قبل وقالت لى:

ياريت فى تخطيطنا نحط سيد درويش.. ليه لأ؟!

كانت أم كلثوم تحب صوت سيد درويش وتحب أيضاً صوت الشيخ محمد صبح وتحب أعمال أبوالعلا محمد.

لكن القدر لم يمهلها لكى تغنى «أنا هويت.. وانتهيت».

والآن.. كان من الممكن أن أسترسل فياما حكايات عن أم كلثوم.. لكن الكلام طال.. قلت أكتفى بهذا القدر.. وقد لفت نظرك إلى بعض الخيال الذى كتب على أنه حقيقة. بينما نفاه البعض أما باقى المكتوب فأرجو أن يكون كله حقيقة. موش كله يعنى لكن أغلبه. وهذا هو الحال فى كثير من المكتوب أما الحقيقة الكاملة فعلمها عند الله.

فهل اقتنعت أننا جميعاً «قراء وكتاباً – فى حاجة إلى غربال.

■ د. عز الدين نجيب

الإطلال إلى الداخل

بين عين الرسام وعدسة المصور

رحلة الفنون الجميلة عبر التاريخ تتراوح بين تعبير الفنان عن العالم الخارجي الذى يراه بالبصر فى الطبيعة والإنسان، وبين العالم الداخلى الذى يراه بالبصيرة .. سواء فيما يتصل بالحياة والوجود من عقائد ومعان ومفاهيم، أو ما يدور بداخل النفس من مشاعر وأحاسيس أو ما يختزنه الوعى الجمعى من قيم وحضارات وأفكار فلسفية أو حتى رؤى خرافية وأسطورية، وتتراوح وسائط التعبير الفنى بين التصوير بالألوان المختلفة والنحت بالأحجار أو غيرها من الخامات، وبين الحفر (الطبعة الفنية) على الورق بوسائط الطباعة اليدوية.. وفى العقود الأخيرة دخلت وسائط أخرى مضمار السباق، مستفيدة من التقنيات الرقمية (الديجيتال) مثل الكمبيوتر والفيديو والفوتوغرافيا والأعمال التجميعية فى الفراغ بمخلفات ونفايات شتى .

نحن هنا إزاء حالة مثل الحلم منفصلة عن الواقع المعيش قد تصلح لأى زمان أو مكان، وتسمح بكل التفسيرات والتأويلات بل والإسقاطات

لكننا ونحن فى عصر تراجعت فيه الأيديولوجيات والقيم النبيلة التى تحرك الفنان لاعتناقها والدعوة إليها ، واهتزت كل القناعات بمستقبل مشرق للإنسان .. تجتاح الفنان أزمة عميقة ، خاصة فى دول الغرب المتقدمة تكنولوجيا والمتأزمة روحيا، ما جعله ينغمس فى أحد خيارين : إما فى التجريب الشكلى البحت، مستعينا بالخامات المختلفة، حتى بلغ درجة فظة من «التشيؤ» وإما فى المعنويات المفاهيمية، ما دفعه إلى التخلص من أسلوبى اللوحة والتمثال، واللجوء إلى الوسائط التكنولوجية لنقل هذه المفاهيم فى أشكال سردية (كأفلام الفيديو والكمبيوتر) أو صوتية (كالمؤثرات الموسيقية إلى حد الضوضاء أو الرعب) أو ميكانيكية كـ «مخلفات الورش

وأدوات المنزل وتروس المصانع» يشكل من خلالها رؤاه المفاهيمية ضمن ما يسمى بالتجهيزات المركبة فى الفراغ أو الأعمال التجميعية .

وقد زحف كل هذا مؤخرا على الحركة التشكيلية فى مصر عبر تجارب الشباب اللاهث خلف آخر صيحات الحداثة، وفى المقابل لايزال فنانون كبار يجتهدون بحثا عن ملامح الحداثة فى جذور التراث والواقع وحياة الناس، كما لايزال هناك شباب يبحثون عن الحداثة بنفس التقنيات الرقمية، لكن من أجل الدخول من خلالها إلى أعماق إنسانية هجرها الشكلانيون .

واليوم أقدم لكم معرضين أقيما فى شهر فبراير الماضى يمثلان كلا النوعين، عند فنانين أحدهما مخضرم تخطى السبعين والآخر شاب فى الطريق إلى الأربعين .

حكاية الحجر والبشر

أطلق الفنان المصور عبدالرحيم شاهين على معرضه الأخير بأتيليه القاهرة عنوان «الأقصر : حكاية الحجر والبشر»، لكنه قدم صورا تدور فى مدينة غامضة غير ما نعرفها كمتحف مفتوح للآثار المصرية التى تحتضنها بيوت «القرنة» على سفح جبل الموتى فى البر الغربى للنيل قبل أن تزال منذ عامين، حماية - حسبما قيل - لمقابر الأشراف ومعابد الملوك .

ربما استدعى مدينة للأساطير والرؤى الحلمية من عالم الخيال وذاكرة اللاوعى ، وإن لم تخل لوحاته من لمسات متفرقة تومئ إلى الواقع والتاريخ المصرى القديم، كناية عن معنى رمزى تمثله الأقصر : معنى الجذور الحضارية التى شكلت فجر الضمير للبشرية ووعى الإنسان بالقيم الأخلاقية والميتافيزيقية، التى تلعب الأسطورة فيها دور البطولة ولم يقف - إلا قليلا جدا - أمام أشكال العمارة والنحت والتصوير والرموز التى تحملها هذه الآثار، وأمام المشهد الحياتى للبشر اليوم وملامح وجوههم التى لوحتها الشمس، وأزيائهم ومظاهر حياتهم اليومية، وعمارتهم الطينية الحاملة لثقافتهم المتوارثة، وغير ذلك مما شاع فى أعمال الفنانين الذين توافدوا على هذه المنطقة .

ومع ذلك فلم يكن شغله الشاغل هو القبض على مضمون هذه الحضارة التاريخية، بما تحفل به من وعى مضىء بالمعانى الإنسانية والوجودية، بقدر ما شغله البحث عن الحس الأسطورى المطلق، الذى يعظم القوى الغيبية المهيمنة على الإنسان والكون والذى تمثل عبر الأزمان القديمة فى آلهة تجسدها كائنات خرافية .. من حيوانات وطيور وزواحف وحشرات، ويركز الفنان هنا على رأس الكبش الدال على الإله «خنوم» ، لكنه يستدعى من الطبيعة عناصر واقعية ليست لها صفة القداسة مثل أشخاص بسطاء وخيول وطيور وأسماك وضفادع ، وكان لابد له أن يجعل لها بيئة تعيش فيها من العمارة وملامح الطبيعة والآثار، كأجزاء من معابد وبوابات وقلاع تاريخية وقباب ومناظر طبيعية تضم أشجارا وأنهارا وبيوتا ريفية وغير ذلك .

نحن هنا إزاء حالة مثل الحلم، منفصلة عن الواقع المعيش قد تصلح لأى زمان أو مكان، وتسمح بكل التفسيرات والتأويلات بل والإسقاطات السياسية

خاصة فى اللوحة التى يستدعى خلالها سمكة قرش ضخمة على هيئة صاروخ حربى، ومن حولها جدران حجرية كبقايا أبنية تاريخية، وقد تفككت أو بسبيلها إلى التفكك .. وإن كنت أرى هذه اللوحة غريبة ودخيلة على المعرض لعدم تجانسها الزمنى مع المعالم البيئية والتشريحية فى بقية اللوحات، فضلا عن أنها إعادة صياغة للوحة مماثلة فى معرضه السابق، الذى كان مليئا بإسقاطات سياسية عن هيمنة الوحش الأمريكى على العالم وهو يمثل قوى الشر فى عصرنا، فيما نجد الفنان هنا يتخلى عن ثنائية الخير والشر لقوى الصراع، ويدخل فى مناطق ضبابية يلتبس فيها الخير بالشر، كما يدخل ما يشبه كهوف النفس الإنسانية بما يعتمل بداخلها من غرائز ونوازع متناقضة ومتصارعة، الأمر الذى يجعلها تلامس عالم السريالية المتصلة بنوازع الأنا أكثر من اتصالها بموروث الوعى الجمعى الذى تجسده الأسطورة، وقد يجعلها ذلك تلامس اللحظات الشعرية المخاتلة، مثلما يتجلى فى لوحاته عن البومة ذات العيون الجميلة وهى تغنى أغنيتها، وعن المرأة التى تناجى الكبش، والحصان الذى يقبل وجه صبى نائم ..

الأسلوب الفنى لأعمال المعرض يقترب – مثل معارض الفنان السابقة – من الأسلوب الكلاسيكى القائم على التجسيم ثلاثى الأبعاد، وعلى محاكاة عناصر الطبيعة، وعلى أسطوانية الأشكال بإسقاط الضوء عليها – فى جو معتم – من زوايا تبرز استدارتها وسطوحها المعمارية ونتوءاتها الطبيعية ، لكن اللوحات – رغم **ذلك – تبدو حداثية، بسبب اعتماد التكوين على تفكيك العناصر وتشظيها لا على وحدتها وترابطها، وبسبب تداخل الكائنات عبر عمليات التحول والحلول التبادلى بين المشخصات البشرية والحيوانية فى جو من الغموض والخيال الأسطورى، وابتعد عدد من اللوحات عن تلك العمليات التبادلية وعن تفتيت عناصرها، واتسمت بالترابط والتماسك والعقلانية، لكنها** اكتسبت طابع الحداثة من تعامل الفنان مع تلك العناصر ككتل وأشكال حجرية أو عضوية، بعيدا عن محاولات التأويل الموضوعى أو مقاربات التشبيه الفيزيائى ، فأصبحت أقرب إلى التجريد الخام، أى تجريد العناصر الغفل من مدركات ذات أصل طبيعى، نجح الفنان فى تحريرها من أسر الدلالة الوظيفية والمعنوية، مع بقائها محتفظة بهذا الأصل كحالة إيهامية مخادعة بين الواقع وما فوق الواقع .

لعل هذا يقودنا إلى الإشكالية التى تواجه الفنان شاهين على امتداد أغلب معارضه .

حيث نجده – من ناحية – مهموما بواقع الحياة والمجتمع والعصر، معبرا عن رؤية تحمل رسالة رافضة لما يتعرض له العصر من عوامل القهر والهمجية والهيمنة ونجده – من ناحية أخرى – محلقا فى أجواء ميتافيزقية مطلقة يلفها الغموض كما يلف الظلام أغلب المناطق فى لوحاته ، ونجده – من ناحية ثالثة – مقاربا لعالم السريالية بما يحمله من رموز الكبت والشهوات المكبوحة والاختناقات الكابوسية ، ونجده – من ناحية رابعة – يغازل عالم التجريد بعلاقات شكلية بين

الكتل والأضواء والظلال لاتقود إلى معنى.

ومن حق الفنان بلاشك أن يجرب أو يخوض فى جميع تلك المناطق وغيرها بغير حواجز أو حسابات إلا ما يضعها لنفسه، لكن المشكلة هى عندما يظن الفنان بأنه – من خلال هذا كله – يتوجه برسالة فكرية إلى المتلقين ويتصور أنها بالغة الوضوح ، ثم ينعى عليهم عدم قدرتهم على استقبالها.. هنا ينبغى عليه أن يقف ليسأل نفسه : ما الذى أريد أن أرسله إلى الجمهور .. وكيف ؟

وبعيدا عن هذا الالتباس الفكرى فى أعمال المعرض ، فإنه – على مستوى البناء الفنى قد حقق درجة عالية من النضج ومن التفرد ببصمة مميزة فى محيط حركتنا الفنية، وقد بنى تميزه عبر قالب اللوحة التقليدية ، لكن بتفجير أقصى ما يسمح به هذا القالب من إمكانات تصويرية وتعبيرية ، سواء بإحكام التكوين حتى فى حالة تشظيه ، أو بمنابع الضوء غير المعلومة التى تحقق وميضا متقطعا ومزيدا من الحركة البصرية، أو بإبراز الملامس الخشنة عبر الإضافة والكشط بالسكين مما يخلق ملمسا مجعدا تحت درجات اللون والضوء ، فيضفى على السطح نكهة الحجر المتآكل والزمن الغابر ، وربما نجد أن بعض اللوحات قد خانتها صحة النسب التشريحية عند محاولة الفنان نقل الملامح الواقعية لأشخاص ووجوه وأعضاء من الجسم ، فى مواقع لم يقصد فيها التشويه المتعمد ، وهو حق للفنان عندما يسمح منطق الأسلوب بذلك .

إن كلمة عبدالرحيم شاهين بلغة الشكل كلمة صادقة جاءت فى توقيتها المناسب، حيث تجتاح دعاوى «الحداثة المستعارة» أغلب المعارض التى تتبناها الدولة، فتسقط ضحية لها مواهب شتى من شباب «لايتقن فن العوم» لتأخذه الأمواج بعيدا نحو شواطئ مجهولة لا أثر فيها لحياة، إن لم يكن نحو الغرق أو اللاعودة !

العدسة .. كفرشاة

أما الفنان باسم الزغبى فاستطاع أن يحيل عدسة آلته الفوتوغرافية إلى فرشاة تصويرية تنبض بكل ما تملكه فرشاة الرسام من قدرة على التعبير ، وبكل ما يتركه إحساس الفنان المرهف من إيحاء، والأمر هنا يختلف تماما عن منهج المصور الفوتوغرافى الذكى فى اختيار زوايا الرؤية والإضاءة والتكوين عبر مشاهد وموضوعات ملموسة فى الواقع الخارجى، بما يؤدى إلى «لقطة فنية» ذلك أنه لايعنيه إطلاقا إظهار شىء من ملامح الصورة البصرية الخارجية لعناصر من الواقع الملموس ، إنما يعنيه أن تبدو رؤيته مطلة إلى «الداخل» الذى لايرى بالعين المجردة.

«الداخل» هنا قد يكون النفس البشرية، أو رحم الأم، أو كهف الغرائز، أو حالة الجيشان العاطفى، أو طاقة الحركة المتدفقة لا مظاهرها التشريحية، أو لحظة تفتح برعم الزهرة .. ومن ثم فهى جميعا إرهاصات تعبيرية حرة لريشة فنان تجريدى ، لايفرض عليك رؤى وانطباعات معينة، بل يترك لخيالك حرية المشاركة الإبداعية فى تأليف رؤاه ..

أدوات «باسم» الفنية هى ضربات الفرشاة «مجازا لا واقعا» والخطوط السريعة المنحنية فى أقواس دوامية،

الإطلال إلى الداخل

والألوان الدافئة بقوة الدماء المتفجرة فى شرايين أجسام ذابت وشفت فبدت أطيافا، والتكوين الدائرى لجزيئات ضوئية تسعى إلى التوحد والتماسك ، والتأثير الملمسى الذى يحاكى تأثير ضربات الفرشاة العريضة الخشنة أحيانا والناعمة أحيانا أخرى .

ويظل السؤال الذى يلح على المشاهد للمعرض المقام بمركز سعد زغلول الثقافى بشارع الفلكى هو : كيف استطاع تنفيذ هذه اللوحات بواسطة الكاميرا، دون أى تدخل تقنى من جانبه مستعينا بالكمبيوتر أو غيره ؟! .. وأظن أنه التقطها من رقصات حقيقية للباليه على خشبة المسرح .. إن معنى ذلك أن كل العمليات الفنية قد تمت فى نفس اللحظة التى ضغط فيها على زر الكاميرا، ثم انتقل مباشرة لطبع الصور على قماش «كانفاس» مما يرسم فوقه الرسامون بالألوان الزيتية ، وقد اختار له مساحات ضخمة «أكثر من متر للضلع الواحد»، وهو ما ساعد فى حالة الاندماج السريعة للمشاهد مع اللوحات ليصبح بداخل دواماتها أو وسط رياحها العاصفة.

إن ما يستولى عليك لدى المشاهدة هو إيقاع موسيقى بالغ السرعة عارم الجيشان، يصدر من أوركسترا مجهول مصاحب لرقصات باليه محمومة فوق المسرح الأسود، ونلاحظ بالفعل بعض الملامح الشاردة من بين اللوحات تنم عن أجسام أو أطراف أو رؤوس بشرية، تبدو تائهة وسط إيقاعات الحركات العنيفة (الافتراضية) بغير تفاصيل ، لكن بوسعنا أن نشعر بحميمية التلاحم أو الصراع أو التوافق بين الراقصين ، أو بصخب الزحام المتداخل في إيقاع موزون رغم عنفوانه فيما بينهم ، أو نشعر بشفافية الفراشات إذ تطير وتحلق بأجنحتها الطيفية، أو نشعر بعمق البؤرة المظلمة فى الفراغ الناجم عن حركة تكور جسم الراقص على نفسه، ليبدو أمامنا كالجنين فى بطن أمه، أو كشبكة عنكبوتية تبتلع بداخلها كائنا يشبه الإنسان .

لقد دخلت الصورة الفوتوغرافية منذ سنوات بعيدة حيز الأعمال التشكيلية واحتلت مكانها بجوار لوحات التصوير الزيتى وأعمال النحت والحفر وغيرها من أنواع الفنون التقليدية وها هو باسم الزغبى (من مواليد ١٩٧٠) يدخل هذا المضمار من أوسع أبوابه ، مسلحا بموهبة جلية ودأب شديد وتواضع جم ، نابع من شخصية عصامية مثقفة ، حيث إنه لم يدرس الفن بأى معهد أو كلية، بل علم نفسه بنفسه، وسوف تدهش عندما تعلم أنه خريج كلية الحقوق بجامعة عين شمس ١٩٩٣، لكن موهبته أهلته للعمل كمصور صحفى بجريدة الأهرام، ودفعه طموحه إلى التقدم بأعماله إلى مسابقات فنية مختلفة، فأثبت حضوره ليس فقط بالعرض فى معارضها، بل كذلك بالفوز بعدة جوائز : الجائزة الأولى لصالون النيل للتصوير الضوئى ٢٠٠١، والجائزة الأولى للتفوق الصحفى بنقابة الصحفيين ٢٠٠٦، والجائزة الثالثة بمسابقة مصر ٢٠٠٨ فرع الصورة الفنية .

فإلى المزيد !

بعد زمن من الاختفاء، يمر به العمل الفنى حتى يكتمل، ويصبح كيانًا يتحدث عن نفسه، يكشف عنه الفنان المبدع، ليراه الناس ويحكم عليه النقاد.. إنها ساعة الحصاد.

■ د. مريم المهدى

المكان إنسان

المكان والإنسان ملتحمان لايفترقان منذ بدء الخليقة.. المكان هو المالك الشرعى والشاهد على تطور الحضارات، وحياة الإنسان العقلية والوجدانية وتاريخه على مر العصور.. هو البيئة المحيطة أينما كانت، التى تشكل نسيج الوعى والفكر الإنسانى على اختلاف مستوياتهما، إنه الملامح المميزة لميثولوجيا الشعوب.. هو الوطن والسكن والأمن والخصوصية والشمولية معاً ارتبط به الإنسان ودافع عنه وافتداه فلا حياة مستقرة بدون المكان وما أدل من حضارة وادى النيل الممتدة التى وهبت أرض مصر أعظم حضارات الأرض.

من هنا كان عشق الفنان عادل واسيلى واهتمامه بالبيئة المحيطة بالإنسان وما تصنعه داخل عقولنا ومشاعرنا، فهى الحاضر بإيجابياته وسلبياته، وهى التاريخ بمجده وذكرياته، إنها الانتماء الذى يولد الحب بين أفراد الجماعة.. من هذه الحقيقة جاء معرض الفنان عادل واسيلى بأتيليه القاهرة فقدم لنا بلغة وجدانية عقلانية تنطق حروفها بتأملاته ورصده لمفردات قيمة وأثر البيئة المحيطة على حياة الإنسان بأسلوب تخطى فيه مرحلة الرصد الاستاتيكى الشكلى إلى مرحلة تدفق المعانى والأحاسيس بديناميكية واعية فجاءت أعماله متميزة برؤية عصرية وتقنية عالية الجودة بتوظيف الفنان للظل والنور، واختياره المقاطع والمشاهد ببراعة واستيعاب بهدف توصيل المعنى والشعور للمتلقى بذكاء وإحساس مرهف بجمال التكوين والزوايا والأبعاد والعمق من خلال الصورة الفوتوغرافية التى تشارك بموقعها ودورها

■ فنانة تشكيلية وصحفية من أسرة الهلال

بين فروع الفن التشكيلى المعاصر محققة مكانة هامة بملازمتها العديد من المجالات الثقافية كعنصر أساسى منها الفنى والتجارى والعلمى والصحفى وغيرها من فروع الحياة الثقافية والإبداعية، لكنها بدون الفنان الذى يحرك آلة التصويرلينقل لنا فكره وإحساسه تكون محدودة الأثر؛ ولذا فقد استخدمها الفنان عادل واسيلى بصياغة بصرية عالية مستوعبة يتخطى بها حدود العين والفكر والروح عامداً التقاط تكويناته من البيئة المكانية ليعلن أن الجمال والإحساس به موجود فى كل مكان يشاركنا ونشاركه الحياة ولا ننتبه لوجوده وهذا هدف الفنان الأول ودوره لاستثارة العقل والوجدان لمشاهد ومرئيات اعتادت عيوننا على رؤيتها يومياً ولكن لم تعد تثير الإعجاب والفكر داخلنا. وجاء معرض واسيلى ليحرضنا على الإحساس والتأمل والتذوق باستعادة استلهام ملامح البيئة لنستمتع بمعانى الحياة والجمال كدعم ثقافى وتقنى معاصر مع الحفاظ على قيمة الفن وتسخيره لخدمة فئات جديدة من المتذوقين والمنتفعين بفرع التصوير الفوتوغرافي.

ندى وولاء ..المرأة والحقيقة

ندى وولاء فى معرضهما الثنائى الأول هما فنانتان شابتان شاركتا فى العديد من المعارض الجماعية والورش الفنية والدورات وهما خريجتا كلية التربية الفنية عام ٢٠٠٨. ندى عبدالله قدمت التجربة الحياتية للمرأة فى مجتمعنا بما تحويه من قيم ومفاهيم ما بين الحقيقة والخيال اختزلتهما الفنانة بجرأة واعية فى لوحاتها التى تسبق سنوات عمرها بقدرة على

حصاد المعارض

استيعاب واقع المرأة ما بين الحرية والقهر فى تجربة إبداعية فلسفية تبشر بقدوم فنانة تسخر عقلها ووجدانها فى خدمة قضايا الإنسان.. والمرأة بصفة خاصة بدأت بها معرضها الثنائى الأول فى محاولة بحث عن الحقيقة المنبثقة من الخيال الإبداعى بهدف الوصول لمنطق عادل وراق يحقق توازناً نفسياً وعقلياً للمرأة فى كل مواقعها، أماً وزوجة وحبيبة وأختاً ومناضلة فى مجتمعات الحروب، تريد ندى أن تطلعنا على الحقيقة المرجوة من خلال لوحاتها الزيتية التى تحتفى بالمرأة كعنصر تشكيلى مشارك للرجل ولكل أوجه الحياة، فهى صانعة الرجال منحها الله الخصوبة والحنان والجمال وبرغم أنها تمثل بهجة الحياة إلا أن الفنانة صورتها أحياناً سجينة تحت أغلال قيود أفكار واتجاهات اجتماعية تفرضها التقاليد المتوارثة أو القانون.. وندى ترى أن هذا يتعارض مع مكانة المرأة العظيمة التى حباها الله إياها مؤكدة هذه المعانى فى لوحاتها بثقة مستخدمة ألواناً بعيدة

عن الصخب لتعبر بواقعية وجدية عن رسالتها فى هذه المرحلة الفنية الأولى لها، والمعرض يعد بداية لانطلاق الفنانة فى المرحلة القادمة استعداداً للوصول للشكل التقنى الكامل لإبداعها فى المستقبل، وبداية رصيدها يعد بتحقيق هذه الموازنة الإبداعية.

هارمونى إيقاعى

أما الفنانة ولاء فهى لا تقل عن توأمتها الفنية ندى فى استيعاب قيمة الإبداع من خلال بلاد النوبة الساحرة حلم جنوب الوادى والتى تنحدر منها الفنانة، تعيش بأحلامها وخيالها واقع قصص بلاد النوبة منذ إنقاذ الآثار من الغرق هناك أيام بناء السد العالى وغرق بعض القرى تحت ماء النيل، إنها بلاد النوبة

البسيطة التي تحمل قلوب أبنائها فيض الانتماء والحب والأصالة، فاستطاعت ولاء أن تترجم هذه المنظومة الاجتماعية وتستلهم مفردات البيئة النوبية من عمارة القرى، للألوان الزاهية التي تنادي بالفرحة والأمل وبساطة الحياة بعيداً عن التلوث البيئي والنفسي.. أعمالها تقول أنا عاشقة لبلادي وموطني، أما التقنية اللونية فحققت بها نجاحاً مكملاً للمعنى بقدرتها على توظيف الألوان وتوزيعها بمهارة وفهم في هارموني إيقاعي ترددي عالي الجودة لم يفقدها الإحساس الفطري المميز لملامح البيئة الحياتية لبلاد النوبة.. وولاء توثق معرضها الثاني الأول بخطوط واثقة تحمل قدرة تعبيرية على استيعاب مفردات وأدوات الفن الشعبي الذي تتبلور قيمته من خلال

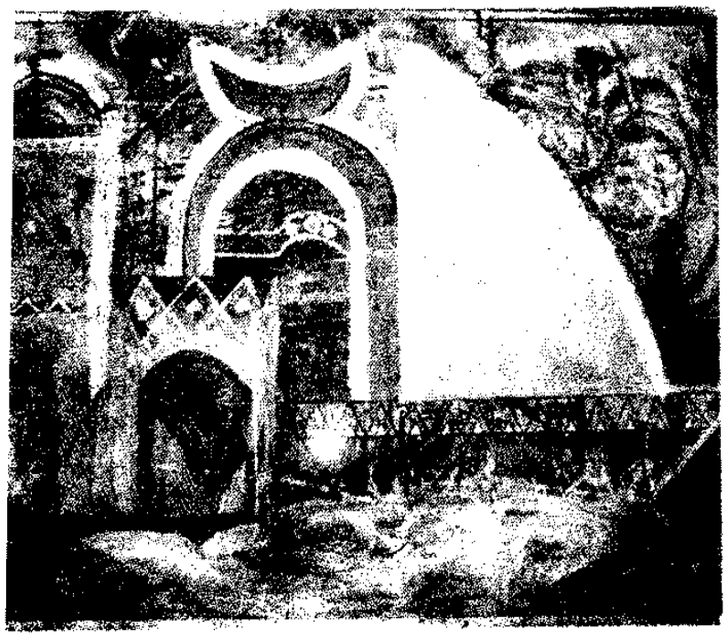

ملامح الحياة في بلاد النوبة التي استلهمها كبار الفنانين منذ امتداد الرعيل الأول وحتى اليوم فهي مجال خصب للإبداع التشكيلي ننتظر منها تقديم إنتاج أغزر وأكثر لنتحدد معالم اتجاهها في مرحلة النضوج الفني في السنوات القادمة.

سوزان المصري تفرد عالي

فن الحلي فن قديم زخرت به حضارتنا المصرية القديمة فقدمت منه نماذج من الحلي غاية في دقة وروعة التصميم والجمال الفريد الذي يبهر نساء العالم حتى يومنا هذا، والفنانة سوزان المصري تعد من ضمن خمسة فنانين على مستوى العالم تقريباً في هذا المجال ممن حققوا التفرد، قدمت الفنانة فن الحلي وأبدعت فيه بخيالها بعيداً عن المحاكاة وابتعدت عن النمط التقليدي مستخدمة الأحجار الكريمة التي تكمن بداخلها طاقة طبيعية مؤثرة على الإنسان ومزاجه واتجاهاته الفكرية، عرضت من خلال إبداعها وقناعتها بأن الحلي نافذة مباشرة تكشف أغوار النفس وتترجم سمات شخصية صاحبتها وحقيقتها. ورغم أن الفنانة دارسة للهندسة إلا أنها عشقت هذا الفن وكانت أحد سفراء الإبداع المصري بمعرض الحلي في فيينا، كذلك تخصص لها مكتبة معهد العالم العربي بباريس مكان عرض دائم

لإنتاجها على مدار العام، كما شاركت في مهرجان فن الحلي بمركز الجزيرة في الأعوام المتتالية منذ عام ٢٠٠٢ قدمت سوزان معرضها الأخير بأتيليه القاهرة لتؤكد اتجاهها الفريد لتخطو خطوات جديدة في طريق الارتقاء بقيمة هذا الفن العتيق فالحلي ملازم للإنسان في حياته يتزين ويكرم به ذاته ويعبر به عن إحساسه ويشيد القرآن الكريم به «يحلون فيها من أساور من ذهب» صدق الله العظيم.

من كلام العرب في عصور العصر

التقديم
■ عبد القادر حميدة

لئن شكرتم

قَالَ عُمَرُ بن عَبْدِ الْعَزِيزِ : ذِكْرُ النِّعَمِ شُكْرٌ
وَقَالَ الْبُحْتُرِي :

يَزِيدُ تَفَضُّلاً وَأَزِيدُ شُكْراً
وَذَلِكَ دَأْبُهُ أَبَداً وَدَأْبِي
وَقِيلَ : لاَزَوَالَ لِلنِّعْمَةِ إِذَا شَكَرْتَ . وَلاَ بَقَاءَ لَهَا إِذَا كَفَرْتَ . فَالشُّكْرُ نَسِيمُ النِّعَمِ.

وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ :

اسْتَوْثِقُوا عُرَى النِّعَمِ بِالشُّكْرِ.

بَعَثَ الْمَنْصُورُ إِلَى شَيْخٍ مِنْ بَطَانَةِ هِشَامٍ ، فَاسْتَحْضَرَهُ وَسَأَلَهُ عَنْ تَدْبِيرِ هِشَامٍ وَأَحْوَالِهِ ، فَأَقْبَلَ الشَّيْخُ يَقُولُ : فَعَلَ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَقَالَ يَوْمَ كَذَا رَحِمَهُ اللَّهُ .

فَقَالَ الْمَنْصُورُ : قُمْ لَعَنَكَ اللَّهُ . تَطَأُ بِسَاطِي وَتَتَرَحَّمُ عَلَى عَدُوِّي .

فَقَالَ الشَّيْخُ : إِنَّ نِعْمَةَ عَدُوِّكَ لَقِلاَدَةٌ فِي عُنُقِي لاَ يَنْزِعُهَا إِلاَّ غَاسِلِي .

فَقَالَ الْمَنْصُورُ : ارْجِعْ إِلَى حَدِيثِكَ ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ غَرْسٌ شَرِيفٌ ، وَابْنُ حُرَّةٍ.

وَقَالَ الصَّاحِبُ : إِنْ شَكَرْتَ ، فَاشْكُرْ النِّيَّةَ ، لاَ الْعَطِيَّةَ.

وَقَالَ الشَّاعِرُ :

لأَشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفاً هَمَمْتَ بِهِ
إِنَّ اهْتِمَامَكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ

وَقَالَ الْبُحْتُرِي :

فَمَنْ لاَ يُؤَدِّي شُكْرَ نِعْمَةِ خِلِّهِ
فَأَنَّى يُؤَدِّي شُكْرَ نِعْمَةِ رَبِّهِ

الرَّفيقُ قبلَ الطَّريق

قيلَ : عَلَيْكُمْ بِحُسْنِ الجِوَارِ . فَإِنَّ السِّبَاعَ ، وَعِتَاقَ الطَّيرْ ، تُحَامِي عَلَى مَنْ يُجَاوِرُهَا

وَقَالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَلاَ يُؤْذِيَنَّ جَارَهُ.

وَقِيلَ : الجَارُ قَبْلَ الدَّارِ . وَالرفيقُ قَبْلَ الطَّرِيقِ

وَقَالَ أَبُو تَمَّام:

رَأَيْتُكُمْ لاَ يَصُونُ الْعِرْضَ جَارُكُمُ
وَلاَ يُـدَرُّ عَلَى مَرْعَـــاكُمُ اللَّبَنُ
جَـــزَاءُ كُـــلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمُ مَلَلٌ
وَحَظُّ كُـــلِّ مُحِـــبٍّ مِنكُمُ ضِغْنُ
مَنْ كَـــانَتْ نَفْسُـــهُ وَاحِدَةٌ

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ

كَانَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ رَقِيقَ الحَالِ ، فَاسْتَقْضَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ ، فَلَمْ يَتَغَيَّرْ. فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ:

مَنْ كَانَتْ نَفْسُهُ وَاحِدَةٌ ، لَمْ يُغَيِّرْهَا الْمَالُ

وَقَالَ الشَّاعِرُ :

مُتَوَاضِعٌ وَالنُّبْلُ يَحْرُسُ قَدْرَهُ
وَأَخُو التَّوَاضُعِ بِالنَّبَاهَةِ يَنْبُلُ

الإِخَاءُ الصَّحِيحُ

لَمْ أُؤَاخِذْكَ إِذْ جَنَيْتَ وَإِنِّي
وَاثِقٌ مِنْكَ بِالإِخَاءِ الصَّحِيحِ
فَجَمِيلُ الْعَدُوِّ غَيْرُ جَمِيلٍ
وَقَبِيحُ الصَّدِيقِ غَيْرُ قَبِيحِ

«أَبُو نُوَاسْ»

النَّفْسُ اللَّجُوجُ

إِذَا مَارَأَيْتَ الْمَرءَ يَقْتَادُهُ الْهَوَى
فَقَدْ ثَكِلَتْهُ عِنْدَ ذَاكَ ثَوَاكِلُهْ
وَقَدْ أَشْمَتَ الأَعْدَاءَ جَهْلاً بِنَفْسِهِ
وَقَدْ وَجَدَتْ فِيهِ مَقَالاً عَوَاذِلُهْ
وَمَايُرْدِعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ عَنِ الْهَوَى
مِنَ النَّاسِ إِلاَّ حَازِمُ الرأْيِ كَامِلُهْ

«هِشَامُ بنِ عَبْدِ الْمَلِكْ»

مفتاح كل خير

قَالَ سَعِيدُ بْنُ مُسْلِم بْنِ قُتَيْبَةْ:

دَعَا **الْمَنْصُورُ** صَاحِبَهُ **الرَّبِيعَ بْنَ يُونُس**، فَقَالَ لَهُ: سَلْنِي مَا تُرِيدُ، فَقَدْ سَكَتَّ حَتَّى نَطَقْت، وَأَخْفَقْتَ حَتَّى ثَقُلْت، وَأَقْلَلْتَ حَتَّى أَكْثَرْت.

قَالَ الرَّبِيعُ: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا أَرْهَبُ بُخْلَكَ، وَلاَ أَسْتَقْصِرُ عُمْرَكَ، وَلاَ أَسْتَصْغِرُ فَضْلَكَ، وَلاَ أَغْتَنِمُ مَالَكَ.

وَإِنَّ يَوْمِي بِفَضْلِكَ عَلَيَّ أَحْسَنُ مِنْ أَمْسِي، وَغَدُكَ فِي تَأْمِيلِي أَحْسَنُ مِنْ يَوْمِي. وَلَوْ جَازَ أَنْ يَشْكُرَكَ مِثْلِي بِغَيْرِ الْخِدْمَةِ وَالْمُنَاصَحَةِ، لَمَا سَبَقَنِي فِيكَ أَحَدٌ.

قَالَ الْمَنْصُورُ: صَدَقْتَ. عِلْمِي بِهَذَا مِنْكَ أَحَلَّكَ هَذَا الْمَحَلَّ، فَسَلْنِي مَا شِئْتَ.

قَالَ الرَّبِيعُ: أَسْأَلُكَ أَنْ تُقَرِّبَ عَبْدَكَ «**الْفَضْلَ**»، وَتُؤْثِرَهُ، وَتُحِبَّهُ.

قَالَ: يَارَبِيعُ، إِنَّ الْحُبَّ لَيْسَ بِمَالٍ يُوهَبُ، وَلاَ بِرُتْبَةٍ تُبْذَلُ. وَإِنَّمَا تُؤَكِّدُهُ الأَسْبَابُ.

قَالَ: فَاجْعَلْ لِي طَرِيقاً إِلَيْهِ، بِالتَّفَضُّلِ عَلَيْهِ.

قَالَ: صَدَقْتَ. وَقَدْ وَصَلْتُهُ بِأَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَلَمَّا أَصِلْ بِهَذَا أَحَداً غَيْرَ عُمُومَتِي، فَيَكُونَ مِنْهُ مَا يَسْتَدْعِي مَحَبَّتِي.

و .. كَيْفَ سَأَلْتَ لَهُ الْمَحَبَّةَ يَا **رَبِيعُ**؟

قَالَ: لأَنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ، وَمِغْلاَقُ كُلِّ شَرٍّ، تَسْتَتِرُ بِهَا عِنْدَكَ عُيُوبُهُ، وَتَصِيرُ حَسَنَاتٍ ذُنُوبُهُ.

قَالَ الْمَنْصُورُ: صَدَقْتَ، وَأَتَيْتَ بِمَا أَرَدْتَ.

..ومن أمثالهم

- إنَّ الْبُغَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ
- إيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ
- صَدْرُكَ أَوْسَعُ لِسِرِّكَ
- إِذَا تَفَرَّقَتْ الْغَنَمُ قَادَتْهَا الْعَنْزُ الجَرْبَاءُ
- إِذَا زَلَّ الْعَالِمُ .. زَلَّ بِزَلَّتِهِ عَالَمٌ
- غَثُّكَ خَيْرٌ مِنْ سَمِينِ غَيْرِكَ
- تَرْكُ الذَّنْبِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ
- إِنْ كُنْتَ رِيحًا فَقَدْ لاَقَيْتَ إِعْصَارًا
- إِنَّ الْهَزِيلَ إِذَا شَبِعَ مَاتَ
- إِنَّهُ لَيَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ

حكمة الدهر

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ يَوْمًا
مُنْتَهَى أَمْرِهِ إِلَى أَنْ يَزُولاَ
اجْعَلْ الْمَوْتَ نُصْبَ عَيْنَيْكَ وَاحْذَرْ
غُولَةَ الدَّهْرِ .. إِنَّ لِلدَّهْرِ غُولاَ

«أُمَيَّةُ بْن أَبي الصَّلْتِ»

الأحمق

اتَّقِ الأَحْمَقَ أَنْ تَصْحَبَهُ
إِنَّمَا الأَحْمَقُ كَالثَّوْبِ الخَلَقْ
كُلَّما رَقَّعْتَ مِنْهُ جَانِباً
حَرَّكَتْهُ الرِّيحُ وَهنًا فانْخَرَقْ
وَإِذَا جَالَسْتَهُ فى مَجْلِسٍ
أَفْسَدَ المجْلِسَ مِنْهُ بالخَرَقْ
كحِمَارِ السُّوءِ أَشْبَعْتَهُ
رَمَحَ النَّاسَ وإِنْ جَاعَ نَهَقْ
أَوْ كَعَبدِ السُّوءِ إِنْ جَوَّعْتَهُ
سَرَقَ الجَارَ وَإِنْ يَشْبَعَ فَسَقْ

«مِسْكِينُ الدارمِىّ»

من بوش إلي أوباما

أثارت حقبة الرئيس الأمريكى السابق جورج بوش جدلا عالمياً واسعاً لما شهدته من أحداث مهمة وتدخلات عسكرية أمريكية فى كل من أفغانستان والعراق كما شهدت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ثم جاء الرئيس الجديد باراك أوباما ليرفع راية التغيير بتوجهات جديدة ومختلفة عن سياسات سلف .

ويقدم لنا د. وليد محمود عبدالناصر فى كتابه الجديد «من بوش إلى أوباما» مدخلاً عاماً لفهم المجتمع والسياسة فى الولايات المتحدة الأمريكية.. فى المرحلة الراهنة والتعرف على دور الجماعات المختلفة داخل المجتمع الأمريكى خاصة القوى ذات الفاعلية والنفوذ وكان حرص د. وليد على أن يقدم هذا الكتاب للقارئ المصرى والعربى من منطلق أن آثار التفاعلات التى تحدث فى المجتمع والسياسة الامريكية لا تقتصر على حدودها فقط ، بل تمتد إلى العالم بأسره ، شرقه وغربه . وتقع مصر والعالم العربى كله فى مرمى تأثير السياسة الأمريكية التى ترتبط بتفاعلات داخلية متغيرة ولذلك كان حرص د. وليد على التعرف بشكل أعمق على هذه القوة العظمى وما يحدث فيها من تطورات لتتمكن من فهم ماذا يجرى فى كواليس السياسة الأمريكية ومدى تأثيرها على قضايانا الوطنية مصريا وعربيا إنها دراسة موضوعية جادة تحلل وتناقش وتقدم لنا الخيوط الظاهرة والخفية فى السياسة والحرب الخفية .

حماية البيئة فى اتفاقيات التجارة العالمية

يقدم لنا هشام بشير فى هذه الدراسة إلى أى مدى استطاعت اتفاقات منظمة التجارة العالمية التوفيق بين هدفى التجارة العالمية وحماية البيئة وكيف يمكن فى ضوء هذه الاتفاقات توفير حماية ملائمة وفعالة ضد ما يتهدد البيئة من مخاطر وأضرار نتيجة تزايد حركة حرية التجارة العالمية

مكتبة الهلال.. إطلالة على عالم الكتب الرحيب، تنتقى بعضاً منها لتعرضه على القارئ، لعله يصيب بعض الفائدة، أو تلفت نظره إليها فيسعى إلى تمامها..

الدبلوماسية المصرية والهموم الخارجية

تحظى مذكرات رجال السلك الدبلوماسى بأهمية خاصة لكونها تسجل وتوثق الأحداث السياسية التى عايشها وشارك فيها كتابها.

ومن هنا جاءت أوراق أو مذكرات السفير هانى خلاف مساعد وزير الخارجية ومندوب مصر لدى الجامعة العربية سابقا لتسجل حقبة مفصلية من تاريخ مصر على مدى ستة وثلاثين عاما فى العمل الدبلوماسى منذ التحاقه بالسلك الدبلوماسى المصرى عام ١٩٧١ وتوجهه مشكوراً لتلك المعالجة الشيقة التى جمعت بين الجوانب العملية للمهنة الدبلوماسية والعرض والتحليل لبعض قضايا السياسة الخارجية المصرية وقضايا العمل العربى المشترك على حد تعبير السيد أحمد ماهر وزير الخارجية المصرى السابق.

ويحتوى الكتاب على ثلاثة فصول هى : مشاهد من كواليس الخارجية المصرية - مصر والنظام العربى - ظواهر ولقاءات فى السياسة العربية .

وإذا كان السفير أحمد ماهر قد نبه إلى أن ما يحمله هذا الكتاب من آراء وملاحظات وتحليلات يظل فى عداد الاجتهاد العلمى والشخصى فإن ذلك يعد شهادة للمؤلف فى كتابة تجربته الدبلوماسية والسياسية الخاصة دون التقيد برؤى المؤسسات الرسمية التى عمل بها على طول الخط فجاء كتابه شهادة مليئة بالحيوية والصدق متحررا من قيود التصريحات الرسمية .

قراءات شتي

يأتى هذا الكتاب الجديد للأديب الناقد د. ماهر شفيق فريد ليستكمل به نتاج قراءاته وتأملاته وآرائه النقدية التى قدمها لنا فى عدة مؤلفات تعكس مدى غزارة ثقافته وعمقها وكثرة قراءاته المتنوعة فى الآداب العالمية ليذكرنا بجيل الرواد من نقاد الأدب الجادين فى مصر الذين ظهروا منذ فترة الأربعينيات وحتى الستينيات أمثال د. محمد غنيمى هلال ود. محمد مندور ود. محمد صقر خفاجة وغيرهم من رواد النقد الإبداعى فى مصر .

قسم . د. ماهر كتابه إلى ثلاثة أقسام هى : فى الأدب العربى المعاصر -

فى الآداب الأجنبية - مقالات مترجمة وهذه الجوانب الثلاثة هى محور أعمال د. ماهر البحثية والنقدية ، فرغم تخصصه فى الأدب الإنجليزى وكثرة قراءاته فى الأدب العالمى ، إلا أنه يتميز باطلاعه وتعمقه فى الأدب العربى المعاصر وبحوثه وتحليلاته الجادة العميقة فى الأدب العربى فى الشعر والقصة والرواية والمسرح وغيرها من فنون الأدب وألوانه .

فى النقد القصصى

رغم رحلة د. كمال نشأت الثرية فى عالم الشعر باعتباره من أبرز الشعراء المجددين فى مصر والعالم العربى منذ حقبة الأربعينيات من القرن الماضى إلا أن له اهتمامات أدبية ونقدية أخرى مثل النقد الأدبى لكن الجديد هذه المرة هو نقده القصصى لمجموعة من الأعمال القصصية والروائية لعدد من مبدعينا المعاصرين بجانب نظراته النقدية فى حكايات ألف ليلة وليلة المصرية والوصف فى الأدب القصصى وكلها نظرات نقدية وفنية تفصح عن ثقافة أدبية ونقدية عميقة لشاعرنا المجدد الكبير .

طائر الشعر

يجمع د. يوسف نوفل بين الإبداع الشعرى حيث صدرت له خمسة دواوين شعرية وبين النقد الأدبى وتمتد رحلة د. يوسف نوفل الأدبية والنقدية ليقدم لنا مجموعة من البحوث والدراسات الأدبية والنقدية خاصة فيما يتصل بأصوات النص الشعرى والصورة الشعرية، والرمز اللونى والطير المهاجر من القول إلى التأويل ولكن تأتى موسوعته الكبرى عن الشعر العربى الحديث والمعاصر لتمثل إنجازا علميا كبيرا تستحق أن يفرد لها دراسة خاصة .

وفى هذا الكتاب الجديد عن طائر الشعر : عش الفيض ، وفضاء التأويل» يقدم لنا دراسة جديدة مختلفة ويتناول فيه تكون المشهد الشعرى فى هجرة ذلك الطائر مغردا أو باكيا من عش فيضه الإبداعى ، ثم إلى كلمته الحية ، ماضيا، من ثم إلى دفء الاستقبال التأويلى القائم على تحليل النص واستشفافه وقراءته قراءة حميمة . إنها دراسة نقدية رائعة تأخذه فى عالم طائر الشعر بكل رحابته وأفقه المترامى الفسيح .

حفيدات شهرزاد

يقدم لنا الأديب والناقد يوسف الشارونى فى هذا الكتاب قراءاته النقدية فى إبداعات القصة والرواية عند بعض المبدعات المصريات والعربيات على مدى نصف قرن من الزمان ، فجاء هذا الكتاب ليكون بمثابة خلاصة لرفقة مجموعة من المبدعات اللائى تقدمن نماذج لإبداع المرآة العربية منذ بدأت شهرزاد كلامها المباح .

وقد قسم يوسف الشارونى كتابه إلى بابين هما : مبدعات القصة القصيرة وقدم فيها تحليله ونقده لمجموعات قصصية لسكينة فؤاد وملك عبدالعزيز وزينب رشدى وزينب صادق وأليفة رفعت وجاذبية صدقى وصوفى عبدالله وغيرهن وفى الرواية قدم تحليلا ونقدا لروايات د. لطيفة الزيات ووفية خيرى وأميمة خفاجى ونجلاء محرم وبدرية الشحي وطيبة الإبراهيم .

هو كتاب جديد للأديب الناقد يوسف الشارونى حرص أن يقدم فيه خلاصة رحلته النقدية أمام الإبداعات القصصية والروائية لحفيدات شهرزاد

حبيبتى نزيف من عروق ثلاثة

يقدم لنا الشاعر المتميز محمد الفارس هذا القصيد الملحمى الذى يتضمن نزيفا يسيل من عروق ثلاثة هى حبيبة ميتافيزيقية أحبها الصوفى والعاشق والشاعر.. فالصوفى يمر بالشبق الروحى ، ثم الوصول خلال الأحوال والمقامات، فيعرف ويبوح .

أما العاشق فهو يبحث فى كل أنثى عن هذه الحبيبة الفوقانية ، ويظل بين المد والجزر والصعود والهبوط، والشبق فى الارتياح .

أما الشاعر فيمتد أيضا صعودا وهبوطا داخل العالم الشعرى .. شبق ثم ارتياح بعد عملية الإبداع .

وهكذا فإن الشبق موجود فى كل منهم ، ويبقى السؤال المهم ، هل يمكن أن يتساوى الشبق الاحساسى ، مع الشبق المادى ، مع الشبق الإبداعى فى دائرة لا تنتهى.

إن هذا القصيد الملحمى للشاعر المبدع محمد الفارس يقدم فيه رؤية صوفية فلسفية ملحمية من خلال تركيبات وصور شعرية معبرة تتسم بالقوة بقدر تميزها بالصدق وقوة التعبير .

الرواية التاريخية بين الماضي والحاضر

لجنة المناقشة : د. منى حسين مونس ابنة العالم الكبير د. حسين مؤنس مشرفة .. و د. محمد حلمي ود. جيهان شفيق مناقشين

أخبار ثقافية

نالت الباحثة نرمين محمود همام درجة الماجستير في الأدب الإنجليزى بدرجة امتياز عن بحثها «الرواية التاريخية بين الماضى والحاضر» عن ثلاث روايات هى: «القزم الأسود» (١٨١٦) للأديب الاسكتلندى «وولتر سكوت»، ورواية «أشياء تتداعى» (١٩٥٨) للكاتب النيجيرى تشينوا أتشيبى، ورواية «الزينى بركات»(١٩٧٤) للكاتب المصرى جمال الغيطانى حيث تناولت فى دراستها هذه الروايات الثلاث باعتبارها مثالا للرواية التاريخية بأشكالها المختلفة ونموها وتطورها الأدبى من خلال تجسيدها للحركات الأدبية: فتمثل رواية سكوت الحركة

الباحثة نرمين محمود همام أثناء المناقشة

الكلاسيكية ورواية أشياء تتداعى تمثل الحداثة أما الزينى بركات فتجسد تيار مابعد الحداثة.

تقع الدراسة فى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة حللت فيها الباحثة الروايات الثلاث من النواحى الفنية والتكنيكية والنقدية، أشرف على الرسالة د.منى حسين مؤنس ابنة العالم الكبير د.حسين مؤنس وتكونت لجنة المناقشة من كل من د.محمد حلمى ، ود.جيهان شفيق.

اللغة العربية في الإعلام والدستور

د. أحمد فتحي سرور

اللغة العربية في الإعلام .. والدستور

انطلقت الدورة السادسة والسبعون لمجمع الخالدين (مجمع اللغة العربية) يوم الاثنين ٢٢ من مارس الفائت، لتستمر حتى الخامس من الشهر الجاري، تحت عنوان " اللغة العربية في الإعلام " ..

كان ضيف شرف مجمع اللغة العربية في هذه الدورة الأستاذ الدكتور أحمد فتحي سرور، رئيس مجلس الشعب، الذي ألقى محاضرة عن اللغة العربية في الدستور، تناول فيها مكانة اللغة العربية وأهميتها لجميع المسلمين، الذين يشكلون كتلة بشرية لا يستهان بها.. كما أوضح الدكتور سرور كيف اهتم الدستور المصري باللغة العربية، فنص في مادته الثانية على أن الإسلام دين الدولة، ولغة الإسلام هي لغة القرآن والأحاديث النبوية، أي اللغة العربية.. "إذا ما عرفنا أن اللغة العربية في الدستور هي لغة القرآن الكريم، بات واضحا أن الدستور قد أعطى للغة البلاغة والإعجاز والبيان قيمة دستورية تخاطبنا جميعا ..

د. محمود حافظ

إن لغتنا العربية هي لغة الدستور، ومكانة لغتنا في الدستور تتصل بانتمائنا الثقافي والعربي، وانتماء الدولة للإسلام وانتماء التشريع لمبادئ الشريعة الإسلامية"

كما أكد الدكتور سرور مدى احتياجنا – نحن الناطقين بالعربية – إلى إعطاء ظاهرة التنغيم والإيقاع الصوتي اللغوي حقها من الاهتمام الجيد بها، لمدى أهميتها في نظم توليد الكلام وفهمه آليا ..

وهو ما يشير إلى مدى تعمق الدكتور سرور في استيعاب وسائط التواصل اللغوي الحديثة، بالإضافة إلى معرفة قوية باللغة صوتيا وصرفيا..

فاروق شوشة

وكانت دورة المجمع قد افتتحت في تمام الساعة الحادية عشرة بكلمة للأستاذ الدكتور محمود حافظ، رحب فيها بالحضور أعضاء ومراسلين وإعلاميين، ثم ألقى الأستاذ الدكتور محمد عبد العزيز موافي كلمة الأستاذ الدكتور هاني هلال، وزير التعليم العالي والدولة للبحث العلمي، أوضح فيها أهمية ارتقاء الإعلام بلغته موضوعا ونطقا، ثم أعقبه الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع السوري، ملقيا كلمة الأعضاء العرب من غير المصريين، ثم ختم الجلسة الافتتاحية الأستاذ فاروق شوشة، الأمين العالم للمجمع بكلمته " بين مؤتمرين" استعرض فيها أنشطة المجمع خلال العام المجمعي المنصرم، بما يؤكد دور المجمع وأهميته حارسا للغة العربية ناهضا بها لتواكب الزمان.

أوبرا سلطنة عمان

يجرى حاليا العمل فى بناء أول دار أوبرا والفنون الموسيقية فى العاصمة العمانية مسقط لتكون أول دار أوبرا فى عمان ومنطقة الخليج.

وقد ذكرت الأنباء أن تصميم الدار سيكون مميزاً، من ناحية مواصفات التقنية العالمية الخاصة بمجالى المسرح والموسيقى، مع الحفاظ على الطابع العمانى فى التصميم والعمارة.

ربيع الشعراء

احتفل المجلس الأعلى للثقافة فى منتصف مارس الماضى بالذكرى الحادية والستين لرحيل ثلاثة من كبار شعراء مصر هم: على محمود طه وإبراهيم عبدالقادر المازنى وعلى الجارم الذين رحلوا فى عام واحد هو ١٩٤٩، وقد أقام المجلس أمسية لكل شاعر على مدى ثلاثة أيام تحت عنوان «ربيع الشعراء».

على الجارم

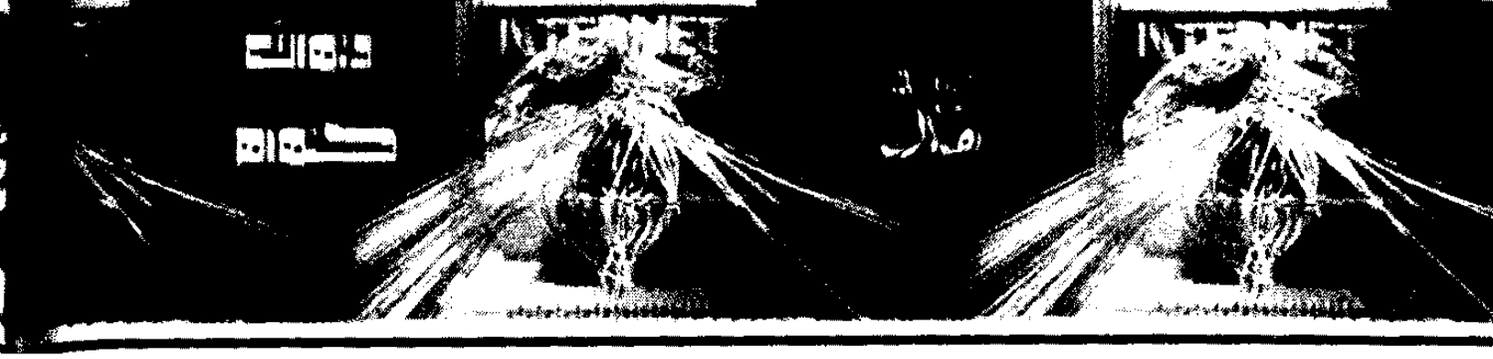

شموع صغيرة

اغتصاب + تشريد + تجويع + ترويع= تطبيع!!

منعت كل الدول المخدرات لكنها أجازتها لإسرائيل بشرط أن تسميها: مفاوضات!

لا توجد فى لبنان العظيم الذى عايشته قبل أكثر من ستين سنة طائفية- وما أحلى الإخوة اللبنانيين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم-، بل يوجد فيه «تجار طائفية» وتجارتهم رائجة فى سوق المناصب..

أرنى شرا ما ارتد على صاحبه...

اعمل بصمت يا أخى ولا تكن كالدجاجة كلما باضت قوقأت...

الدبلوماسية الناجحة تجعل من «نصف الصديق» صديقا ومن العدو «نصف صديق»

ضحك كذاب محترف عندما قلت له: إذا كان لابد لك من الكذب فليكن كذبك معقولاً!!

قالت «العملة النادرة»: لقد زاحمنى الوفاء ولما صرت «العملة الأندر» تقدمنى ولم يتأخر!!..

حارث طه الراوى

لا يحق لك أن تقول: أنا صاحب قلم إذا لم تكن صاحب موقف...

لو سأل الوطن العربى من الماء إلى الماء: كيف حال الأديب والشاعر الكبير فى سنه وعبقريته وإبداعه؟ لأجاب: بخير والحمد لله، فله قصر منيف من أحلامه، وغذاء لذيذ من آلامه وثروة طائلة من أسقامه، وحالة مخجلة من حرمانه!!!...

ذكرنى البحر بحنان أمى...

جميل أن نكون حاتميين فى الكرم والأجمل أن نكون حاتميين فى الإنصاف..

أكبر كارثة تصاب بها عملية التربية والتعليم تحصل عندما يكون المعلم عديم الشخصية والتلميذ عديم التربية المنزلية...

رأيت الباطل يحتضن «حق القوى» والضعاف يصفقون وسمعت هتاف رجل جرئ منصف بصوت مرتفع: «عاش الزيف»...

حب «مصر» العظيمة يتدفق من قلبي ويجرى فى عروقى فينعشها ولا يزول بزوالى لأنه خالد بشعرى فهل يتلاشى حب صاحب هذين البيتين اللذين قلتهما فى مزرعة «كفر تصفا» فى الطريق الزراعى بضواحى القاهرة سنة ١٩٦٣ بعد ضيافة ثلاثة أيام:

رأينا جنة فى «كفر تصفا»

وناساً من غير الماء أصفى

فلو أشفى على موت سقيمٌ

وأبصر طيفها فى النوم يشفى!!

أصل الأسماء

الفسطاط: هى عاصمة مصر فى الماضى أطلق عليها هذا الاسم ويعنى الخيمة بعد أن أقام عمرو بن العاص خيمته بها.

بين القصرين: شارع بالقاهرة أطلق عليه هذا الاسم لوقوعه بين القصر الكبير الشرقى الذى بناه العزيز بالله وبين القصر الكبير الذى بناه والده.

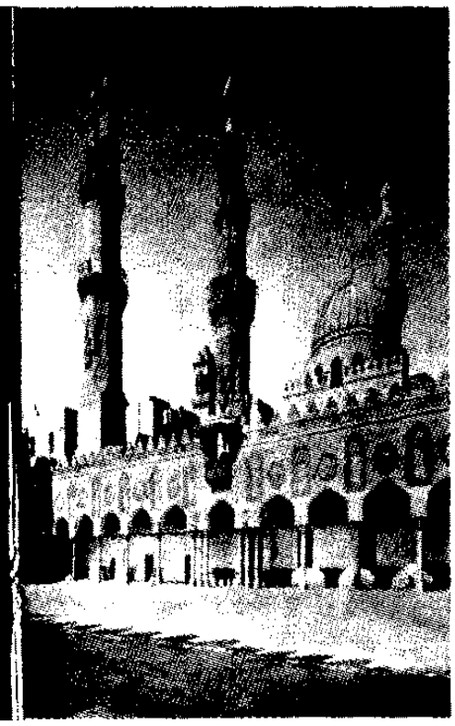

جامع الكخيا: كان يطلق عليه جامع كتخده نسبة إلى الوالى الذى بناه ثم حرف الاسم إلى الكخيا.

عمود السواري: عمود بمعبد سرابيوم بالإسكندرية وكان يرى من مسافة بعيدة فأطلق عليه سارى الوادى ثم حرف إلى عمود السوارى.

كوم الشقافة: منطقه أثريه بالإسكندرية كان بها عدد من المقابر اليونانية وأكوام من الفخار المتكسر أو الشقافة فأطلق عليها هذا الاسم.

الأزهر: بنى سنة ٣٥٩هـ وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة في السابع من رمضان سنة ٣٦٠هـ وسمى بهذا الاسم نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول - عليه الصلاة والسلام- وفى رواية أخرى لأنه كان محاطا بالقصور الزاهرة.

بغداد: يعنى اسمها بالتركية عطية الله وفى رواية أخرى هى تتكون من مقطعين بغ وتعنى بالفارسية بستان وداد صاحب البستان الذى قامت على أرضه مدينة بغداد.

الجنيه: هو الوحدة الحالية للعملة فى مصر وتم صكه وتداوله سنة

١٨٣٦ فى عهد محمد على، والجنيه كلمة إنجليزية أما القرش فهو كلمة مشتقة من جرش وتعنى الجزء من الشىء أما المليم فهى كلمة فرنسية تعنى الواحد من الألف.

داء الملوك : هو مرض النقرس ومن أعراضه آلام حادة بالمفاصل وتبدأ من إبهام القدم ويصحبها ارتفاع فى درجة الحرارة وينشأ المرض من الإسراف فى أكل اللحوم مما يؤدى إلى ازدياد حمض البوليك فى الدم وترسب أملاحه فى أجزاء متعددة من الجسم وأطلق على المرض داء الملوك لأنه كان منتشرا بين الملوك والأمراء وعلية القوم الذين كانوا يأكلون اللحم دون الفقراء.

الكيمياء : اسم مشتق من الكلمة الإغريقية كيمى وتعنى صهر المعادن وسبكها أو مشتقة من كيم التى كانت تطلق على مصر قديما وتعنى الأرض السوداء، وكانت الكيمياء قديما تقتصر على تحويل المعادن إلى ذهب أو لتحضير إكسير الحياة الذى يطيل العمر.

بيجاما : كلمة فارسية الأصل تعنى غطاء الرجلين وفى بعض البلاد تطلق على رداء النوم وكان الهنود هم أول من لبسوها عند النوم.

بنج بونج : هو الاسم الذى يطلق على لعبة تنس الطاولة واشتق هذا الاسم من صوت الكرة وهي ترتطم بالمنضدة.

السادية : مرض نفسى يجعل المصاب به يشعر بالتلذذ من تعذيب الآخرين وأطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى ضابط فرنسى يدعى الماركيز ديساد كان يتلذذ بتعذيب الآخرين.

شهر مارس : كان أول شهور السنة عند الرومان القدماء وأطلقوا عليه هذا الاسم نسبة إلى مارس إله الحرب فى معتقداتهم وهو المحارب الشجاع الجرىء المنتصر دائما لذا كانوا يتوجهون إليه بالدعاء لنصرتهم فى حروبهم.

الچيوكنده : لوحة شهيرة توجد فى متحف اللوفر فى باريس رسمها الإيطالى دافنشى ما بين عامى ١٥٠٣، ١٥١٠ وهى لسيدة إيطالية تدعى موناليزا وأطلق عليها الچيوكنده نسبة إلى زوجها چيوكند وقد أحضر لها دافنشى أحد المهرجين كى تظل محتفظة بابتسامتها أثناء رسمها.

محمد أمين عيسوى
الإسماعيلية

كبرياء

احمر قرص الشمس. واسود وجه الأرض. تداعيات شتى.. أقذفها خلفي. وأسير.. أحاول الصمود وتكملة ما بدأت.. أرغب.. فى الوصول قبل رواح النهار؛ يبدو أن النهار.. أسرع انسحابا، إنهم جميعا فى انتظارى. لا يستطيعون أن يقيموا العرس بدونى، أنا العريس... ومهما تأخرت يمكننى أن أعتذر. ويمكنهم أن يقبلوا اعتذارى . لكنها لن تقبل. ولن تسامحنى؛ أعرفها.. عنيدة. ولكنى أستطيع أن أحتويها.. فهى دائمة الاقتناع والتأثر بى.

حتى فى حركة يديها، لن أكذب عليها.. بل سأصارحها، لم أكذب عليها عمرى.. هى تعلم ذلك.. وهم جميعا .. يؤمنون يقينا بذلك لكن.. ماذا أقول؟.. أأقول الحقيقة.. هكذا دون تجمل؟.. ستكون كارثة. وإذا جملتها؟.. أيضا لا يفى التجمل. المهم الحقيقة. آه..... يبدو أن الظلام طمس معالم الطريق... ويبدو... أننى تهت. ماذا أفعل؟ لابد أن أستريح.. كى أستطيع استكمال .. الطريق، كان من السهل أن أطلب من أحدهم أن ينتظرنى.. ويوصلني.. لكن كبريائى منعنى.. وهذه قضيتى؛ ما هذه اللحظات.. التى لا أجد لها حلاً.. كيف يحدث هذا فى ليلة عرسى؟ أنتظر هذه الليلة منذ سنوات عديدة «الله» يسترنى.. هذه كانت دائما دعوة أمى لى.. وأنا اعتدت فى.. اللحظات الصعبة أن يكون ناصرى .. لا يتركنى، الخروج من هذا.. يحتاج إلى عون إلهى، نظارتى السميكة حولت كل شيء إلى أشباح الخوف الذى لم أعرفه أبداً.. بدأ يتسرب إلىّ . علت دقات قلبى. أسرعت الخطى. سقطت نظارتى.. بدونها لا أرى شيئا، سقطت.. خلفها.. أبحث عنها.. أتحسس.. لم أجدها يمينا.. أو يساراً.. أو حتى فى الوسط زادت التداعيات.. والوصول إليها الآن أمسى مستحيلا.. حتى الرجوع لم يعد مستطاعا والكلاب التى انتشرت بأرجاء القرية أصابها السعار.

محمد شلبى

أدب التفحش فى السرد

■ صافى نازكاظم

تقييمى النقدى لرواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" يتلخص فى الآتى: أنها من أقبح ما كتبه الحرف العربي، ولعل صفة القبح هي الوحيدة التي تؤهل هذه الرواية لتصنيف: "واحدة من أشهر مائة رواية عربية»، فشهرتها جاءت من قبحها وليست من أهميتها أو جدواها وكنت قد قرأتها حين صدورها عام ١٩٦٩ في سلسلة روايات الهلال مع الضجيج الذى صاحبها، من الناقد الراحل جبرا إبراهيم جبرا الذي اعتبرها "أحسن رواية ظهرت فى الأدب العربي على الإطلاق.." ووافقه الناقد الراحل رجاء النقاش فى ترويج مكثف لها قيل فيه الكثير، و إن كان أعجب ماقد قيل هو تفسيرها كرمز من رموز المقاومة الثقافية ضد "الاستعمار"!

بعد انتهائى من قراءتها كتبت الآتى: "أخيرا استطعت ،بمجهود و صعوبة، إكمال قراءة هذه الرواية الفاحشة عن سيرة سفاح نساء، لا أكثر ولا أقل، سخر لها الطيب صالح فنه هباء بلا ضرورة."

وحين عدت ،مجددا، لمراجعتها بعد أن نسيت تفاصيلها هالتنى بشاعتها لفظا ووصفا وتصورا وتساءلت: كيف رأى البعض بطلها "مصطفى سعيد" رمزا إيجابيا بين الشمال والجنوب أو بين الشرق و الغرب فيما لقبوه بـ"صراع الحضارات"؟ وإذا كان المقصود رسم صورة لنماذج إنسانية فما الضرورة الفنية لكل ذلك التفحش فى السرد؟ وأين الجمال المزعوم فى صياغات كشف العورة البهيمية التى اعتمدها المؤلف فى بنائه الروائي ولم تضف إلى القارئ سوى القرف والاشمئزاز والإهانة؟

فى مقال قيم نشرته جريدة الشرق الأوسط ٢٠٠٧/٤/١١م للكاتبة البريطانية جريزلدا الطيب بعنوان "من مصطفى سعيد بطل رواية موسم الهجرة إلى الشمال؟"، أعجبنى اقتصادها في نعت الرواية بقولها "روايته ذائعة الصيت"، نعم هى ذائعة الصيت لكن هذا لا يجعلها نبيلة ولا جليلة ولا "أحسن رواية ظهرت فى الأدب العربى على الإطلاق".

الطيب صالح صاحب قدرة فنية، لا أطعن فى ذلك، لكنه مثل مغن أضاع نعمة صوته الجميل في غناء كلمات نابية منزوعة العفة والحياء، وهو رائد، بلا شك، في مسيرة أدب الهوس الجنسى المنغمس فيه الآن كتاب كثيرون وكاتبات أبرزهم مؤلف رواية "تغريدة البجعة" التي "ذاع صيتها" بجدارة فحشها، وهيص لها نقاد ومعجبون لهم ذائقة أدبية و فنية مثيرة لتعجبى!

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com
مايا شوقي

■ كاتبة وناقدة أدبية

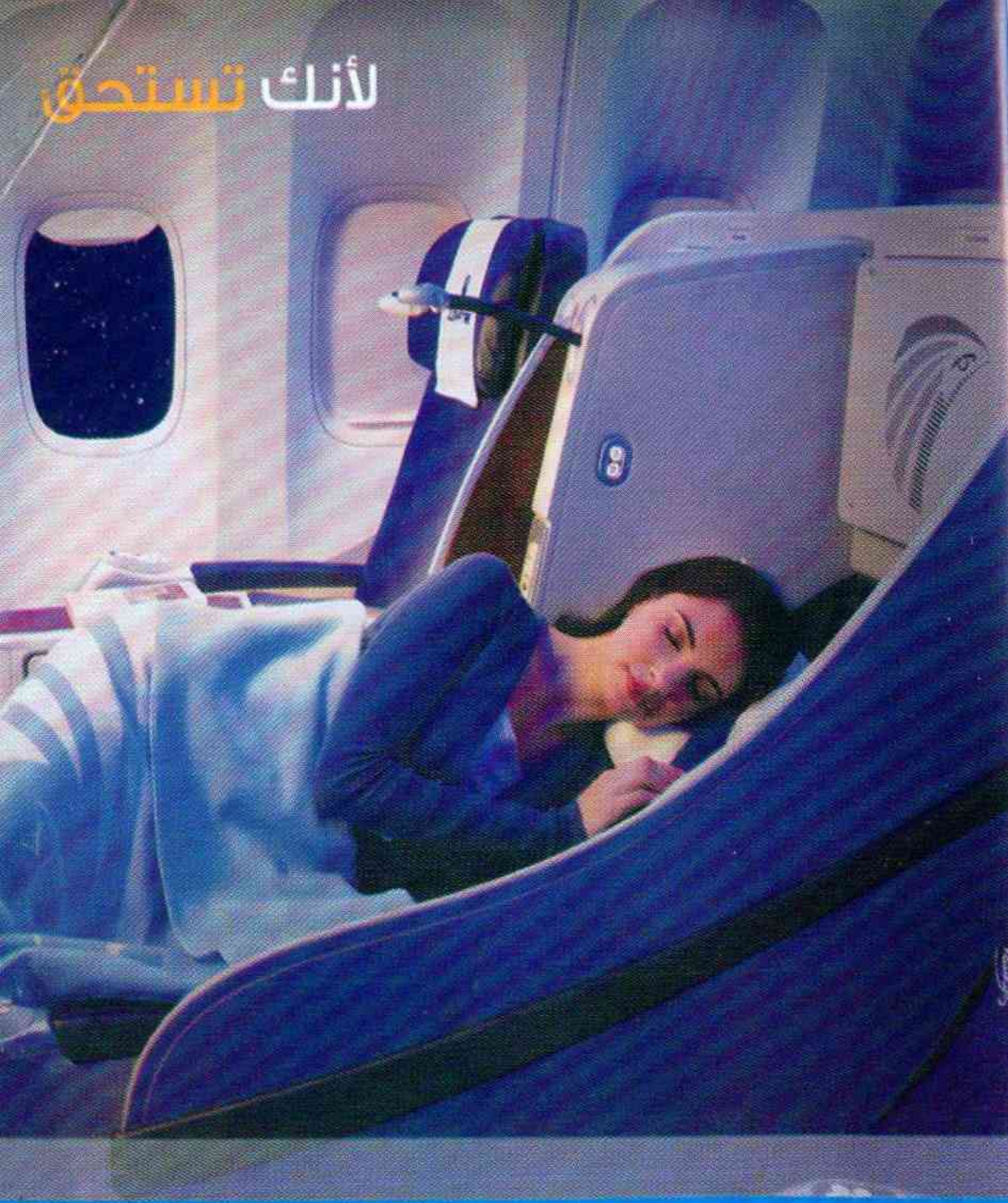

الآن يمكنك السفر بين القاهرة ولندن على متن الطائرة الجديدة Boeing 777-300ER والتمتع بأرقى مستويات الراحة والرفاهية والخصوصية.

استمتع بنوم هادئ على المقاعد الجديدة Full Flat Bed على درجة رجال الأعمال، وعلى جميع الدرجات يمكنك الاستمتاع بالنظام الترفيهى الجديد المتطور والذى يتيح لك الإختيار من بين مئات القنوات الترفيهية من خلال شاشتك الشخصية، بالإضافة إلى وجباتنا الجديدة التى أختيرت بعناية لتناسب مختلف الأذواق.

سافر معنا واستمتع بالخدمات الجديدة

EGYPTAIR

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

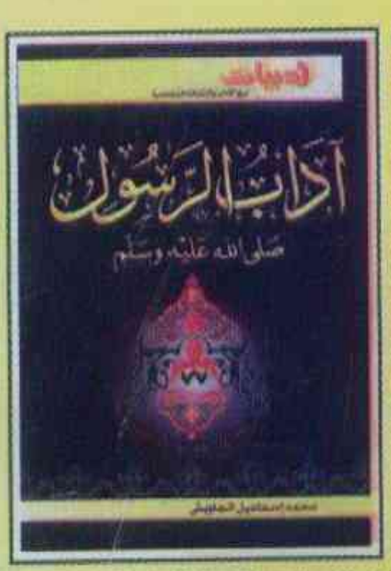

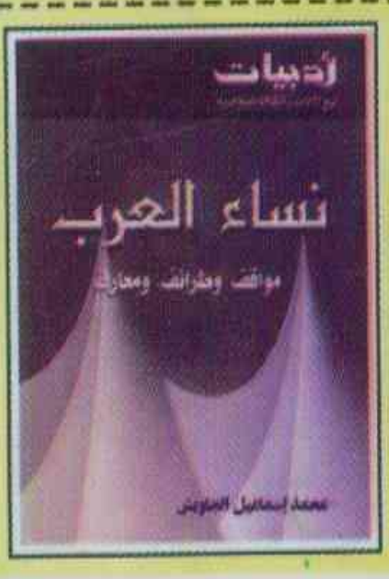

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10 ، 16 ش كامل صدقى الفجالة ،
4 ش الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة - ت : 26823792 - 25928202 - 22586197
فاكس - 202/25966650 ج.م.ع ، 4 ش بدوى محرم بك - الإسكندرية ت : 03/4970840 - 03/4970850

مصرياتي
مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com